

فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حُقوقُ الطَّبْعِ مَحْفُوظَةٌ

الطَّبْعَةُ الْأُولَى

١٤٤٧ هـ / ٢٠٢٦ م

رقم الإيداع: / ٢٠٢٦ م

رقم الإيداع: □ □ □ □

دار اللؤلؤة للنشر والتوزيع

@DarElollaa

Dar_Elollaa@hotmail.com

الأزهر : شارع محمد عبده خلف الجامع الأزهر .

01050144505 - 0225117747

المنصورة : عزبة عقل - بجوار جامعة الأزهر .

01007868983 - 0502357979

فماذا بعد الحقِّ إلا الضلالُ

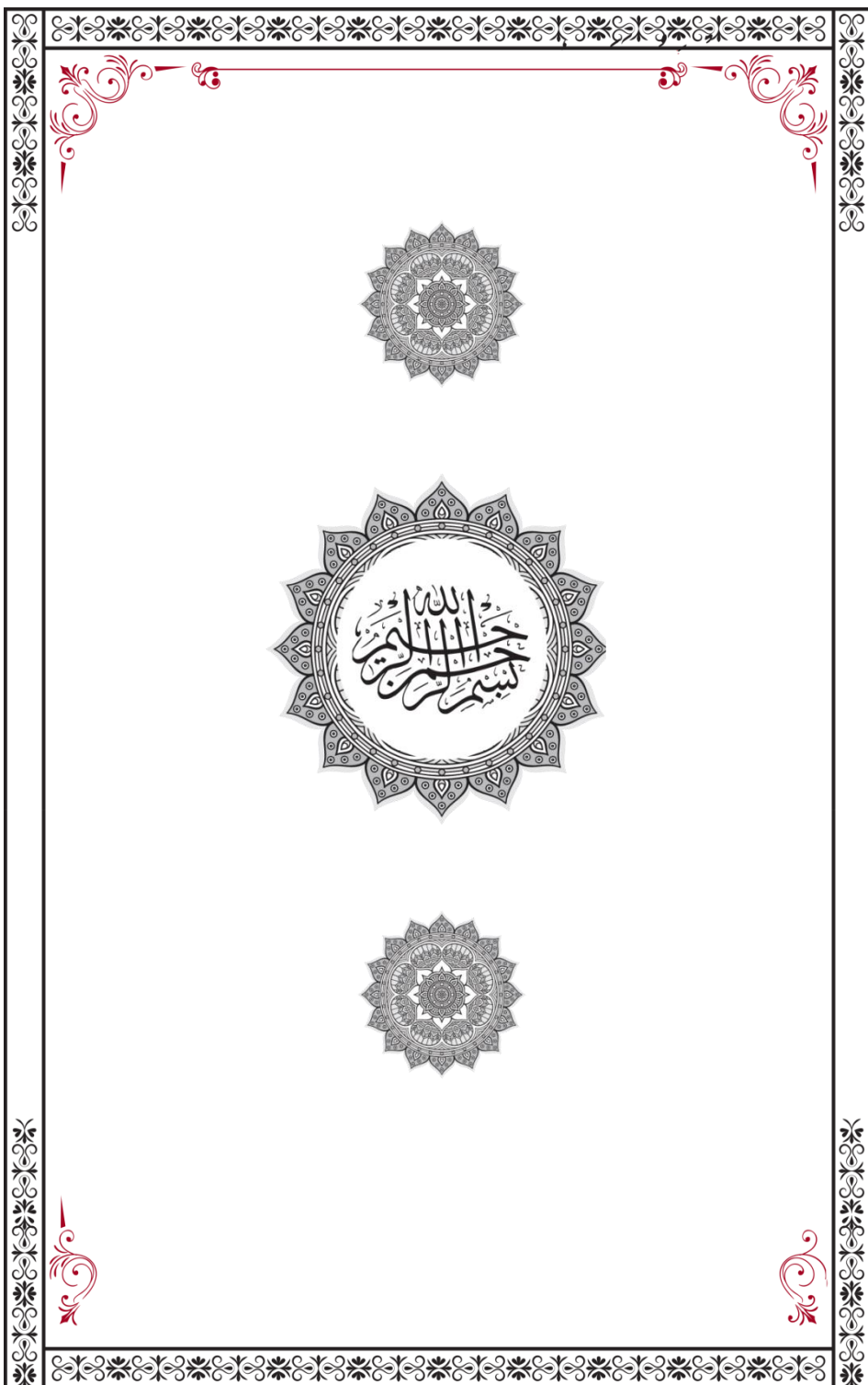
خطابٌ عقلائيٌّ للردِّ على الملحدين، وبأدلةٍ قاطعةٍ

جمع وتنسيق

عبدالله بن محمد الطوالة

دار اللؤلؤة

للنشر والتوزيع
البيضاء - مصر



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا

الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴾ [يونس: ٣٢].



الإهداء

إلى كلّ من ينشدُ الحقَّ بصدق..

أهدي هذا الكتاب، مع خالص الأمنيات..



الباب الأول:

مدخل عام..

﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيَرِيكُمْ ءَايِنُهُ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾
 [النمل: ٩٣].. وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له: ﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النور: ٤٦]..

والصلاة والسلام على مَنْ بعثه الله تبارك وتعالى هاديًا ومبشرًا
 ونذيرًا، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، فبلغ الرسالة، وأدى
 الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده، صلى الله وسلم
 وبارك عليه، وعلى آله وصحابه الأبرار، والتابعين وتابعيهم
 بإحسانٍ ما تعاقب الليل والنهار، وسلّم تسليمًا كثيرًا..

أما بعد: ففي عالمٍ يتسارع فيه التطور العلمي والتقني تسارعًا
 مذهلاً، وتتناثر فيه الأفكار والعقول على طرفي نقيض، ويختلط فيه
 الحقُّ بالباطل، وتتداخل فيه الدلائل والحقائق بطريقة محيرة، فلا
 عجب أن يُفرز ذلك مجموعةً من التوجهات الفكرية المخالفة،
 والآراء المتعارضة، ومن أبرز ذلك ظاهرة الإلحاد.. هذه الظاهرة

التي أثارت وما زالت تثير الكثير من النقاش والجدل..

« فهل هي تعبيرٌ عن حرية الفكر ولو بالكفر..

« أم هو الهروب من مواجهة الحقيقة وما يتبعها من تكاليف..

« أم هو الإعجاب والانبهار بالآراء المخالفة للمألوف..

« أم هو البعد عن الإيمان، وغذاء الأرواح، استغراقاً في عالم

المادة والجسد..

« أم هو أزمة فهم وفقر ثقافي..

« أم هو ردة فعل لسببٍ شخصي.. أم شيءٌ غير ذلك..

فكثيرة هي الأسباب.. إلا أن الوصول إلى الحقيقة ليس صعباً،
وبإمكان كل من يبحث عنها بصدق وتجرد أن يصل إليها.. تأمل:

﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ، فَتُخْبِتَ لَهُ

قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٤]..

وحيث إنه قد كثر التشكيك والطعن في الثوابت والمسلمات
الدينية، وازداد الترويج للأفكار الإلحادية، وتفاقم إنكار وجود
الخالق جلّ وعلا وكل ما يتعلق بعالم الغيب من النبوات والأديان
ونحوها.. وانقسم المتأثرون بذلك ما بين منكر بالكلية، ومن ينكر

بعضًا ويسلّمُ بالبعض الآخر.. فهؤلاء جميعًا بحاجةٍ إلى خطابٍ عقلانيٍّ مُتزن، وإلى ردودٍ شافيةٍ كافيةٍ، تستندُ إلى أدلةٍ منطقيةٍ وعلميةٍ صحيحةٍ، ليتبين بوضوحِ الحقِّ من الضلال.. وهذا ما حاولت أن أفعله في هذا الكتاب..

فلنتجرد بصدق، ولنتواضع للحقِّ عسى أن نصلَّ إلى إجاباتٍ شافيةٍ كافيةٍ، تُصحِّحُ نظرتنا نحو الحياةِ والكون، وتضعنا على الطريق الصحيح، واللهُ من وراء القصد، وهو الهادي إلى سواء السبيل...



نبذة عن محتويات الكتاب

بدايةً قمْتُ بتعريف الإلحاد، ثم ذكرت عشرةً من أبرز أسباب انتشاره.. وأمّا ما يتعلق بأهم موضوعات الكتاب، وهي الأدلة والبراهين التي تُثبت وجود الخالقِ جَلَّ وَعَلَا، وتبرهنُ على صدق الرسول ﷺ، فقد اجتهدتُ أن أختار منها الأدلة القوية الواضحة، وصنفتها لعشرة أنواعٍ مختلفةٍ من الأدلة والبراهين: وهي الأدلة العقلية والمنطقية، والأدلة العلمية، ودليل الفطرة السليمة، والدليل اللغوي، والدليل الجمالي والأخلاقي والتاريخي ومُعجزات القرآن والسُّنة، وأدلة صدق الرسول ﷺ.. وذكرت تحت كلّ نوعٍ منها ما تيسر من الشواهد والبراهين، وبلغ مجموعها أكثر من ثلاثين دليلاً مختلفاً.. ثم أوردتُ بعض المناظرات القوية، ومقالاً عن تهافت أساس الإلحاد، ثم تحدثتُ عن العقل وأثبتُ أنه لوحده لا يكفي للدلالة على الهدى والرشاد، ثم عرّفتُ الصدفةَ وشرحتُ ماذا يقصدون بها، ودلّلتُ على بطلانها بأدلةٍ علميةٍ مُتعددة، كما أثبتُ بالأدلة العلمية والمنطقية أنّ الكونَ ليس بأزليٍّ ولا قديم.. ثم قمْتُ بالردّ على أبرز شُبُهات الملحدين، وفندتُ مشكلة الشرِّ وبينتُ الحكمةَ من وجوده.. ثم ذكرتُ بعد ذلك عشرةً من أهمّ وسائلِ

الوقاية من الشُّبهاتِ، وبينتُ لماذا يجبُ التسليمُ لنصوص الوحي،
ثم أوردتُ عشرين سؤالاً مُفحماً، لا يملكُ الملحدُ لها جواباً إلا إذا
آمنَ بالخالقِ جَلَّ وَعَلَا..

فأسأَلُ اللهَ العظيم، ربَّ العرشِ الكريم، أن يجعلَ فيما سطرتهُ
جواباً كافياً، وبلسمًا شافيًا لكلِّ من التبسَ عليه الحقُّ، كما أسألهُ
جَلَّ وَعَلَا أن يجعلَ عملي كله صوابًا صالحًا، ولوجهه تبارك وتعالى
خالصًا، وأن يتقبله بأحسن القبول، واللهُ الهادي إلى سواء السبيل..



تعريف الإلحاد..

أصل الإلحاد في كلام العرب: هو الميل والانحراف، والعدول عن القصد.. ومعنى ألحد أي انحرف ومال.. فالإلحاد هو العدول عن الحق والانحراف عنه.. والملحد هو المائل عن الحق إلى الباطل.. وعلى هذا؛ فكلُّ تركٍ أو إنكارٍ لما هو معلوم من الدين بالضرورة فهو إلحاد..

والإلحاد اصطلاحاً: هو عدم الإيمان بوجود الخالق جلَّ وعَلا، أو ببعض ما جاء عنه كعالم الغيب واليوم الآخر والرُّسل والأديان..

وقد ظهرت صورٌ كثيرةٌ للإلحاد لكن أبرزها ما يلي:

الملحد: وهو المنكِرُ للدين ولوجود الإله بالكلية..

اللا ديني: وهو من يؤمن بوجود الخالق، لكنه يُنكرُ الأديان كلها، وغالباً ما يتخذُ موقفاً عدائياً منها..

الربوبي: وهو الذي يؤمن بأنَّ الإله هو من خلق الكون، ولكنه يُنكرُ تواصله مع البشر عن طريق الديانات..

اللا أدري: وهو الذي توقف في قضية الإيمان بالخالق وما جاء عنه، فلا يُثبتُه ولا يَنفيه..

المتشكك: وهو المتردد الذي يرى أنَّ براهين الألوهية لا تكفي لإقناعه، وفي نفس الوقت لا يُمكنه تجاهلها..

فالإلحاد ليس فكرةً واحدةً، بل هو طيفٌ مُتدرِّجٌ من الإنكار إلى الشكِّ إلى الإعراض، يجمعهم جميعاً موقفٌ سلبيٌّ من الإيمان بالله وما يتفرَّعُ عنه من وحيٍّ وشرعية.. وهو مذهبٌ يقومُ في جذوره على نزعة تمردٍ فكري، ودعوى استقلالِ العقلِ عن كلِّ مرجعيةٍ، واعتقادٍ أنَّ نشوءَ الكونِ يمكنُ تفسيره دون حاجةٍ إلى خالق..

وقد لا يكونُ الدافعُ مشتركاً بين كلِّ من يُنكرُ أو يُشككُ، فمنهم من أربكه الجهل، ومنهم من حجبته الشبهات، ومنهم من أغراه التمرد، ومنهم من استهوته دعاوى «التحرر».. ومنهم من كان ضحيةً لصدمةٍ أو تجربةٍ قاسية.. ومنهم.. ومنهم..

وأيّما كان الدافعُ فإننا على يقين: أنَّ العقلَ الحرَّ إذا تجرّدَ من الهوى، وصدّقَ مع نفسه، ونظرَ بتأملٍ وإنصافٍ، فإنه سيهتدي إلى ما يُحيي روحه، ويُطمئنُّ قلبه.. ويرده إلى جادة الصواب..

وما هذا الكتابُ إلا محاولةٌ صادقةٌ لبسطِ الأقوالِ والآراء، ومناقشتها بالمنطق السليم، والبرهان الصحيح، وذلك من خلال

حوارٍ عقلا نِي هادِيٍّ وِمتزن، يُمهّدُ الطرِيقَ للنظر العميق، والتأمل
الدقيق.. ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ۖ ﴿٩﴾ سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْشَىٰ﴾ [الأعلى: ١٠].



أسباب انتشار الإلحاد:

قد يتساءل البعض: إذا كانت مسألة وجود الله بهذه البدهية، وبهذا الوضوح العقلي والفطري، فلماذا انتشر الإلحاد في بعض الأوساط، خصوصاً بين الشباب؟.. والجواب: أن هناك أسباباً كثيرة، نذكر فيما يلي أبرزها، عسى أن يساهم ذلك في فهم الدوافع وتشخيص الأسباب، والوصول للحلّ والعلاج الصحيح، فكما قيل: معرفة السبب نصف العلاج..

السبب الأول: ضعف التحصين العلمي والشرعي، فإذا صاحب ذلك فضول قاتل، وجُرأة على الخوض في أمور أكبر من طاقة العقل غير المحصن، فربما أوقع الإنسان نفسه في التيه والضلال، ولا نقول إنَّ الخوض في هذه الأمور ممنوعٌ مطلقاً، بل نقول إنه لا بدّ قبل ذلك من حصانة واستعدادٍ علميٍّ قويٍّ، وعلى يد شخصٍ خبير، كمن يريد أن يغوص في أعماق البحار، فلا بدّ أن يتجهز بأجهزة خاصة، ولا بدّ أن يتدرّب جيّداً، وأن يتدرّج في ذلك تحت إشرافٍ مُدرّبٍ خبير، وإلا فما أسهل أن يغرق ويهلك..

السبب الثاني: ميل البعض نحو الانفلات من القيود الدّينية،

والاستعداد لأن يُضحّي عمداً بتدينه؛ ليتمكن من تلبية شهواته المحرمة بلا أي قيودٍ أو تأنيبٍ نفس؛ وذلك يعني أن يقتل الإنسان ضميره ونفسه اللوامة؛ حتى لا يبقى في نفسه من يُنازعه في المعصية.. ويظنُّ أنه بذلك صار حُرّاً، وهو في الحقيقة قد وقع عبداً لشهواته، وأسيراً لأهوائه، كما قال أحدهم بصدق: «أردتُ أن أعيشَ بلا ربّ، لا لأنني اقتنعتُ بعدم وجوده، بل لأنني أردتُ ألا يحاسبني أحد»..

السببُ الثالث: الانفتاحُ على كُتبِ الفلاسفةِ والملحدِينِ المليئةِ بالشبهِ المبهرجةِ، والعباراتِ المنمّقةِ، مما يجعلها تنطلي على ضعفاء الإيمان، ومحدودي الثقافةِ الشرعيةِ، وأيضاً لا نقولُ إنّ قراءةَ كُتبِ الفلاسفةِ ممنوعةٌ مطلقاً، ولكن ذلك بدون حصانةٍ فكريةٍ قويةٍ سيسببُ (تأثيراتٍ سلبيةً) يصعبُ علاجُها، والتخلصُ من آثارها..

السببُ الرابع: سعي القنواتِ الفضائيةِ وغيرها من وسائلِ التّواصلِ والإعلامِ لنشرِ مثلِ هذه الأفكارِ، وفتحِ المجالِ لأربابها، وتمكينهم من طرحِ شبهاتهم، وتشكيكِ النَّاسِ في عقائدهم وأصولِ دينهم، فصاروا كحاملي الأمراضِ المعديةِ يسيرونَ بين أناسٍ غيرِ مُحصنين..

السبب الخامس: التبعية والتقليد الأعمى، والهزيمة النفسية والانبهار بالأقوى، فكثيراً ما تنتشر بعض الأفكار الخاطئة لا عن قناعة بها، وإنما تقليداً لأحد المشاهير، أو تأثراً بموضة ما..

السبب السادس: اعتقاد البعض أن تنحية الغرب للدين هو السبب الأكبر لتقدمهم، فإذا أردنا أن نصل إلى ما وصلوا، فلا بد أن نتخلى عن الدين كما تخلّوا، وهذا خلاف العقل والمنطق، فالعاقل يُحسن إذا أحسن الناس، وإن أساءوا تجنب إساءتهم..

السبب السابع: انتشار الظلم وعدم قدرة الضعفاء على الوصول إلى حقوقهم، مما قد يهز قناعات البعض منهم في العدل وفي عقيدة القضاء والقدر.. فيجد نفسه يتساءل: لم أنا بالذات؟.. ولماذا يسمح الله بهذا؟.. فإذا لم يجد من يُجيبه بمنطق سليم، وأسلوب مقنع.. وإلا تحولت هذه التساؤلات إلى بوابة للشك والإلحاد..

السبب الثامن: مُعاناة البعض من الاضطرابات النفسية والعصبية؛ نتيجة تعرضهم لظروف أسرية واجتماعية قاسية ومعقدة، مما يُفقدتهم القدرة على التفكير الصحيح، وجعلهم يظنون أن ما يُعانونه من آلام دليل غياب الإله الحكيم، فيقعون في الإلحاد لا عن قناعة عقلية، وإنما هروباً من الألم، أو تعبيراً عن الغضب، كما قال

بعضهم: «أنا لا أكره الله، أنا فقط غاضبٌ منه»..

السبب التاسع: الصحبة السيئة، فالصاحبُ صاحب، والمرءُ على دين خليله، وعن المرء لا تسأل وسل عن قرينه، فكلُّ قرينٍ بالمقارن يقتدي

السبب العاشر: عدم مواكبة الكثير من المشايخ والعلماء للمستجدات المتسارعة، والتأخرُ في الردِّ على الشبهات، وتركُ الشبابِ فريسةً لها، خصوصاً مع إحجام الكثير من الشباب عن مناقشة هذه الأفكار؛ خوفاً من أن يتعرض للإحراج أو التعنيف..

تلك هي أبرزُ الأسبابِ التي ساهمت في انتشار الإلحاد، وتسببت في زعزعة يقين الكثيرين، وزرعت الجفوة بينهم وبين خالقهم، وحرمتهم من أعظم أسباب الطمأنينة، وأبعدتهم عما خُلقوا من أجله..

ومن تأمل هذه الأسباب علم أنَّ الوقاية خيرٌ من العلاج، وأنَّ تقوية الإيمان أسهل وأولى من مدافعة الشك.. فالإيمانُ جَوْهرٌ نفيس، والشكُّ سارقٌ خفي، ومن ضيَّع باب الحذر عانى مشقة التيه.. فكن يقظاً لقلبك وإيمانك، مُتسلحاً بالعلم، محصّناً بالذكر

والصَّحْبَةُ الصَّالِحَةُ، وَلَا تُسَلِّمْ عَقْلَكَ لِكُلِّ مَنْ هَبَ وَدَبَّ.. وَتَذَكَّرْ أَنَّ
الْقُلُوبَ إِنْ تُرِكَتْ بِلا حِرَاسَةٍ ذَبُلَ يَقِينُهَا، وَضَعُفَ إِيمَانُهَا، وَأَنَّ أخطرَ
السُّرَاقِ مَنْ يَسْرِقُ الطَّمَأْنِينَةَ مِنَ الْقُلُوبِ، فَاسْتَمْسِكْ بِحَبْلِ اللَّهِ،
وَاصْحَبْ أَهْلَ الْبَصِيرَةِ، وَاصْدَقِ اللَّهَ فِي طَلَبِ الْهُدَى؛ فَمَنْ صَدَقَ اللَّهَ
صَدَقَهُ، وَأَكْرَمَهُ بَعَزُ الْيَقِينِ، وَسَلَامَةُ الْإِيمَانِ.. نَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يشرحَ
صَدُورَنَا جَمِيعًا لِلْحَقِّ، وَأَنْ يَهْدِينَا سِوَاءَ السَّبِيلِ..



الباب الثاني:

أدلة إثبات وجود الخالق جَلَّ وَعَلَا

تهديد: إِنَّ سَكِينَةَ النَّفْسِ وَطَمَآنِينَةَ الْقَلْبِ لَا تُنَالُ إِلَّا بِإِيمَانٍ وَبِإِقْنَانٍ، وَلَا يَقِينَ مِنْ غَيْرِ دَلِيلٍ..

والإنسان بطبعه يميل للتثبت من صحة أيِّ أمرٍ لا يعرفه، ومن الطبيعي ألا يقبل إنسانُ دعوى، ولا يُسَلِّمَ لحكمٍ إلا بدليل وإثبات.. فسكينة النفس وطمأنينة القلب، وزوال الشك لا يحصل إلا بيقين، ولا يقينَ من غير دليل..

والدليل هو الطريقُ الموصِلُ إلى إثباتِ أمرٍ ما أو نفيه بطريقةٍ مُعتبرة.. وكلّما عَظُمَ الأمرُ اشتدَّ طلبُ الدليلِ وتنوع.. ولا شكَّ أَنَّ أعظمَ القضايا هي قضية وجود الخالق سبحانه، ومصادقية رسوله ﷺ، فهي القضية التي ينبنى عليها مصيرُ الإنسان ومستقبله الآخروي: فإمّا سعادةٌ أبدية، أو شقاءٌ سرمدي.. ولهذا جاء هذا البابُ مشبعًا بكل أنواع الأدلة: ابتداءً بالأدلة العقلية، ثم الأدلة العلمية، مرورًا بالأدلة الفطرية، والتاريخية، والتشريعية، والجمالية،

واللغوية، وغيرها.. عشرات الأدلة والبراهين تتكامل فيها وجوه الإثبات والاستدلال: فمنها ما يسير مع العقل، ومنها ما يوظف العلم، ومنها ما ينبثق من الكون، ومنها ما يستند إلى القرآن، ومنها ما ينطلق من النفس.. وكل دليل منها قائم بذاته، ولكنها جميعاً تتكامل في نسق واحد، لتثبت لكل منصف متجرد أن الإيمان بوجود الله العظيم، إنما هو مقتضى النظر الصادق، والبحث النزيه، والعقل السليم.. ومن ثم فإمّا أن يُدْعَنَ للحق ويخضع، أو يُعَانَدَ فيُبْهَتَ وينقطع.. ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ [يونس: ١٠٨]..



النوع الأول من الأدلة: الأدلة العقلية المنطقية..

والمقصود بالدليل العقلي: هو الاستدلال بمعارف عقلية مسلّمة لإثبات أو نفي مطلوبٍ مُعينٍ.. وهو يقوم على مُقدماتٍ بديهيةٍ ومُسلماتٍ عقليةٍ، تُوصِلُ إلى نتائجٍ منطقيةٍ قطعيةٍ لا يملكُ العقلُ إلا أن يقبلها..

والأدلة العقلية التي تُثبتُ وجودَ الخالقِ جَلَّ وَعَلَا كثيرةٌ، ولذا سنختارُ منها خمسةَ أدلةٍ فقط، نشرحها شرحًا مُبسّطًا، ونعززها بما تيسرُ من الأمثلة..

□ الدليلُ العقليُّ الأول: دليلُ التّصميمِ الحكيم:

العقلُ السليمُ لا يقبلُ أبدًا أن يوجدَ هذا الخلقُ المعقّد والشديدُ الإتقانِ بلا هدفٍ ولا حكمةٍ.. قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥].. بينما يزعمُ أكثرُ الملاحدةِ أنَّ الطبيعةَ هي سببُ وجودِ جميعِ المخلوقاتِ بما فيها من أنظمةٍ شديدةِ التعقيد، وأنه لا هدفَ ولا حكمةَ من ذلك كله!..

إننا لو طلبنا من شخصٍ متخصصٍ أن يبني لنا «كمبيوتر» عملاقًا، فسيستغرقُ منه التصميمُ (فقط) زمنًا طويلًا!.. وحينها

سندركُ أنه من المستحيل صنع جهازٍ معقدٍ بلا تصميمٍ مُسبقٍ.. فكيفَ بأجسادنا وما حولنا من مئات وألوفِ الأجهزة والأنظمةِ الدقيقة، التي تفوقُ في تعقيدها أعظمَ الحواسيبِ العملاقة..

وهكذا نصلُ إلى نتيجةٍ عقليةٍ قاطعة: أنه لا يمكنُ أن يوجدَ تصميمٌ معقدٌ إلا بمسببٍ عاقلٍ حكيمٍ، له غايةٌ ومقصدٌ من ذلك الصنعِ المتقن.. ولكي يتضحَ الأمرُ أكثر، تخيلِ وعاءً يحوي مجموعةً من الآلات والقطعِ الدقيقةِ المختلفة، وحينَ تأملتها عن قربٍ تبينَ لك أن لكلٍّ منها مكانًا تركيبياً محكمًا من القطعِ الأخرى، فأخذتِ تركَّبُ هذه الآلاتِ مع بعضها، وعندما انتهيتَ من تركيبِ آخرِ قطعةٍ منها، وأصبحتِ كُلُّها جهازًا واحدًا مُتكاملًا، إذا بصوتٍ رتيبٍ يخرجُ منها، دققتَ في الأمرِ فإذا هو صوتٌ ساعةٍ زمنية..

هنا ستدركُ أن هذه القطعَ المجزأةَ لم تجتمعَ اعتباطًا، وإنما كان لكلٍّ واحدةٍ منها وظيفةٌ ثانويةٌ محددة، ومن ثمَّ تصبُّ جميعها في غايةٍ نهائيةٍ هي ضبطُ الزمن.. وهذا ما يسميه أهلُ النظرِ العقلي: العِلَّةُ الغائية، أي الهدف النهائي (المقصودُ مسبقًا)، والذي صُمِّمَ كلُّ شيءٍ لأجله.. هذا الهدفُ النهائيُ المقصودُ مسبقًا، أو العِلَّةُ الغائيةُ يتَنافى كُليًا مع العشوائيةِ والصّدفَةِ.. لأنه لا يمكنُ إيجادَهُ إلا

بعقل مُفكِّر، وبتخطيطٍ مُسبقٍ.. وكلّما ارتقى تكوينُ المخلوق وتعمّد، كان ذلك أشدَّ دلالةً على وجود الخالق الحكيم..

ولماذا نذهب بعيداً والله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]، فجسّم الإنسان شديداً التعقيد، يتكوّن من اثني عشر جهازاً حيويّاً، كلّ جهازٍ منها يؤدي وظيفةً أساسيةً مختلفة، وكلّ جهازٍ منها يتكوّن من مجموعةٍ من الأعضاء، كلّ عضوٍ منها يؤدي وظيفةً مُعينةً في غاية الأهمية لعمل الجهاز، ثمّ هناك الدماغ الذي يُديرُ ويُنسّقُ عملَ كلّ تلك الأجهزة المتكاملة.. فهذه العللُ الغائية المركبة تتنافى كلياً مع الصدفة والطبيعة العشوائية..

مثالٌ آخر: زهرة الأوركيدا، نباتٌ في غاية التعقيد، فهذه الزهرة العجيبة، ولكي تجذب النحل إليها، تتخذ شكلاً وحجماً ولوناً مُطابقاً تماماً لأنثى النحل، بل وتُفرزُ نفس رائحة النحلة.. فينجذب ذكر النحل لها وهو لا يعرف أنها زهرة، فتلتصقُ به حبيباتُ الطلع، فينقلها لزهرةٍ أخرى دون أن يدري أنه يقوم بعملية تلقيحٍ مثالي للزهرة.. كلّ هذا وهي كائنٌ نباتيٌّ لا يعقل ولا يعي من أمره شيئاً.. ليس هذا فحسب بل إنّ هذه العمليات المعقّدة والمتقنة، من تطابق الحجم والشكل واللون والرائحة، تتمّ في ظلّ ظرفٍ زمنيٍّ محدّد،

وفي أيامٍ مُعَيَّنَةٍ من كُلِّ عامٍ.. إنها عملياتٌ معقَّدةٌ جدًّا، ومحسوبةٌ بكلِّ دقةٍ، ولها هدفٌ نهائيٌّ خفيٌّ ومقصودٌ.. فهل الطبيعةُ والصدفةُ هي من صمَّمت ونفَّذت كُلَّ هذا.. (أفلا تعقلون)..

البعوضةُ مثالٌ ثالثٌ: فهذه الحشرةُ الصغيرةُ، لها مائةُ عَيْنٍ في رأسها، ولها ثلاثةُ قلوبٍ في جوفها، ولها ستةُ سكاكينٍ في فمها، وهي مزودةٌ بجهازٍ يميزُ الحرارة، ليدلها على مكانِ الجلدِ البشري حتى في الظلام، كما أنها مزودةٌ بجهازٍ تخديرٍ يُساعدُها على غرزِ إبرتها دونَ أن يشعرَ الإنسانُ بذلك، وما يحسُّ به المقروصُ إنما هو ألمُ المصِّ، وهي مزودةٌ أيضًا بجهازٍ تحليلٍ للدم؛ فهي لا تستسيغُ كلَّ الدماء، كما أنها مزودةٌ بجهازٍ لتمييعِ الدم وإسالتِهِ حتى يسري في خرطومها الدقيق.. فهل الذي صمَّم كُلَّ تلك الأجهزةِ المعقدةِ، وبذلك التكاملِ المذهل، عاقلٌ حكيمٌ، له هدفٌ نهائيٌّ مقصودٌ من كُلِّ ذلك، أم أنها الصدفةُ والعشوائيةُ..

والأمثلةُ على التَّصميمِ الحكيمِ، والعلةِ الغائيةِ كثيرةٌ لا حصرَ لها: (رحلةُ السلمونِ الشهيرةُ، ورحلةُ السلطعونِ العجيبةِ، ورحلةُ البطريقِ الأشدَّ عجبًا، وبيوتُ النملِ المنظمةِ، وممالكُ النحلِ

المذهلة، وأعشاش الطيور المتقنة)، كُلُّ منها مثالٌ قويٌّ على التخطيط الدقيق، والتصميم الذكي الحكيم، والعلّة الغائية..

وإذا كان ما تصنعه هذه العقول الذكيّة من أنظمة إبداعية رائعة، يستحيل أن يوجد شيءٌ منها صدفةً، بمعنى أنك لو رأيت خلية نحل أو نظرت إلى بيوت النمل، أو تأملت أعشاش الطيور.. إلخ.. فلن تقول إنها وجدت صدفةً، وإنما ستقول: أبدعتها تلك العقول الصغيرة.. فماذا عن تلك العقول الصغيرة نفسها، أليس من أبدعها يتميز بتدبير وحكمة بالغة، وإتقان دقيق، وقُدرةٌ مُتناهية..

ثم يأتي الملحد ليقول: كُلُّ هذا صدفةٌ.. والمادة هي التي أوجدت نفسها، وهي التي أوجدت كُلَّ أنظمة الفيزياء والكيمياء، وهي التي فرضتها على نفسها.. أفلا قليلٌ من الإنصاف والعقلانية.. فما من أحدٍ يقبل أن تكون الصدفة هي من أوجدت أيًّا من الآلات المعقدة كالطائرات والسيارات والحواسيب، ونحوها، لاعتقاده أنها لا بدّ أن تكون من صنّع عاقلٍ مُبدعٍ حكيم..

ومنذ سنواتٍ قليلة تم اكتشاف مدينة رومانية أثرية قديمة (في جنوب تونس)، كانت مغمورةً بأكملها تحت الرمال، فلم يتبادر إلى ذهن أحدٍ من الناس أنها وُجدت صدفةً أو بفعل العوامل الطبيعية،

أو بأي سببٍ آخر غير الإنسان، لأنَّ إيجادها يحتاجُ إلى عاقلٍ حكيمٍ، له مقصدٌ من إيجادها بتلك الهيئة المحكمة..

أوليسَ خلقَ الإنسانَ والحيوانَ والأفلاكِ أكبرَ وأعقدَ من خلقِ تلك الآلاتِ أو المدنِ بملايين المرات.. صدقت يا رب: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتٍ اللَّهُ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]..

□ الدليلُ العقلي الثاني: دليلُ الخلقِ والإيجاد..

كلُّ من يرى تمثالاً لأيِّ كائنٍ حيٍّ، صُنِعَ بطريقةٍ مُتقنةٍ، يُوقنُ يقيناً لا شكَّ فيه، أنَّ لهذا التمثالِ صانعاً ماهراً صنعه وأتقنه، فإذا كان هذا التمثالُ الجامد، الخالي من الحياة والعقل والحركة، يُعطي هذا الانطباعَ العقلي، فكيفَ بالكائن الحيِّ العاقلِ المتكلمِ المتحرك.. قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥].. فالخلقُ والإيجادُ دليلٌ دامغٌ على وجودِ الخالقِ جلَّ وعَلا.. قال شيخُ الإسلامِ مفسِّراً للآية السابقة: «هذا تقسيمٌ حاصر، يقول تعالى: أخلِّقوا من غير خالقٍ خلقهم؟.. فهذا ممتنعٌ في بداهة العقول، أم هم خلقوا أنفسهم؟.. فهذا أشدَّ امتناعاً، فعلم أنَّ لهم خالقاً خلقهم»..

ومبدأ السببية مبدأً مُضطرّاً في جميع الأشياء، والعقلاء جميعاً، يقرون به، ويُسلمون أنَّ لكلِّ حادثٍ سبباً يُفسَّرُ لماذا وقعَ هذا

الحادث، ولم كان على هذا النحو.. فكلُّ شيءٍ وُجدَ بعدَ أن لم يكن موجوداً فإنه لا بدَّ له من سببٍ أدى لوجوده.. وكلُّ حادثٍ حدثَ فلا بدَّ له من مُحدثٍ أحدثه.. فالكتابُ لا بدَّ له من كاتبٍ، والبيتُ لا بدَّ له من بانٍ، وحتى الطبيبُ وهو يزاوُلُ مهنته، يبحثُ عن أسباب المرضِ، ولولا يقينه بأنَّ لكلَّ مريضٍ سبباً لكان بحثه عبثاً.. والأعرابيُّ في صحرائه يقول: الأثرُ يدلُّ على المسير، والبعرةُ تدلُّ على البعير، فسماءُ ذاتُ أبراج، وبحارُ ذاتُ أمواج، وأرضُ ذاتُ فجاج، ألا يُدلانِ على اللطيف الخبير.. وعند التأملِ فإنَّ الكونَ عبارةٌ عن أجزاءٍ مترابطة، وما من جُزئيةٍ إلا وهي مُفتقرةٌ لغيرها، فالشمسُ مُفتقرةٌ لذراتها ومُفتقرةٌ لغيرها من الأفلاك في مجموعتها ومجرتها، ومُفتقرةٌ لقانون الجاذبية، وهكذا سائرُ الكواكبِ والأفلاك، والإنسانُ أيضاً مُفتقرٌ للماء والطعام، فإذا كانت كلُّ أجزاءِ الكونِ مُفتقرةٌ لغيرها فهذا دليلٌ حُدوثها، وإذا كان الكونُ كلهُ عبارةً عن أجزاءٍ مُحدثة، فالكونُ كلهُ مُحدث.. وهناك عدَّةُ أدلةٍ علميةٍ موثقةٍ تثبتُ بكلِّ يقينٍ أن:

الكون مُحدثٌ وليس بأزليٍّ ولا قديم:

أولها: أنَّ هناك حقيقةً علميةً ثابتةً توصلَ لها الفلكيُّ المشهور

(هابل)؛ وهي: أَنَّ المجراتِ والأفلاكَ عموماً في تباعدٍ مُستمرٍ عن بعضها، وبسرعاتٍ هائلة، وقد نسفَ هذا الاكتشافُ خُرافَةَ أزليةِ الكونِ من جذورها، فلو كانَ الكونُ يتمدّدُ منذُ الأزل، لكانتِ النّجومُ والأفلاكُ قد تبعثرت وتباعدت عن بعضها بمسافاتٍ لا نهائية، ولدرجة ألا يُرى منها أيّ جرمٍ في السماء..

وثانياً: فلو كان الكونُ أزليّاً لتساوت درجاتُ حرارته، فمعلومٌ أَنَّ الحرارةَ تنتقلُ من الأجسامِ الحارةِ إلى الأجسامِ الباردةِ حتى تتساوى تماماً، فلو كان الكونُ قديماً أزليّاً لفقدت كلُّ النّجومِ حرارتها تماماً، ولتساوت مع غيرها، وطالما أَنَّ هذا لم يحدث، فالكونُ إذاً ليس أزليّاً..

وثالثاً: فقد اكتشفَ العلماءُ أَنَّ هناكِ نجومًا تنفجرُ وتموت، ونجومًا أخرى تولدُ وتنشأُ من جديد، ولو كان الكونُ أزليّاً لاستقرَ على حالةٍ واحدة.. وبما أَنَّ الوضعَ لا زال يتغيّرُ ويتبدل، فإنَّ هذا لا يدلُّ على الأزلية.. إلى غير ذلك من الأدلة وما أكثرها..

والخلاصةُ: أَنَّ حدوثَ الكونِ هو أكبرُ دليلٍ على وجود الخالقِ جَلَّ وَعَلَا.. لأنَّ كلَّ مُحدثٍ مُحتاجٍ إلى من يُحدثُهُ ويوجدُهُ..

قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَدْعُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَكْبَدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنْتَ تُؤْفِكُونَ﴾ [يونس: ٣٤]..

□ الدليل العقلي الثالث: الإثبات مُقدم على النفي..

هذه قاعدة منطقية مضطربة: فإذا لم يكن في الأمر إلا خبران، أحدهما يُثبت وقوع أمرٍ ما، والآخر ينفيه، فإنَّ المنطق أن يُقدَّم المُثبت على النَّافي، لأنَّ معه زيادة علم، ولأنَّ من علم حُجَّةً على من لم يعلم..

فعلى سبيل المثال: لديك خبران، أحدهما يقول: جاء محمدٌ، والآخر يقول: محمدٌ لم يأت.. فالقاعدة المنطقية تقول: يُقدَّم المُثبت على النَّافي لأنَّ معه زيادة علم، ولأنَّ من علم حُجَّةً على من لم يعلم.. فعلى فرض صحة الخبرين، فالخبر الذي يُثبت مجيء محمدٍ لديه علمٌ بالمجيء، فالمجيء مؤكدٌ، وأمَّا الذي ينفي المجيء فهو ينفي علمه بالمجيء ولا يستطيع أن ينفي المجيء نفسه، فربما جاء محمدٌ وهو لا يعلم.. كيف والخبر الأول يؤكد ذلك..

وفي مسألة وجود الخالق جلَّ وعلا: فجميع العقلاء يُقرون بأنَّ الله عزَّ وجلَّ وحده هو الخالق لهذا الكون بكل ما فيه.. وحتى أشدُّ الناس كُفراً قال عنهم القرآن: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ

الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ فَاَنِّي يُؤْفَكُونَ ﴿ [العنكبوت: ٦١] .. هذا على فرضِ
أنهُ لا يوجد أدلةٌ أخرى، تُثبتُ وجودَ الخالقِ جَلَّ وَعَلَا، فإذا جاءَ
الملحدُ لينفي وجودَ الخالقِ تبارك وتعالى، فخبِرُهُ مرفوضٌ عقلاً
ومنطقاً لوجودِ خبرٍ مُثبتٍ يُعارضُهُ.. كيفَ وقد قال الله تعالى عن
نفسه: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢]..

ثم إنَّ نفيَ الملحدِ لوجودِ الخالقِ جَلَّ وَعَلَا، ادعاءٌ لا سندَ لَهُ من
الجهةِ المنطقيةِ.. حيثُ إنَّ إثباتَ وجودِ ما هو موجودٌ سهلٌ جداً، أمّا
نفيُ وجودِ الموجودِ فمن أكبرِ المستحيلات، فكيفَ إذا كانَ المنفيُّ
هو أكبرَ الأشياءِ وخالقِها، ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلْ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي
وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ١٩]..

فعلى سبيلِ المثال: يمكنُ أن يدَّعي شخصٌ ما وجودَ
الدينصورات، ويمكنُ لشخصٍ آخرَ أن يدَّعي عدمَ وجودِها بتاتاً..
فالأولُ سيحتاجُ إلى دليلٍ واحدٍ فقط ليُثبتَ صحّةَ قوله، أمّا من يريدُ
أن ينفي وجودَها، فيجبُ عليه أن يُفتشَ جميعَ الأماكنِ في وقتٍ
واحدٍ ليتأكّدَ قطعياً من خلوها جميعاً.. وهذا من أبعدِ المستحيلات
على مستوى الأرض، فكيفَ لمن أرادَ أن يُبرهنَ على عدمِ وجودِ الله
في الكونِ كله، هذا من أمحلِ المحال.. وصدق الله القائل: ﴿قُلْ

إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ [يونس: ٦٩]..

□ الدليل العقلي الرابع: دليل التسخير..

التسخير هو: إيجاد الأشياء وتهيئتها لمصلحة الإنسان أو الحيوان أو النبات دون حولٍ منه ولا قوة..

ومعلومٌ أنَّ الإنسانَ والحيوانَ والنباتَ خُلقوا محتاجينَ لأشياءَ كثيرةٍ.. كالماء، والهواء، والغذاء، والدواء، والضوء، والحرارة، وغير ذلك من الضروريات.. فإذا تأملت، وجدت أنَّ جميعَ هذه الاحتياجاتِ مُسخرةٌ لهم في بيئتهم التي يعيشونَ فيها، وبالقدر الكافي لاستمرار حياتهم، بل وحياةِ نسلهم من بعدهم.. فإن كانت أجسامهم تحتاجُ للضوء، فقد وُجدت الشمس، وإن احتاجت رئاتهم للأوكسجين، فهو موجودٌ في الهواء وبالقدر المضبوط، وإن احتاجَ النباتُ إلى ثاني أوكسيد الكربون فقد وُجدَ في تنفسِ الإنسان والحيوان، وإن احتاجَ للماء والأملاح والمعادنِ فهي موجودة في الأرض وبالقدر المناسب، وإن احتاجت الأمعاءُ إلى بكتيريا نافعة فقد وُجدت هناك بدقةٍ مذهشة.. فإذا تأملت فسترى عالمًا كاملاً من المسخرات: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجن: ١٣]..

فإذا تفكرت في هذا النظام الدقيق، والتناسق العجيب، تيقنت أن كل ما هو مسخرٌ فهو مخلوق، وأنَّ الله وحده هو المسخرُ سبحانه، وأنه هو الذي أبدعَ هذا، وأوجدَ في الكائنات تلك الاحتياجات، وهو الذي وفرَّها وسخرَّها في البيئة من حولهم، بعلم وإرادة، وتقدير ورحمة.. وأنَّ توفيرَ كلِّ تلك الاحتياجاتِ الدقيقةِ بكلِّ دقةٍ وإحكام، لا يمكنُ أن يكونَ صُدفةً، بل هو من آثارِ علمِ العليم، وتقديرِ الحكيم، ورحمةِ الرحمن الرحيم. قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ [لقمان: ٢٠]..

ولو أنَّ إنساناً دخلَ مكاناً جديداً، فوجدَ أنَّ كلَّ ما يحتاجه قد أُعدَّ لهُ بعنايةٍ تامةٍ، لقال دون ترددٍ: «إنَّ من سبقني إلى هذا المكان قد أعدَّه لي عن قصدٍ».. فلا شكَّ إذن أنَّ تهيئةَ الأرضِ هذه التهيئةَ الكاملةَ، وتسخيرها هذا التسخيرَ العجيبَ، يقطعُ بحتمية وجودِ خالقٍ حكيمٍ، ومدبرٍ عليمٍ، سخرَ كلَّ شيءٍ بحكمةٍ وتقديرٍ.. قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِ رَبِّكَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: ١٢]..

□ الدليل العقلي الخامس: العلم لا يأتي ممن لا يعلم..

إذا كان بإمكان جهاز الحاسب الآلي أن يطبع مقالاً علمياً، فإن جميع العقلاء يتفقون أنه ليس هو من أنتج ذلك المقال، وأن هناك شخصاً عاقلاً عليمًا استخدم الحاسب لكتابة المقال وطباعته..

ولو تخيلت أن هناك عدة أطفال، كل واحد منهم معه مجموعة من الأقلام الملونة، وأمامهم ورقة كبيرة، ثم قاموا يخططون ويرسمون بتلك الأقلام على تلك الورقة الكبيرة، بطريقة عشوائية، فهل يمكن أن يخرج من عبثهم خريطة كاملة التفاصيل لمدينة كبيرة.. فإذا كان العقل السليم يستبعد حدوث مثل هذا تمامًا، ويعتبره مستحيلًا لا يمكن أن يحدث أبدًا، (ولو استمر الأمر لأوقات طويلة جدًا).. فلن يكون الكون كله وجد صدفة، أكثر استحالة، وأبعد عقلًا، لأن تركيب الكون وتفصيله أعقد بملايين المرات من كتابة وطباعة أي مقال كان، أو رسم أي خريطة وجدت..

فإذا كان العلم لا يأتي إلا ممن يعلم، والتصرفات العقلانية لا تأتي إلا من عاقل.. فإن الصدفة والطبيعة لا يمكنهما ذلك، لأنهما تفتقران للعقل، وللعلم، وللحكمة، وللقدرة على التمييز بين

الأشياء، وبالتالي فلا يمكنُ أن نقولَ بأنهما هما اللتان أوجدتا القوانينَ الطبيعية، لأنَّ تلكَ القوانينَ أشدُّ تعقيدًا من ذلكَ المقال والخريطة، ولا يمكنُ أن يوجدها إلا خالقٌ عليمٌ، مبدعٌ حكيمٌ..

وإذا كان جميعُ العقلاء يقرون أنَّ الكتابَ لا يكتبُهُ إلا كاتبٌ متخصص، والعمليةُ الجراحيةُ لا يُجريها إلا جراحٌ متخصص، والجهازُ الدقيقُ لا يُصمِّمه إلا مهندسٌ متخصص، فإن كل من يتأملُ بإنصافٍ وتجردٍ ثباتَ قوانينِ الفيزياءِ في حركةِ الكواكبِ والنجوم، ويتأملُ انضباطَ قوانينِ الكيمياءِ في تركيبِ العناصرِ وتفاعلاتها، ويتأملُ دِقَّةَ علمِ الأحياءِ في تكوينِ الخليةِ وتناسقِ وظائفها، ويتأملُ عالمَ النفسِ ومشاعرِ الإنسانِ وعواطفه، ويتأملُ علمَ اللغةِ وطرائقِ الصوتِ والتعبيرِ والإفهامِ.. ويتأملُ في الكونِ كله وما فيه من علومٍ هائلة، وروعةٍ مُذهلة، ودِقَّةٍ متناهية، ونُظُمٍ محكمة، وسُنَنِ ثابتة.. فإنه سيجزُمُ يقينًا أنَّ كلَّ هذا يستحيلُ أن يوجدَ من غيرِ خالقٍ حكيمٍ.. أو أنه نتاجُ صُدْفَةٍ لا تعقلُ ولا تدرك.. كلا بل هو ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٨٨]، القائلُ عن نفسه: ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿ [لقمان: ١١]. وهكذا اكتملت وتكاملت خمسةُ براهينَ عقليةٍ متنوعة، دليلُ

التصميم الحكيم، ودليلُ الخلق والإيجاد، ودليلُ الإثبات مُقدَّمٌ على
 النفي، ودليلُ التَّسخير، ودليلُ العِلْم لا يأتي ممن لا يعلم، فكانت
 نُورًا على نُور، يُرسي في القلب يقينًا لا يتزعزع.. فمن بقي في قلبه
 شكٌّ بعد هذا، فليس مردُّه إلى ضعف البرهان، وإنما إلى هوى صاّدٍ
 عن الحقِّ، أو غفلةٍ ملهية.. قال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ
 أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ [الأنعام: ١٠٤]..



النوع الثاني من الأدلة: الأدلة العلمية..

يقصدُ بالدليل العلمي: هو البرهانُ الذي يُبنى على المشاهدة، ويُختبرُ بالتجربة، ويُثبتُ بال تكرار..

وهناك عددٌ كبيرٌ من الأدلة العلمية التي تُثبتُ وجودَ الخالقِ جَلَّ وَعَلَا، سنختارُ منها خمسةَ أدلةٍ فقط، نشرحُها شرحًا مُبسَّطًا، ونعززها بما تيسرُ من الأمثلة..

□ الدليل الأول: انتظامُ الكونِ ودقتهُ وشدةُ انضباطه..

المتأملُ في نظامِ هذا الكونِ الهائلِ العظيم، يرى أنه قد بلغَ من الانضباطِ والدقةِ والإتقانِ درجةً عجيبةً، وأنه ما من جزئيةٍ في هذا الكونِ الهائلِ من أصغر ذرةٍ وإلى أكبر مجرةٍ، إلا وهي تسيّرُ وفقَ قوانينَ دقيقةٍ ثابتةٍ ومنضبطةٍ تمامَ الانضباطِ، وكلّما تقدّمَ العلمُ ازدادت هذه المسألةُ رسوخًا وقوةً.. وتنوعتِ الشواهدُ والأدلةُ التي تؤكدُ ذلك..

والعلماءُ اليومُ يُجمعونَ على أنَّ هناك أكثرَ من ١٥٠ ثابتًا كونيًّا (مثل ثابت بلانك، وثابت الجاذبية، وثابت فيرمي، وثابت كولوم، إلخ)، كلُّ هذه الثوابتِ مضبوطةٌ بدقةٍ مذهلةٍ لتجعلَ الكونَ بهذا

الإِتقانِ المذهل.. يقول الفيزيائي «بول ديفيز»: «من الصعب أن نُقاومَ استنتاجَ أنْ هناك تخطيطاً واعياً وراءَ هذا التصميمِ الدقيق»..

فقانونُ الجاذبية، وقانونُ الطاقة، وقانونُ حفظِ الكتلة، وغيرها كثيرٌ.. كُلُّها تعملُ بانضباطٍ ودقةٍ وثباتٍ عجيب، في جميع أرجاءِ الكونِ كُلِّهِ، وعلى جميع الأجسام، من الذرةِ إلى المجرة.. فمثلاً لو اختلَّت قيمةُ ثابتِ الجاذبية بمقدار جزءٍ من المليار، لتغيرت بُنيةُ الكونِ تماماً، وانهارَ أو تباعدَ بلا انتظامٍ.. ومما يزيدُ الأمرَ تأكيداً أنَّ علماءَ المادةِ بمجردِ معرفةِ قانونٍ ما، وتحديدِ الطريقةِ التي يعملُ بها، فإنهم يثقونَ في هذا القانونِ ثقةً تامَّةً، لأنهم يرونَهُ في كلِّ مرةٍ يُعطِيهم نتائجَ دقيقةً ومُنضبطةً، بعيدةً كلياً عن الصدفةِ والعشوائيةِ..

فمثلاً: حينما رُتبتِ العناصرُ الكيميائيةُ في الجدولِ الدوري، لوحِظَ وجودُ خواصٍّ مُتشابهةٍ للعناصر التي تقعُ في قسمٍ واحدٍ من الجدول، وأمكنَ للعلماء أن يتنبؤوا بالعناصر التي لم تكن معروفةً آنذاك، بل وأمكنهم تحديدُ خواصها قبل اكتشافها ورؤيتها، فلما تمَّ اكتشافها وجدت مُطابقةً تماماً لما تنبأوا به من قبل..

فالذي أوجدَ العناصرَ بهذه الخصائصِ المحدَّدة، وبذلك التَّقسيماتِ الدوريةِ الدَّقيقة، لا يمكنُ أن يكونَ قد أوجدها صدفةً

وبدون تنسيقٍ مُسبقٍ، كيفَ وتنبؤاتُ العلماءِ تلكَ، إنما بُنيت على ثبات القانونِ ودقتهِ وانضباطهِ وليس على العشوائيةِ والصُّدفةِ..

وقُلْ مثلَ ذلكِ في التفاعلاتِ الكيميائيةِ بين العناصرِ، فهي دائماً ما تتمُّ وفقَ قوانينٍ دقيقةٍ وثابتةٍ، وليست بناءً على الصُّدفةِ والعشوائيةِ.. وهكذا فالكونُ كلهُ يسودهُ نظامٌ دقيقٌ، وانضباطٌ شديدٌ، وتحكُّمُهُ قوانينٌ ثابتةٌ، ليس فيها أيُّ مجالٍ للصُّدفةِ أو العشوائيةِ..

هذه السماءُ الهائلةُ الاتساعِ، يسبحُ بها ملياراتُ الملياراتِ من النجومِ، تتوزعُ في مجموعاتٍ منتظمةٍ تسمى المجراتِ.. تقدَّرُ أعدادُها بألوفِ الملياراتِ.. تفصلُ بين كلِّ منها مسافاتٌ هائلةٌ.. والعجيبُ أنَّ جميعَ النجومِ والمجراتِ تسيرُ في مداراتٍ محدَّدةٍ، وأنَّ كلَّ جرمٍ منها يسيرُ بسرعةٍ مُعيَّنة تختلفُ عن غيره، وأنَّ كلَّ هذه التَّحركاتِ المدهشةِ تحدثُ طبقاً لنظامٍ دقيقٍ شديدِ الدقةِ، ووفقَ قوانينٍ مُحكمةٍ صارمةٍ، مُنضبطةٍ تمامَ الانضباطِ، بحيثُ لا يصطدمُ بعضها ببعضٍ، ولا يحدثُ لها أدنى تغَيُّرٍ في نظامِ سيرها، ولو بعد مرورِ قرنٍ من الزمانِ..

الأرضُ تدورُ حولَ الشمسِ بسرعةٍ مُعيَّنة، وفي مسارٍ محدَّدٍ.. القمرُ يدورُ حولَ الأرضِ بسرعةٍ محسوبةٍ، والمسافةُ بينهما تُضبطُ

المدّ والجزر، وتُبقي دوران الأرض منتظمًا.. وكل كوكب له سرعته، وزاوية ميله، ومحوره الخاص.. ولذا يستطيع العلماء تحديد وقت ومكان وقوع الخسوف والكسوف ومرور النجوم والمذنبات بدقة متناهية.. فسبحان من خلق فسوى، وقدر فهدى:

﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦]..

ويقول علماء الفلك: إنَّ كلَّ النجوم والمجرات يؤثر بعضها على بعض، وأنَّ الكون كله يخضع لتوازن دقيق جدًا، وبشكل يفوق الخيال.. لدرجة أنه لو كان حدث في بداية نشوء الكون أدنى تغيير طفيف، لأدَّى ذلك إلى عدم وجود كوكب الأرض بالكلية، أو على أقل تقدير: كان سيوجد بشكل لا يصلح للحياة.. وصدق الله القائل:

﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٣]..

ومع أنَّ كوكب الأرض هو الأهمُّ بالنسبة لنا، فإنه على ضخامته لا يساوى ذرةً من هذا الكون الهائل، لكن المتأمل في تكوينه يرى أنَّ كلَّ شيءٍ فيه قد وضع بنظام دقيق للغاية.. كالضغط الجوي، والجاذبية، ودرجة حرارة الأرض، وميلان محورها وبعدها عن

الشمس، وغلافها الجوي، كلها موزونة ومهيأة للحياة عليها بدقة مذهلة..

فلو كان حجم الأرض أقل بقليل، أو أكبر بقليل، لاستحالت الحياة عليه، وكذلك لو اقترب القمر من الأرض قليلاً لغمرت المياه اليابسة، ولو ابتعد القمر قليلاً لزادت الجاذبية وصعبت الحركة.. ولو اقتربت الشمس منا قليلاً لاحترقنا، ولو بعدت قليلاً لتجمدنا.. ولو كانت قشرة الأرض أسمك بقليل، لانعدم الأوكسجين.. ولو كانت أقل بقليل لغصنا في جوفها، ولو كانت البحار أعمق قليلاً مما هي عليه لامتصت الأوكسجين وثنائي أكسيد الكربون، ولانعدمت الحياة.. ولو كان الغلاف الجوي أخف بقليل مما هو عليه الآن، لوصلت النيازك سطح الأرض ولأحرقته، ولو زادت نسبة الأوكسجين قليلاً لاحترقنا، ولو نقصت قليلاً لاختنقنا.. فسيحان القائل ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ نَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]..

فإذا تأمل الإنسان في خلق نفسه، وجده بنفس المستوى من الدقة والإتقان، ففي جسمه قرابة الـ (٥٠) ترليون خلية، وكل هذا العدد الهائل من الخلايا يعمل مع بعضه بتناغم مذهل، وتنسيق دقيق، وتنظيم مُحكم غاية في الإحكام.. فهذه الخلايا الكثيرة يجري

داخلها وفيما بينها، وعلى مدار اللحظة والثانية، ما لا يُحصى من التفاعلات الكيميائية، والتحوّلات الفيزيائية، والعمليات الحيوية، ويقول العلماء: إنّ فيها من التعقيد الشديد، والدقة المتناهية، ما لا يمكن للعقل استيعابه، وأنّ ما تمّ اكتشافه من تعقيدٍ وظيفي، ودقةٍ مُتناهيةٍ على مستوى الخلية الواحدة، يساوى عملَ عدة كمبيوتراتٍ عملاقةٍ تعملُ معاً، وفي آنٍ واحدٍ، وبأقصى طاقاتها.. بل يقول الدكتور لينوس باولنج الحائز على جائزة نوبل في الكيمياء: «إنّ خليةً حيةً واحدة من بدن الإنسان هي أشدُّ تعقيداً من مدينة نيويورك»..

وإذا جئنا للشفرة الوراثية التي تحمل كل صفات الكائن الحي، فسنجد فيها من التعقيد ما لا يمكن وصفه، ففي داخل نواة كلّ خلية، هناك شريطٌ عجيبٌ (DNA) طوله قرابة المترين، يحوي هذا الشريط شفرةً وراثيةً مُعقدةً، تُحدّد وتتحكّم فيما يقاربُ المائة ألفِ صفةٍ وراثية، ومكونةً في المجمل من أكثر من مليار مُتغيّرٍ وراثي، بالإضافة إلى مجموعةٍ هائلةٍ جدّاً من المركبات الكيميائية، (الأحماض الأمينية)، وجميعها تدخل في تكوين الحمض النووي بطريقةٍ دقيقةٍ جدّاً، وبأساليب ثابتةٍ مُنضبطةٍ لا تتغير، بحيث لو اختلَّ

أيُّ من هذه المركباتِ لانهارت الشفرةُ وتشوّه الخلقُ.. وكلُّ هذا على مستوى خليةٍ واحدةٍ، بينما جسمُ الإنسانِ يُنتجُ في كلِّ ثانيةٍ أكثرَ من (٢٥) مليون خليةٍ جديدةٍ.. ويحوي الدماغُ وحده على أكثرَ من مائةِ مليارِ خليةٍ عصبيةٍ، ويحتوي الكبدُ على أكثرَ من (٤٠٠) مليارِ خليةٍ كبديةٍ، وتحتوي الرئةُ على أكثرَ من (٧٠٠) مليونِ حُويصلهِ تنفسيةٍ، وتحتوي المعدةُ على أكثرَ من (٣٥) مليونِ غُدّةٍ هاضمةٍ للطعام، كما يوجدُ في الجسمِ أكثرُ من ثلاثةِ ملايينِ مُستشعِرٍ للألم، ويمكنُ للأنفِ أن يُميِّزَ أكثرَ من (٥٠) ألفَ رائحةٍ مختلفةٍ.. هذه عينةٌ صغيرةٌ جدًّا من الإحصائيات الدّالة على شدة تعقيدِ خلقِ الإنسانِ.. ولا عجب، ف ﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ۚ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [لقمان: ١١]..

من جهةٍ أخرى: فإنَّ كميةَ الدّمِ في جسمِ الإنسانِ تُقدَّرُ بخمسةِ لتراتٍ تقريباً، يسبُحُ فيها حوالي أربعةِ آلافِ عنصرٍ مختلفٍ، أهمّها كرياتُ الدّمِ الحمراء، والتي يوجدُ منها ما لا يقلُّ عن خمسٍ وعشرين ألفَ مليارِ خليةٍ، يتمُّ استبدالها كلَّ أربعةِ أشهرٍ تقريباً، ثم كرياتُ الدّمِ البيضاء، والتي تتواجدُ بمعدل (٤٠) مليار خليةٍ، ويتمُّ استبدالها كلَّ أسبوعين تقريباً، ثم الصفائحُ الدموية بمعدل: (٢٠)

مليار صفيحة دموية، ويتم استبدالها كل عشرة أيام تقريباً.. كما يبلغ مجموع طول الأوعية الدموية في جسم الإنسان مائة ألف كم، والذي يوازي محيط الأرض مرتين ونصفاً، وتقدر المسافة التي يقطعها الدم عبر الأوعية الدموية يومياً بتسعة آلاف كم..

أما ملك الأعضاء، وأعني به القلب، تلك العضلة التي في حجم قبضة اليد، فإنها تضخ الدم بمعدل (٧٠) مرة في الدقيقة، أي مائة ألف مرة في اليوم، أي (٣٦) مليون مرة في السنة، وما يتجاوز المليارين من المرات لكل من يتجاوز الستين من عمره.. هذه المضخة الجبارة والتي تعمل بلا توقف، تضخ ما معدله (٦٥٠٠) لتر يومياً، أي ما يزيد على المليون برميل طوال الستين عاماً..

فإذا انتقلنا إلى الرئتين، فإن الإنسان يتنفس قرابة العشرين مرة في الدقيقة، أي عشرين ألف مرة يومياً، وما يزيد عن المائتي مليون مرة في الحياة.. أي ما يزيد عن الربع مليون متر مكعب من الهواء..

أما الكبد ذلك الجهاز العجيب، الذي يسميه العلماء بالمصنع الكيماوي، فهو يقوم بأكثر من (٥٠٠) وظيفة مختلفة، إضافة إلى أنه يُنتج من العصارة الصفراء قرابة اللتر والنصف يومياً، أي ما لا يقل عن الثلاثين ألف لتر طوال العمر..

أما أعجبُ مصفأةٍ في الوجود، وهي الكلية، فإنها تُصفي كامل دم الإنسان في أقل من ساعة، وتعيدُ تصفيتهُ أكثر من ثلاثين مرةً يوميًا، وترشّحُ بمعدل لترٍ إلى لترين من البول يوميًا..

أما عينُ الإنسان فإنها تستطيعُ أن تميزَ عشرة ملايين لون، وتبلغُ دقتها (٥٧٦) ميجا بيكسل، بينما الكاميراتُ الفائقةُ الدقة لا تتجاوزُ دقتها المائة ميجا بيكسل.. فلا إله إلا الله: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]..

فكلُّ من ينظرُ إلى هذا النظامِ الدقيقِ بعينِ البصيرةِ والإنصافِ، سواءً في نفسه أو فيما حوله من الأرض والسّماء، يرى قُدرةً مُتناهيةً، وصنعًا بديعًا مُتقنًا، ويرى أنّ الكونَ كله، من أصغر ذرةٍ وإلى أكبر مجرةٍ، محكومٌ بنواميسٍ إلهيةٍ ثابتةٍ، لا يخرجُ عنها ألّبتة، وأنّ هذه النواميسَ غايةٌ في الدّقة والإحكام، وأنّ ذلك كله يشيرُ إلى خالقٍ عظيمٍ، عليمٍ قديرٍ، أحاطَ بكلِّ شيءٍ علمًا، وأتقنَ كلَّ شيءٍ خلقًا.. ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقْدَرَهُ نَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢].. ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَيْرُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٨٨]..

□ الدليل العلمي الثاني: دليل الثبات:

حين ندرس خواص الأشياء والأنظمة، نجد أنها ثابتة على الدوام ولا تتغير.. فالأفلاك لها نظام ثابت وخواص لا تبدل، والمطر له نظام خاص لا يتغير، والنباتات لها أنظمة ثابتة وخواص لا تتغير.. النار من خواصها الثابتة الإحراق، فليس هناك نار لا تحرق.. وهذه الأنظمة والخواص تظل قائمة لا تتخلف، ولا تستطيع المخلوقات أن تُغيّر من نظامها أو خصائصها شيئاً.. فمن الذي أوجد هذه الخواص في الأشياء؟ ومن الذي يُحافظ على وجودها واستمرارها؟ أهى الصدفة أيضاً؟.. هل تستطيع الصدفة أن تصمّم أنظمة معقدة، ثم تقوم بترتيبها بطريقة دقيقة مذهلة، ثم تُعطيها صفاتها الخاصة، ثم تجعل هذه الأنظمة تحافظ على صفاتها وتبقيها ثابتة جيلاً بعد جيل، دون أن تبدل أو تتوقف؟!.. قال تعالى: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يُمُوسَىٰ﴾ (٤٩) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿ [طه: ٤٩].

وهكذا فإن ثبات الصفات الوراثية، والخصائص الحيوية، والوظائف الفيزيائية والكيميائية للكائنات، واستقرار سنن الكون، وانتظام قوانينه، من أعظم الأدلة على وجود الله عز وجل ووحدانيته، وكمال قدرته وحكمته.. حيث إن الأشياء لا تتغير خصائصها

باختلاف الأزمان وتعاقب الأجيال.. وهذا يدلُّ على وجود نظامٍ مُحكمٍ غير عشوائي، وعلى أنَّ هناك خالقًا عليمًا، مدبرًا حكيمًا..

انظر لتكوين الإنسان منذُ وجوده الأول: تجده يولدُ بنفس عددِ العظام، ونفس الأعضاء ونفس الأنظمة.. وهكذا نظام الدورة الدموية، ونظام الإبصار، والمخ وشبكته العصبية.. والعمليات الهضمية.. فكلُّ شيءٍ يسيرُ بثباتٍ ودقةٍ مذهلة.. وأيُّ خللٍ بسيطٍ في أيِّ جزءٍ من هذه المنظومات يهددُ الحياة فورًا..

فلو نقصت حموضة الدم أو زادت، أو لو نقص ضغط الدم أو زاد، أو لو نقص سُكَّر الدم أو زاد، أو لو نقصت سيولة الدم أو زادت، أو لو نقصت خلايا الدم البيضاء أو زادت.. لولوات كثيرة، واحتمالات عديدة، في أوضاع الدم فقط، فكيفَ بغيره من الأعضاء؟!..

وحين تتأملُ حالَ الماءِ وكيف أنَّ كلَّ الأحياءِ تحتاجه وتستعمله بكثرة، ومع ذلك لا يزال ثابتًا منذ الأزل، ولم يتبدل تركيبه في أيِّ زمانٍ أو مكانٍ.. وقلْ مثلاً ذلك في الجاذبية، والضغط، وسُرعة الضوء، وقوانين الحركة، والتفاعلات الكيميائية، وغيرها كثيرٌ.. كُلُّها ثابتةٌ بشكلٍ دقيقٍ.. وهذا الثباتُ المذهلُ والدقةُ المتناهية، عبرَ

ملايين الأجيال، ومليارات التكرارات، يُعدُّ توقيعا ربانياً يُثبت أنَّها ليست من صُنع المصادفة، ولا من إيجاد العشوائية، ولا من عمل الطبيعة الصمّاء..

هذا الثبات المدهش، هو التحدي الحقيقي لنظرية التطور، وهو في الوقت نفسه أقوى شاهدٍ على التصميم الإلهي.. فلو كان الخلق ناتجاً عن تطورٍ عشوائيٍ لحدثَ اختلالٌ في الصفات، وتغيّرٌ في كيفية الخلق، وهو ما لم يحدث..

ولو كانت الأشياء تتغيّر خصائصها، أو تختلف وظائفها، لما استطاع أحدٌ أن يضع قانوناً، ولا أن يبيّن علماً، ولا أن يخترع آلة.. فثبات الخصائص هو أصل العلوم المادية كلها.. وهو الذي سمح لنا أن نتعلم، وأن نتوقع، وأن نُجرب، وأن نُعمّم النتائج.. وهو في نفس الوقت يُشيرُ إلى وحدة المصدر، ووحدة الإرادة والمشية، وأنه من صنع ربٍّ عليمٍ حكيم، أراد فأوجد، وخلق فسوى، وقدّر فهدى، وصنّع فأتقن، وأحسن كلّ شيءٍ خلقه، وقدره تقديرًا..

□ الدليل العلمي الثالث: التكامل التعاوني..

حين نتأمل في تكوين الكائنات الحية وخلقها، نرى شيئاً عجبياً لا يمكن تفسيره بالعشوائية والصدفة، نرى كائنات حية معقدة تعمل بأنظمة متكاملة، كل جزء فيها مرتبط بالآخر، وكل عضو فيها يعتمد على الآخر، في تناغم مذهش، وتعاون عجيب، يدل على التصميم والغاية المقصودة.. فتكامل أجزاء الكائنات الحية وتعاون وظائفها الدقيقة، واستحالة عملها إلا بانسجام تام، وتعاون متكامل، يدل على وجود تصميم ذكي مقصود، ويشهد بوجود خالق عليم قدير.. وليس تطوراً عشوائياً بدون تنسيق.. حيث إن الكائن الحي ليس مجرد تجمع أعضاء فقط، بل هو منظومة متكاملة لا تعمل إلا بتعاون جميع الأجزاء دفعة واحدة.. ففي كل الكائنات الحية (العليا) نجد أن أجسامها تتكون من أعضاء مختلفة، تؤدي مهام متنوعة.. ولئن كان في عمل كل عضو من أعضاء الجسد إبداع مذهل، فإن ما يذهل أكثر هو ذلك التناسق والتكامل التعاوني العجيب بين تلك الأعضاء المختلفة، فجميع الأعضاء يعتمد عملها على بعض، ولا يمكن لشيء منها أن يعمل بدون تعاون الآخرين.. جميع الأعضاء تعمل بطريقة تكاملية ولا يمكن أن تنجح إلا بوجود

كافة الأجزاء والوظائف معاً، ولا تنفع وظيفة دون أخرى، ولا يتمُّ العملُ إلا حينَ يكتُمِلُ التعاونُ بين جميع الأجزاء دفعةً واحدةً.. ولو وُجدَ عضوٌ واحدٌ دون باقي المنظومة، لكانَ عديمَ الفائدة..

فمثلاً جميعُ أعضاء الجسدِ لا تعملُ بدون أعصابٍ، والأعصابُ لا تعملُ بدون الدماغ، والدماغُ لا يعملُ بدون دمٍ، والدمُ تتكاملُ فيه عدةُ أعضاءٍ لتكوينه وتوزيعه، وسائرُ الأعضاء لا تعملُ بدون الدماغ.. والقلبُ وحده لا يكفي، فما الفائدةُ من ضخِّ الدمِ إذا لم تتنفس الرئتان، والرئةُ لوحدها لن تتنفسَ بدون دمٍ وهواء.. والعينُ وحدها لا تكفي للإبصار، والمعدةُ وحدها لا تكفي بدون كبدٍ وبنكرياس.. وغير ذلك من أنواع التعاونِ التَّكاملي بين الأعضاء، مما يعني أنها وُجدت دفعةً واحدةً، وإلا لما حصلَ بينها هذا التَّكاملُ التعاوني الدقيق.. ولو أنَّ هذه الأعضاء جاءت بالتطوُّر التدريجي، فكيف جاءت معاً؟ من نسَّقَ بينها، وكيف عرفَ كُلُّ عضوٍ وظيفة الآخرِ ليستعدَّ للتَّكاملِ معه؟.. ومن الذي علَّمها التعاونَ والتآزرَ وهي لا تعقل؟.. إنها صورٌ عقليةٌ صريحةٌ تردُّ بكلِّ قوةٍ على دعاوى المصادفة والعشوائية، وتؤكدُ وجودَ الخالقِ العليم، الذي خلقها لتعملَ معاً منذُ أولِ لحظةٍ..

أمرٌ آخر: فتكاثر الإنسان والحيوان يعتمد على وجود زوج (منفصل عنه)، وبدونه لا يمكنه التكاثر.. وكلا الزوجين (الذكر والأنثى) لا يكتمل عملُ عضوه إلا بوجود العضو الآخر، فالأنثى لها عضوٌ خاصٌ مجهّزٌ بما يُناسبُ عمليةَ التلقيح، ولا يكتملُ عملُهُ إلا بوجود عضوٍ مُقابلٍ له في الذكر، ثمَّ إذا تأملنا النُطفَ التي تُصنعُ في جسد الذكر، رأينا أنها تعرفُ طريقها إلى البويضة في جسد الأنثى، وتتحدُّ معها في تكاملٍ مُدهش، ثم إنَّ رحمَ الأنثى مجهّزٌ بطريقةٍ مميزةٍ للحمل والولادة، كما أنها مزودةٌ بجهازٍ (فريد) يُفرزُ الغذاء (الحليب) للمولود الذي لا يستطيعُ في أشهره الأولى الاعتمادَ على غذاءٍ آخر.. فالناظرُ إلى هذا التكاملِ العجيبِ يجدُ أنَّ كلَّ جزءٍ من حياة الكائن عبارةٌ عن دورةٍ مُتكاملةٍ لا يقومُ عنصرٌ منها إلا بوجود من يُكمله، وهذا يتنافى كلياً مع الصدفة والعشوائية ومع نظرية التطور المزعومة..

ولو نظرنا إلى عمليات التناسل وتربية الأبناء نظرةً ماديةً مجردة، لوجدنا أنها عملياتٌ مُزعجةٌ وغيرُ مُريحةٍ للأفراد، فالإنسانُ أو الحيوانُ سيضطرُّ للعيش مع زوجٍ غريبٍ عنه، لينجبَ منه مولوداً تتعبُ الأنثى أيما تعبٍ في حمله وولادته، ثم يتعبُ الزوجانِ أيما

تعب في تربيته ورعايته وتوفير الغذاء له وحمايته، والصبر على تعليمه وتنشئته.. فالأمر مادياً عبارة عن تعبٍ دونَ مقابل، خصوصاً عند الحيوان، وليس من تفسيرٍ منطقيٍّ إلا أن هناك إرادةً خارجيةً هي التي وضعت فيهم تلك الغرائز بهدف المحافظة على بقاء جنسهم وتناسله.. وهذا المرید هو الله تبارك وتعالى القائل: ﴿وَمَنْ أَيْبَسَهُ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١].. وقال تعالى: ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٨٨]، فالإتقان في الخلق لا يكون إلا بتكامل الأجزاء وتناسق وظائفها، وهذا من أقوى الدلائل على وجود الخالق جلَّ وعلا، كما قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ﴾ [الملك: ٣].. ولو تأملت جميع الكائنات من الذرة إلى المجرة، ومن الخلية إلى الدماغ، لرأيت نظاماً تكاملياً مذهشاً، لا يمكن تفسيره بالعشوائية والصدفة، بل يدلك على أن هناك خالقاً عظيماً أحاط بكل شيء علماً، وخلق كل شيء بحكمة وقدره تقديراً. وصدق الله إذ يقول: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]..

□ الدليل العلمي الرابع: موت الطبيعة:

نلاحظُ في كل ما حولنا من الظواهر الطبيعية، أنَّ القوانين لا عقل لها ولا إرادة.. فالجاذبية لا تختارُ من تُسقطه ومن ترفعه، والكهرباء لا تميزُ بين ما تُصلِّحه وما تُحرقه، والنارُ لا تفرقُ بين جيدٍ وسيءٍ.. فالطبيعةُ بما تحويه من طاقةٍ ومادةٍ وقوانين، إنما هي مجردُ آلةٍ مُنفذة، لا تمتلك ذاتاً مُريدة، ولا عقلاً يُميزُ ويختار..

وهناك أدلةٌ كثيرةٌ على موت الطبيعة وفنائها.. وأنَّ كلَّ شيءٍ يموتُ ويفنى.. الأشجارُ كلها تموت، الحيواناتُ كلها تبيدُ وتفنى، أممٌ كاملةٌ وحضاراتٌ هائلةٌ تولدُ وتموت.. حتى النجومُ والأفلاكُ تنهارُ وتموت، بل إنَّ مجرَّاتٍ كاملةً بمليارات النجوم والكواكب تبيدُ وتلاشى، وصدق الله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦]، فإذا كانت الطبيعةُ تموت، فهذا دليلٌ نقصٍها وضعفها، وأنها مخلوقةٌ مُدبرة، لا تملك من أمرها شيئاً، ولو كانت هي من أوجدت نفسها، فلماذا تموت إذن؟.. لماذا لا تعيشُ إلى الأبد؟.. يقولُ الملحدُ حين يعجزُ عن الجواب: هكذا هي طبيعةُ الأشياء، فمن طبعها إذن؟. ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١].

إنَّ كلَّ التجارب العلمية تُثبتُ أنَّ المادةَ لا تُنتجُ الوعي، ولا تولِّدُ

الإرادة، ولا تخلقُ الحياة.. والمادة بطبيعتها تسيرُ نحو الموت والتفكك، لا نحو الحياة والتنظيم.. وهذا ما يثبتهُ القانونُ الثاني في الديناميكا الحرارية، والذي يؤكدُ أنَّ الكونَ في حالة تدهورٍ حراريٍّ مُستمر، أي أنَّ الطاقةَ القابلةَ للاستعمال تَقُلُّ، والفوضى تزدادُ، والنظامُ ينهارُ، والكونُ يمضي نحو الموت والدمار..

فإذا كانت قوانينُ الطبيعة تقول: «كُلُّ شيءٍ يسيرُ نحو الموت»، فكيف يكونُ الفاعلُ الخالقُ المبدعُ هو نفسه هذه الطبيعة التي تموتُ وتدهورُ؟!.. إنَّ العقلَ السليمَ يدركُ أنَّ ما يسيرُ نحو الفناء لا يمكنُ أن يكونَ هو الخالقُ للوجود.. وأنَّ الطبيعةَ ما هي إلا مخلوقٌ مدبَّر، خاضعةٌ لقوانين ثابتةٍ لا تملكُ لها تغييرًا.. ومن هنا، فإنَّ القولَ بأنَّ «الطبيعةَ هي التي خلقت الأشياء»، كمن يقول: «المطرقةُ هي التي صنعت الكرسي»، أو أنَّ «القلمَ هو من ألفَ الكتاب»..

والخلاصةُ: أنَّ موتَ الطبيعة دليلٌ قاطعٌ على أنها ليست هي الخالق، ولا المدبَّر، وإنما هي مخلوقٌ خاضعٌ لإرادة خالقة، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام: ١٠٢]..

□ الدليل العلمي الخامس: استحالة الصّدفَةِ حِسَابِيًّا..

فالحساباتُ وقوانينُ الرياضياتِ، تُؤكِّدُ استحالةَ أن تُنتَجَ الصُّدفَةُ نظامًا مُعَقَّدًا مُتَنَاسِقًا، في حُدُودِ الزَمَنِ وَالْوَقَعِ وَالْفِيزِيَاءِ المَعْرُوفَةِ..

فلو تناولتَ عشرةَ كروتِ، ورقمتها من الواحدِ إلى العشرةِ، ثمَّ وضعتها في وعاءٍ، ثم حاولتَ أن تخرجها مُرتبَةً من الكرتِ رقم واحدٍ إلى رقم عشرة، فَإِنَّ إِمْكَانِيَّةَ أن تتناولَ الكرتَ رقمَ واحدٍ من أولِ محاولةٍ هي واحدٌ في العشرة، وأَمَّا إِمْكَانِيَّةُ أن تُخرِجَ الكرتَ رقم واحدٍ، ثم الكرتَ رقم اثنينٍ فهي واحد في المئة، وأَمَّا إِمْكَانِيَّةُ أن تُخرِجَ الكرتَ رقم واحد، ثم رقم اثنين ثم رقم ثلاثة فهي واحد في الألف، أَمَّا إِمْكَانِيَّةُ أن تُخرِجَ الكروتَ العشرةَ مرقمةً بالتسلسل من (١-١٠) فهي واحدٌ من عشرة بلايين محاولة.. يعني عليك أن تقوم بعشرة بلايين محاولة، لربما يُصادِفُكَ الحِظُّ فتُخرِجَ هذه الكروتَ مرتبةً من (١-١٠).. هذا فقط في عشرة كروتِ..

وإذا كان البروتينُ الواحدُ يتكوَّنُ من مئات الأحماضِ الأَمِينِيَّةِ، التي يجبُ أن تصطفَ بترتيبٍ دقيقٍ، كالخرز في عقدٍ واحد، وكلُّ حمضٍ أَمِينِيٍّ يمكنُ أن يكونَ على ٢٠ شكلًا مُخْتَلَفًا.. وإذا علمتَ أنَّ الخليةَ الحَيَّةَ في جسمِ الإنسانِ تتكوَّنُ من مجموعةٍ هائلةٍ جدًّا من

البروتينات والأحماضِ الأَمينية، فكم سيكون عدد الاحتمالات..

لقد حاولَ العالمُ السويسري (تشارلز بوجين) أن يحسبَ احتماليةَ تَكُونِ بروتينٍ واحدٍ بالصدفةِ، فوجدَ أنها تساوي: واحد إلى رقمٍ يتجاوزُ المائةَ والخمسينَ خانة، أي أنه رقمٌ لا يمكنُ قراءتهُ ولا التعبيرُ عنه، وهو رقمٌ أكبرُ بكثيرٍ من عددِ ذراتِ الكونِ كُلِّها، هذا في خلقِ بروتينٍ واحدٍ، وهو من أبسطِ مكوناتِ الخليةِ الحيّةِ، فكيفَ بالخليةِ كُلِّها، وكيفَ بالأنسجةِ المكوّنةِ من ملياراتِ الخلايا، ثم كيفَ بالأعضاءِ المكوّنةِ من ملياراتِ الأنسجةِ، ثمَّ كيفَ بملياراتِ الكائناتِ الحيّةِ، ثمَّ كونُ هائلٍ لا يُعرفُ له طرفٌ، عددُ مجرّاتهِ بالملياراتِ، وكلُّ مجرةٍ فيها ملياراتُ النجومِ، فلا شكَّ أنَّ حسابَ مثلِ هذا أمرٌ فوقَ طاقةِ العقلِ، بل وطاقةِ كلِّ العقولِ والحاسباتِ مجتمعةً، وبالتالي فالنسبةُ هي الصّفرُ المحقّقُ..

وحتى لو أعطينا الصدفةَ عمرَ الكونِ كُلِّهِ (٨, ١٣ مليار سنة)، ومعها أسرعُ حاسوبٍ كمي، فإنَّ عددَ المحاولاتِ الممكنةِ لا يتجاوزُ: 10^{61} محاولة، (وهذا هو أقصى ما تسمحُ به قوانينُ الفيزياءِ).. بينما احتمالُ تَكُونِ سلسلةِ DNA بسيطةٍ (١٠٠٠ قاعدة) صُدفةً هو: ١ من 10^{602} ! والفرقُ كما ترى شاسعٌ جدًّا، حتى

إِنَّ الزَّمْنَ كُلَّهُ لَا يَكْفِي..

وحين يَكُونُ العالم من أهل الإنصاف العلمي، تخرج الحقائق، فقد قال العالم الرياضي (فريد هويل) وهو عالمٌ بريطانيٌّ شهيرٌ، ومن أبرز علماء الفضاء في القرن العشرين، وكان مُلحدًا مشهورًا.. قال في كتابه (التَّطَوُّرُ من الفضاء) إِنَّ خَلْقَ الكونِ والحياةِ هي (عمليةٌ معقدةٌ ومُخططةٌ بعنايةٍ فائقةٍ).. وإنَّ الاعترافَ بوجود مُدبِّرٍ للكون قضيةٌ مُثبَّتةٌ علميًا.. وفي مقالٍ له منشور، قال فيه بصراحةٍ تامةٍ: (بعد تمحيصِ هذه الحقائقِ عقليًّا توصلتُ إلى أنَّ هنالك قوةً عقليةً خارقةً مُمكنةً من قوانينِ الفيزياءِ والكيمياءِ وعلمِ الأحياءِ ولا مكانَ للحديث عن قوىٍ غيرِ عاقلةٍ لتفسير ما يحدثُ في الطبيعة.. إِنَّ الأرقامَ التي تمَّ التوصلُ إليها نتيجةَ الأبحاثِ والقياساتِ أدت إلى بروز حقائقٍ مُذهلةٍ للغاية، ساقنتني إلى قبول هذا التفسيرِ دونَ نقاش).. وقال أيضًا: (إنَّ أيَّ عالمٍ يستقصي الظواهرَ الطبيعية، سيرى أنَّ قوانينَ الفيزياءِ والكيمياءِ وضعت بشكلٍ مقصودٍ وهي ترمي إلى هدفٍ معين).. وقال أيضًا: (إنَّ احتمالَ أن تكونَ الحياةُ نشأت بالصدفةِ يساوي احتماليةَ أن يضربَ تيارٌ كهربائيٌّ كومةً من الخردة، فيؤدي ذلك إلى تشكُّل طائرةٍ عملاقةٍ حديثةٍ جاهزةٍ

لِلْإِقْلَاعِ).. فتأمل قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ ۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ
بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٥]..

وبعد: فتلك خمسةُ براهينَ علميةٍ دامغة، كلٌّ منها يكفي لهدم
أوهام الصدفة، وكشف عجزِ المادة، وفضح خرافة الطبيعة العمياء..
فهذا النظام الكوني المحكم الذي تخضعُ له أعقدُ الظواهر من أصغر
الذرات إلى أعظم المجرات، وذلك الثابت الذي مكن المتعلم أن
يُنظرَ ويؤطرَ، ثم ذلك التكامل العجيب بين مكونات الحياة كأنها
فريقٌ متفاهمٌ يقوده نظامٌ واحد، وهذا الموتُ الصامتُ الذي يأخذُ
الطبيعة من أطرافها شيئاً فشيئاً، وأخيراً هذه الحساباتُ القاطعةُ التي
تجعلُ الصدفةَ ضرباً من الخيال.. أليس في كلِّ هذا إشاراتٌ بليغةٌ
إلى وجود مدبرٍ عليم، وخالقٍ حكيم، وقادرٍ مُقتدر؟.. فماذا بقي
للعقل حتى يُقرَّ بالواضح الصريح، وما جدوى العلم إن لم يُوصل
إلى التسليم بالحقِّ الواضح؟.. أليس من يُغلقُ عقله عن هذه الأدلةِ
كمن يُغلقُ عينيه نهاراً ثم يُنكرُ وجودَ الشمس..

ألا فمن رامَ الحقيقةَ فليستيقظ، ولينظر في مرآة العلم بإنصاف
وتجرد، وليقبل الحقَّ وإن خالف هواه، وإلا فما حُجته أمامَ فطرته؟

وما عُذْرُهُ بَيْنَ يَدَيِّ رَبِّهِ؟.. ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى
 وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ٥٢ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ
 نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَّنَا مِن شُفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ
 فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿
 [الأعراف: ٥٢-٥٣]..



النوع الثالث من الأدلة: دليل الفطرة..

الاعتقاد بوجود الله تعالى هو أمرٌ فطريٌّ مغروسٌ في أعماق النفس البشرية، مركزٌ في جبلتها، لا يحتاج إلى تعليمٍ أو تلقينٍ أو برهانٍ فلسفيٍّ معقد.. فالإنسانُ يولدُ وفي داخله توقُّ طبيعيٌّ لمعرفة خالقه، وشوقٌ فطريٌّ إلى من أوجده.. وإذا ترك على سجيته دون مؤثراتٍ خارجيةٍ تشوش فطرته، فإنه يتوجه إلى الله توجهاً تلقائياً، ويؤمن به إيماناً بديهياً..

وهذه الحقيقة يجسدها قول الله تعالى: ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ إِلَهِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بُدَّ لَهُ لِيَخْلُقَ اللَّهُ﴾ [الروم: ٣٠]، ويؤكد هذا قول النبي ﷺ: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجَّسَّانِهِ».. فكل إنسانٌ يولدُ وفي داخله هذا الإحساس الطبيعي بوجود الخالق، ثم تأتي المؤثرات الخارجية كالتربية والبيئة والثقافة وغيرها فتؤثر على هذه الفطرة سلباً أو إيجاباً.. في الحديث القدسي الصحيح: «إني خلقت عبادي حنفاءً وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم»، أي أن الأصل فيهم الاستقامة على التوحيد..

ولذلك قرر العلماء أن دلالة الفطرة على وجود الله أوضح من كل دليل؛ إذ إنَّ كلَّ إنسانٍ يجدُ في نفسه شعورًا بافتقاره إلى خالق، وإحساسًا داخليًا بأنَّ له ربًّا يرزقه، ويُدبِّر أمره، ويلجأ إليه عند الشدائد.. وهذا شعورٌ كونيٌّ عام، لا يكادُ يخلو منه بشرٌ، قال الإمام ابن تيمية: «الاعتراف بالخالق أمرٌ فطريٌّ في النفوس، كالعلم بأنَّ الواحد نصفُ الاثنين».. ولهذا لم يحتج القرآن إلى أن يقيم دليلًا مباشرًا على وجود الله، لأنه من أوضح البديهيات.. وقال الإمام الغزالي: «ليس إيمانُ العجائزِ عيبًا، بل هو إيمانٌ يدل على صفاء الفطرة، لا تكلفُ فيه ولا تزيف»، وقال المفكرُ الفرنسي باسكال: «في قلب كلِّ إنسانٍ فراغٌ لا يملؤه إلا الله»..

فدليلُ الفطرة، من أقوى الأدلة على وجود الله تعالى، وقد لخص الأعرابي هذا المعنى بقوله المشهور: «البعرة تدل على البعير، والأثر يدل على المسير، فسماءُ ذات أبراج، وأرضُ ذات فجاج، وبحارُ ذات أمواج، ألا تدل على الصانع الخبير؟».. وإذا أردت أن ترى صدقَ هذا الدليل في أوضح صورة، فانظر إلى حال الإنسان في لحظات الضعف والاضطرار؛ حين تغلق الأبواب، وتنقطع الأسباب، وتحيط به المصائب، أو عندما يجد الإنسان نفسه منقطعًا

في فلاة لوحده، أو حين يركبُ البحر فتعلوه الأمواج.. في تلك اللحظات العصبية، يضج القلب بنداءٍ لا إرادي من الأعماق: «يا الله!».. هذا النداء هو برهان قاطعٌ على أن الشعور بوجود الله مغروسٌ في الفطرة، مطبوعٌ في النفس، لا يحتاج إلى استدلالٍ ولا إلى برهانٍ، وإنما يحتاجُ إلى إزالة الرواسب، وإزاحة الغشاوة، فهو في الحقيقة رجوعٌ إلى الأصل، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقال سبحانه: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ [النحل: ٥٣]..

فهذه الفطرة الكامنة، وإن ضعفت بالغفلة أو الشهوات وتراكم عليها الران، فإنها تبقى حيةً كالجمر تحت الرماد، تُستثار عند الشدائد، تُشعلها لحظة خشوع، أو تجردٌ صادق، أو موقفٌ مؤثر.. وكم من إنسانٍ لم تؤثر فيه الحجج العقلية المتنوعة، لكن كيانه اهتز لصوت أذان، أو رقَّ قلبه لسماع آيةٍ تتلى بصوت خاشع، أو تأثر لرؤيا صالحة رآها، فعاد إلى رشده.. في الحديث الصحيح قال ﷺ: «ليس آدميٌ إلا وقلبه بين إصبعين من أصابع الله، فمن شاء أقام، ومن شاء أزاغ»..

وهذا التوجه الفطري ليس مجرد ميل عاطفي، بل هو تعبيرٌ عن افتقارٍ وجودي عميق.. فالإنسانُ في ذاته مخلوقٌ محتاجٌ إلى من يدبره، ويرزقه، ويحفظه، ويطمئنه، ويمنح حياته معنى وغاية.. وهذا الاحتياج الجوهرى لا يمكن أن يسده إلا الإيمان بالله والتوجه إليه، فالله هو الغاية والمصدر، وهو المبتدأ والمنتهى، وهو الأول والآخر، فمن دونه لا تكتمل للإنسان إنسانيته، ولا يزكو عقله، ولا يستقر قلبه، ولا يستقيم أمره.. كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]. ومن أعرض عن هذا المصدر، عاش حياةً ضنكاً، وفراغاً روحياً قاتلاً، كما قال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ [طه: ١٢٤].. والإنسان مهما بلغ في الانحراف وأوغل في الغفلة، فسيبقى في أعماقه شعوراً بالفراغ وحينئذٍ إلى المطلق، وهو ما يسميه البعض «السلام الداخلي»، ولن يجده إلا في رحاب الإيمان.. وهذا الافتقار هو الشاهد الصادق على زيف التظاهر بالإلحاد، وهو ما أشار إليه المفكر الفرنسى باسكال بقوله: «في قلب كل إنسان فراغٌ لا يملؤه إلا الله»..

وهكذا يتضح أن الإيمان بالله ليس فكرةً مكتسبة، ولا قضيةً

جدليةً، ولا نظريةً فلسفيةً، وإنما هو أصلٌ مغروسٌ في النفس، يشتدُّ نوره حين يصدق الإنسانُ مع نفسه، وتنزاح الغشاوةُ عن قلبه..

والفطرة السليمة، مع الافتقار الوجودي، يجعلان الإيمان أمرًا بدهيًا راسخًا.. ومع أنَّ العقل قد يزل، والقلب قد يضل، إلا أن الفطرة الصافية تظلُّ البوصلة التي تعيدُ المرءَ إلى أصله، كما في قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّيْنَاهَا ۚ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۗ﴾ [الشمس: ٧-٨]..

فطوبى لمن أقبل على ربه بفطرته النقية، وعزاؤنا فيمن أعرض أنَّ هذا الإيمان يظلُّ كامنًا في أعماقه، ينتظر لحظة صفاءٍ أو صدمةٍ توقظه من غفلته، فيعود إلى ربه تائبًا منيبًا، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّعُوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٩]..



النوع الرابع من الأدلة: الدليل الأخلاقي..

من يتأمل النفس الإنسانية يجدها عالمًا عجيبيًا.. عالمًا يزخر بالقيم الرفيعة، والمبادئ السامية، كالعدل والرحمة، والصدق والإيثار، والشجاعة والوفاء، وغيرها من القيم والمبادئ وما أكثرها، وكأنها نجوم تتلألأ في سماء النفس.. فمن أين جاءت كل هذه القيم؟.. وكيف استقرت في وجدان الإنسان منذ نعومة أظفاره؟.. ولماذا يشعر بها حتى من لم يتعلمها، ومن لم يترب عليها؟..

والجواب: إنه الله الذي فطر الناس على معاني الخير، وغرس في أعماقهم بذور الفضائل.. تأمل: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٧].. فمهما اختلفت البيئة أو الثقافة أو المعتقد، ففي أعماق كل إنسان، هناك جذوة (أخلاق وضمير)، جذوة تستميله للخير وتحبه فيه، وتنفره من الشر وتكرهه فيه، جذوة تهمس فيه حين يصيب: أصبت وأحسن، أو تهمس فيه حين يخطئ: أخطأت وأسأت.. وما أكثر الأمثلة! فحين يتعاطف المرء مع المظلوم، أو حين تبكي أم لجوع صغيرها، أو حين يرق القلب لمشهد مريض

يتألم، أو حين يواسي الإنسان محتاجاً دون مقابل.. أو حين يُعرض الإنسان نفسه للخطر من أجل من يحب.. أو حين يمدّ يده إلى ما ليس له، فيضيق صدره كأنما وُضع عليه جبل، أو حين يرفع صوته على والده فلا يهنأ له بالٌ حتى يسترضيه، أو حين يقصر في أداء واجبه فيشعر بتأنيب الضمير.. فكل هذه الأخلاق النبيلة والمشاعر الجميلة وأشباهاها ليست من إنتاج المادة، ولا من باب المصلحة، وليست وليدة توافقات اجتماعية، وإنما هي شيء مغروس في جوهر الإنسان منذ أن خلق.. وليس أدل على ذلك من أنك ترى الطفل الصغير، الذي لم تُشكله بعد قوانين الكبار، يغضب من الظلم، ويبتهج للإنصاف، ويبكي إذا أخذ أحد حقه.. فمن أين جاءت هذه الأخلاق؟.. هل صاغت المصادفة العمياء؟.. هل شكلتها تفاعلات الكيمياء؟..

وهل يستطيع التطور أن يفسر اندفاع الإنسان للتضحية من أجل من يحب؟.. هل تستطيع الطبيعة التي لا تعقل أن تفرض علينا الإحساس بواجب العدل والرحمة والوفاء؟.. كلا وألف لا..

لقد زعم بعض الماديين أن الأخلاق ليست إلا وسائل نفعية فرضها البقاء، وأفرزتها المصلحة الجماعية.. لكن هذا لا يتوافق مع

ثبات الأخلاق رغم اختلاف الأزمنة والبيئات والأمم، ولا يتوافق مع ما يشعر به الإنسان في داخله من أن الشرّ قبيح حتى وإن نفعه، وأن الحق حسن حتى وإن كان ضده.. ولا يتوافق مع طبيعة المادة، ولا مع التطور المزعوم.. ولا يفسره إلا وجود مُشرّع أعلى، غرس فينا هذا القانون الأخلاقي الثابت، وفطرنا عليه.. فهو قانون لا يخضع للهوى والمصالح، ولا يتغير بتغير الأزمنة والأمكنة.. وإن مما يؤكد ذلك وجود من لا يسرق وإن غاب الرقيب، ومن يستنكف أن يكذب وإن فاتته المصلحة، ومن يحفظ الأمانة ولا يخونها ولو تعرض للأذى.. ولو كان الإنسان مخلوقاً عشوائياً لا يعرف إلا المصلحة، لما وجدت فيه مثل هذه المعاني الرفيعة..

قال أحد الحكماء: «حينما تقول: هذا ظلم! فأنت تُقر بوجود معيار أعلى للعدل، وهذا المعيار لا يمكن أن يكون اختراعاً بشرياً، وإلا فما معنى الاعتراض أصلاً؟».. وقال آخر: «إن في داخلي قانوناً يأمرني بالعدل، ويزجرني عن الظلم، وهذا القانون لا يمكن أن يكون من اختراعي، لأنه فوق ميولي وأهوائي».. فكما أن وجود النظام في الكون يدل على مُنظم حكيم، فإن وجود النظام الأخلاقي في النفس يدل على مُشرّع حكيم..

فالأخلاق إذن ليست فقط «أدلة فكرية»، بل هي صرخات قلب، وتأنيب ضمير، تدل العاقل على أن وراء هذا الكون خالقاً عظيماً، يحبُّ الخيرَ، ويأمرُّ بالعدلِ، وينهى عن الظلم ، ويدعونا للتخلي بمكارم الأخلاق والفضائل، والبعد عن القبائح والردائل..

إنها رسائلٌ روحيةٌ ساميةٌ تقول لك: خُلقت لغايةً أعلى، وسلوكٌ أسمى وأرقى.. وخلقك خالقٌ حكيمٌ رحيم، جعل فيك نزعةً إلى الكمال تفوق الأنانية وحبَّ الذات..

والخلاصة: أن هذه الأخلاق هي آياتٌ باهرةٌ تدل على أن لهذا الكون خالقاً عظيماً، عليماً حكيمًا، أودع في الأرواح قبساتٍ من صفاته العليا، وغرس في القلوب ميلاً للفضائل، ونفوراً من الردائل، كما قال ربنا جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿صَبَغَةَ اللَّهُ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً﴾ [البقرة: ١٣٨].. وليكونَ هذا القانونُ الأخلاقي دليلاً على وجوده سبحانه، وحُجَّةً على عباده، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۝١﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴿ [الشمس: ٩-١٠].. وتلك هي خلاصةُ مهمةِ الرسل عليهم الصلاة والسلام.. ففي الحديث الصحيح، قال ﷺ: (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)..



النوع الخامس من الأدلة: الدليل الجمالي..

حبُّ الجمالِ مغروسٌ في أعماقِ النفسِ البشرية.. والكُلُّ يتذوقونَ الجمالَ وينجذبونَ إليه بلا تعليمٍ سابقٍ، حتى الصغيرُ وقليلُ التَّعلُّمِ، حتى الأعمى يُحسُّ بنبراتِ الجمالِ في الصوت والكلمةِ والملمسِ الحاني.. فمن الذي أودَعَ فينا حبَّ الجمالِ؟.. ومن الذي بثَّ في ثنايا الكونِ كلَّ هذا الجمالِ الفاتنِ؟..

فحيثما وجهتَ بصركَ وبصيرتك فسترى إبداعًا وتناسقًا، وجمالًا ساحرًا.. جمالًا يمتدُّ ليملاً الوجود كُلهُ من أدناه إلى أقصاه.. انظر إلى ارتفاع السماء، وشموخ الجبال، وانحدار الأودية، وخُضرة الغابات، وزُرقة البحار، وانبساط الأرض وامتدادها.. تأمل في تكوين البلورات، في تناسق ألوان الطيور والأسماك والفراشات، في تموج الرمال الذاريات، في هدير الأمواج العاليات، وفي تنوع الزروع والنباتات.. فكلُّ ورقةٍ لها خُضرتها ولها شكلُها، وكلُّ زهرةٍ لها لونها ولها عطرُها، وكل شجرةٍ لها ثمرتها ولها طعمُها..

فإذا تأملتَ عالمَ الحيوانِ، فإنك لا تجدُ كائنًا حيًّا إلا وفيه لمسةُ جمالٍ ظاهرة، وبصمةٌ حُسنٍ وإبداعٍ مبهرة..

انظر إلى الطاووس حين يستعرضُ بجمالِ ريشه، وانظر إلى
 الفرسِ العربيِّ وروعةِ تقاسيمه.. وتأمل في رقة الغزالِ ورشاقتها،
 وجمالِ عينيه وتناسقِ حركته.. وانظر إلى النمرِ وألوانه الزاهية،
 وعضلاته المشدودةِ القوية، وجسده الرشيقي المتناسق، قد جمعَ
 الجمالَ والهيبة معاً.. وتأملِ الوعلَ الجبليَّ، بجمالِ قرونه وخفةِ
 حركاته، ورشاقةِ قفزاته فوق الصخورِ العالية.. حتى الثعلبُ في مكروهِ
 وتحايله، يوحى لك بأنَّ الجمالَ ليسَ في الصورة فقط، بل قد يكونُ
 في التحايلِ والدهاء.. وانظر إلى الدبَّ القطبيَّ، وقد جمعَ بين القوةِ
 واللُّطفِ، والرَّهبةِ وصفاءِ اللون، كأنما نُحِتَ من الثلج.. وانظر إلى
 الأسدِ في علوِّ جبهته، وكثافةِ لبدته، وقوةِ شخصيته، وكيف تجسدت
 فيه قوةُ الجمالِ، وجمالُ القوة.. وانظر إلى الإبلِ بعينٍ خاصةٍ، فكم
 هي عجيبةٌ في خلقتها، قويةٌ في تحمُّلها، صبورةٌ في خدمتها، حفيَّةٌ بمن
 يركبُها، طيعةٌ له رغمَ ضخامتها.. قد جمعت بين قوةِ التَّحمُّلِ وروعةِ
 الجمالِ ما لم يجمعهُ غيرها.. وهكذا فما من حيوانٍ إلا وفيه صورةٌ
 من صور الجمال: في هيئته وألوانه، أو في مهارته وأدائه، أو في رفته
 وصفائه، أو في تحايله وذكائه، أو في صوته وغنائه، أو في توضيحته
 ودفاعه عن أبنائه..

أما إذا نظرتَ إلى تراكيب السُّحبِ وتكويناتها، فإنها أشبه ما تكونُ بالجبال الشاهقة، لكنها ليست ثابتةً، وإنما هي في تغيّرٍ وحركةٍ دائمة، ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْفَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٨٨].. وإذا نظرتَ إلى الجبال والتلال، فكأنما هي تماثيلٌ منحوتة، بعضها مكسوةٌ بالنبات، وبعضها جرداءٌ ملساء، وأخرى تجملت بقممٍ من الثلج بيضاء.. ولو نزلتَ إلى أعماق البحار، ستجدُ شعابًا مرجانية كأنها حدائقُ غناء، معلقةٌ في وسط الماء.. وانظر إلى الزهرة كيفَ تميلُ برأسها نحو الشمسِ تتابعها، وكيف يفوحُ عطرها ليجذبَ النحلَ يُلَقِّحُها.. وتأملَ بيوتَ النحلِ ما أبدعها، كأنما رُسمت بمسطرةٍ مُهندسٍ.. وانظر إلى العناكب كيفَ تنسجُ بيوتها بخيوطٍ دقيقةٍ رقيقة، لكنها أقوى من الفولاذ نسبةً إلى وزنها، قد حاكتها بإتقانٍ مُذهل، فمن ألهمها، ومن درّبها؟.. ومن علّمَ العصفورَ بناءَ عُشهِ بطريقةٍ فنيةٍ فائقةٍ الإتقان؟.. ومن جعلَ القمرَ مضرِبًا للمثل في الروعة والجمال؟.. ومن صبغَ الأفقَ مع كل غروبٍ بذلك اللون البرتقالي المهيّب؟..

أما الجمالُ السمعيُّ فشاهدُ آخرُ على قدرةِ الله، التي تملأُ الكونَ بالمتعة والبهاء.. أصواتُ الرياح، وحفيفُ الأشجار، وخريِرُ

الجداول، وهديرُ الأمواجِ والشلالاتِ، وتغريدُ البلابلِ وشقشقةُ العصافيرِ.. وغيرها من الأصوات العذبة، والألحان الشجية، والتي تشكلُ لوحاتٍ ومشاهدَ لا تنتهي من الجمال السَّاحِرِ، والإبداعِ الفَتَّانِ، وكلُّ لوحةٍ فيها من الروعة والحكمة، واللفظِ والرحمة، ما يُبهجُ النفسَ، ويبهِّرُ العقلَ، ويستثيرُ المشاعرَ، ويستنطقُ الأفواهَ، تسبيحًا للخالقِ الجليلِ، ﴿ فَسُبِّحْنَ اللَّهَ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ [الروم: ١٧].. فهل كلُّ هذا وليدُ صُدْفَةٍ لا عقلَ لها؟!..

أليس في جمالِ خِلْقَةِ الإنسانِ وروعةِ تركيبِهِ ما يلفتُ الأنظارَ، وكيف أنه قد جمعَ بين جمالِ الخِلْقَةِ، وجمالِ العقلِ، وجمالِ النفسِ، وجمالِ الأخلاقِ، وجمالِ التعبيرِ، وجمالِ الصوتِ.. وأنَّ كلَّ هذا بصمةُ خالقٍ جميلٍ يُحبُّ الجمالَ، و ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۚ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴾ [السجدة: ٧].. وخلقهُ في أحسنِ تقويمٍ.. وأنَّ كلَّ ذلكَ ينمُّ عن رسالةٍ واضحةٍ: أنَّ ما أنعمَ اللهُ به من الجمالِ على جميعِ مخلوقاته هو جمالٌ مقصودٌ بذاته.. جمالٌ له هدفٌ وغاية، جمالٌ يُشعركَ أنَّ الله تعالى لم يكتفِ بأن خلق الخلقَ ورزقَهُم، بل وأرادَ أيضًا أن يُسعدَهُم، وأن يملأَ قلوبَهُم سُرورًا وبهجة.. ولا غرابةَ فاللهُ جميلٌ ويحبُّ الجمالَ..

ولو أَنَّ الكونَ وُجِدَ صُدْفَةً كما يزعمون، لما كان فيه شيءٌ من هذا السَّحَرُ الفَتَّان، ولما حوى كلُّ هذه البهجة المنتشرة في كلِّ مكان.. ولكانَ كُلُّ شيءٍ أَكْوَامًا من الخرابِ والفوضى.. لكننا أينما توجهنا نرى الجمال في كلِّ مكان، ثم هو جمالٌ موزونٌ بنسبٍ دقيقةٍ وثابتةٍ.. وكلُّ هذا دليلٌ قوِيٌّ على وجود خالقٍ مُحبٍّ للجمال، مُبدِعٍ لكلِّ كمال.. ولك أن تتأملَ فالكونُ كلُّه كتابُ جمالٍ مفتوح، ومحرابٌ كبيرٌ لسجود العقل والروح.. فإذا هزَّكَ الجمالُ وأبهرك، وأثارَ شجونك وألهبَ مشاعرك، فاعلم أَنَّ كلَّ ما في الكون من إبداعٍ وجمالٍ، إنما هو أثرٌ من آثار جمالِ الكبيرِ المتعال.. وَأَنَّ اللهَ ما خلقَ الجمالَ وبثَّهُ في الكون إلا لِيُعرفَ به وَيُعْبَدَ من خلاله، وليكونَ طريقًا إلى محبته وتعظيمه وإجلاله.. ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبَصَّرَةٌ وَذَكَرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٨﴾﴾ [ق: ٦-٨]..

فالجمالُ طريقٌ موصلٌ إلى الله.. لأنه يوقظُ الإحساس، ويستثيرُ العقل، ويُبهرُ النفس، ويقودُ القلبَ إلى التعظيم والتسبيح.. ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ ﴿١﴾﴾ [آل عمران: ١٩١].. إنه رسالةٌ واضحةٌ من الخالقِ الجليل: «أنهُ جميلٌ يُحبُّ الجمال.. ويريدُك أن تتعرفَ عليه من خلال الجمالِ الذي بَثَّهُ في كلِّ شيءٍ»..

حتى في مشاهد العُنفِ الطبيعي، كالبراكينِ والعواصفِ والأمواجِ العاتية، فإنك ستجدُ مع الرهبةِ عظمةً وجمالاً خاصاً: تأمل: أشكالَ الحممِ المتدفقة.. وضرباتِ البرقِ الصاعقة.. وأصواتِ الرعدِ المزمجرة.. وتموجاتِ الأعاصيرِ الهادرة.. وأمواجِ البحرِ العاتية.. لترى جمالاً «مهيّياً»، لا يمكنُ تفسيره بالعشوائية، وإنما هو توقيعُ العظمةِ الإلهية..

ولقد ألهمَ اللهَ الإنسانَ حبَّ الجمالِ وتذوقه؛ فالشعراءُ يتغنَّونَ بجمالِ المحبوبِ، والرَّسَّامونَ يُحاكُونُ مشاهدَ الطبيعة، وما من أحدٍ إلا ويتذوقُ الجمالَ وينجذبُ له، حتَّى الأطفالُ بفطرتهم يحبُّونَ الألوانَ الزاهيةَ والأصواتَ العذبة.. فمن أين جاءَ هذا الميلُ إن لم يكن موهوباً من الخالقِ الجليل، والذي هو أصلُ كلِّ جمالٍ ومصدره..

وكلما ازددنا تأملاً في الجمال، ازددنا يقيناً أنَّه لم يُخلق عبثاً ولم يوجد صدفةً.. وإنما هو إبداعٌ له هدفٌ وغاية، ورسالةٌ مهمورةٌ بتوقيع الخالق: ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٨٨]..

وإذا أردت أمثلةً حيَّةً فتأمل تصميم قزحية العين ودقتها الهندسية الفائقة.. وفي تركيب الأسنان وكأنها عقدٌ من اللؤلؤ المنضود، وفي تشكيلات الشعابِ المرجانية وألوانها البديعة، وتموجاتها العجيبة..

وفي قوسِ المطرِ وكأنه جسرٌ من الألوان يحيرُ الناظرين، وفي تغريدِ العندليبِ بألحانٍ تُشجّي السامعين.. وفي سحر الأزهارِ وروعةِ منظرها، ورقةٍ ملمسها، وجاذبيةِ عطرها..

ألا إنَّ الذي بثَّ الجمالَ في المخلوقات، وسكبه في صورها وأرواحها وعلاقاتها، لهو الجميلُ الذي يحبُّ الجمالَ.. ألا وإنَّ القلوبَ السليمةَ حين تتذوقُ الجمالَ وتتعمقُ فيه، توقنُ أنه لم يوجد إلا عن علمٍ وإرادة.. وأنه لا يمكنُ أبدًا أن ينشأ صدفةً بلا تدبير، ولا أن يتوالدَ عشوائيًا بلا تقدير.. فالصدفةُ يستحيلُ أن تُبدعَ هذه اللوحاتِ الجمالية، أو أن تعزفَ هذه الألحانَ الشجية، أو أن تنفثَ هذه العطورَ الزكية.. ولو كانَ الجمالُ صدفةً، لما اتَّسقَ قلبُ الإنسانِ وبصره مع ألوان الطبيعةِ ومناظرها الخلابة، ولما ارتاحت أذنه لألحانِ الطيرِ وحفيفِ الأشجارِ وهمسِ النسيم، ولما أنسَ أنفه لعبيرِ الزهورِ وعبقِ المطر.. فكلُّ ما في الوجود من حُسنٍ وإبداعٍ وجمالٍ، إنما هو أثرٌ من آثارِ الجميلِ المتعال.. ﴿فَانْظُرْ إِلَىٰ ءَآثَرِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الروم: ٥٠]..



النوع السادس: أدلة الهداية الربانية للفرد والأمة

ليس كل دليل على وجود الله يركز على العقل أو الحس أو البرهان المجرد، فهناك من الأدلة ما يمكن استخلاصه من أعماق التحولات التي تطرأ على حياة كثير من الأفراد والمجتمعات، حين تمتد إليهم يد الهداية الإلهية فتغير حالهم تغييراً إيجابياً عجباً، وتنقلهم نقلة إعجازية من أسفل سافلين إلى أعلى عليين..

إنها ولا شك أثر من آثار الرحمة الإلهية والعناية الربانية، وتدير لطيف من الحكيم الخبير، فالله تعالى لا يترك الناس سُدى، بل يدبر أمرهم، ويبعث إليهم ما يكون سبباً في هدايتهم، جماعات وأفراداً..

وهذا النوع من الأدلة يمكن تسميته بأدلة الهداية الربانية للفرد والأمة، وهو ينقسم إلى فرعين متكاملين:

□ الأول: دليل الهداية الربانية للأفراد..

وهو نوع من الإدراك يتسلل إلى نفس الإنسان من خلال تكرار الوقائع المتشابهة، فينطبع في وعيه كيقين لا يحتاج إلى مزيد بيان.. وكثير من الناس على اختلاف أديانهم وقناعاتهم يمرون بلحظات يوقنون فيها أن ما جرى في حياتهم لم يكن محض مُصادفة،

بل كان وراءه تدبيرٌ غيرٌ منظور، وأنَّ الأقدارَ تصرفت بحكمةٍ أعجزت فطنتهم.. فكم من مرةٍ نجا فيها إنسانٌ من مأزقٍ مُحتمٍ بطريقةٍ عجيبةٍ؟.. أو جاءه فرجٌ غير متوقعٍ في لحظةٍ حرجةٍ.. وكم من لقاءٍ عابرٍ، أو كلمةٍ مؤثرةٍ سمعها عرضاً فغيّرت مسارَ حياته.. وأخرجته من ورطةٍ حقيقيةٍ.. وكم من تأخيرٍ أو عرقلةٍ ظنها شراً، فإذا بها تُنقذه من مُصيبةٍ كبيرةٍ، أو تقوده إلى خيرٍ لم يتوقعه؟.. وكم من ضيقٍ استحكمت حلقاته، ثم جاء الفرَجُ في لحظةٍ حرجةٍ، وبعد أن بلغ اليأسُ مداه.. هذه الحوادثُ الصغيرةُ وأمثالها، تتكرر فتتركُ في النفس شعوراً يتعمقُ مع الأيام: بأنَّ هناك شيئاً ما.. إرادةً ما.. سمها ما شئت، هي نوعٌ من الرعاية الخفية، تُدركها النفسُ وإن لم تستطع أن تُفسرها تماماً.. والمثيرُ للانتباه أن هذه الحوادث ليست نادرةً، بل هي شائعةٌ متكررة، وتزدادُ وضوحاً كلما نظرَ الإنسانُ في تفاصيل عُمره بصدقٍ وتأمُلٍ.. لكانما هناك يدٌ حكيمةٌ لطيفة، تُدبّر وتُرتبُ له أقداره بخفيةٍ ومن حيث لا يعلم، كما يُرتبُ الأبُّ الحنونُ مسارَ طفله، ليجنبه السقوطَ في المهالك.. وتأخذُ بيده إلى مخرجٍ آمن.. وحتى الذين عاشوا سنواتٍ في الإنكار، كثيرٌ منهم يتحدثونَ عن لحظاتٍ فارقةٍ، يُسمونها «لحظاتِ الصحو»، أو «الهداية»، يتغيّر فيها

مسار حياتهم فجأة، وبدون مُقدماتٍ تغيّرًا إيجابيًا واضحًا..

فما الذي يجعلُ إنسانًا يتوقّفُ فجأةً في منتصف الطريق، ليكتشفَ بطريقةٍ مُثيرةٍ أنه كان على وشك أن يقعَ في خطأٍ كارثي، وليتحوّلَ بعدها إلى طريقٍ آخر، فيه الخير والسلامة..

هذا الشعور المتكرّر، وهذه النجاة العجيبة، وهذه التحولاتُ المثيرة، تُشكّلُ حينَ تراكُمٍ دليلاً يمكن أن نُسميه: دليل الهداية الربانية للأفراد.. إنه ليس برهاناً رياضياً، ولكنه تراكمُ تجاربٍ حيّة، تُقنِعُ القلبَ كما تُقنِعُ العقلَ، وتتركُ أثراً قوياً لا يمحوه الزمن.. وتُشكّلُ في النفس يقيناً: أنّ الإنسانَ ليس متروكاً سُدى، وأنّ هناك من يراهُ ويسمعهُ ويرعاه، ويُرتبُ له أموره برفقٍ ولطف، وإن لم يُدرك ذلك على الفور.. ومن ثمَّ يتحوّلُ الإيمانُ بالله عند هذا الإنسانِ من احتمالٍ منطقيٍّ إلى تجربةٍ وجوديةٍ عميقة، لا يُمكنُ طمسُها بالمنطق الجاف..

فيا أيّها السائرُ في دروب الحياة، لا تغفل عن هذه الشواهدِ المتراكمة، والرسائل اللطيفة المتكررة.. فكلُّ نجاةٍ من هلكة، وكلُّ رحمةٍ أدركتك بعد شدة، وكلُّ رزقٍ جاءك من حيث لم تحتسب، وكلُّ توجيهٍ دلّك على الصواب، وكلُّ تدبيرٍ لطيفٍ ساعدك.. فإنَّ كلَّ ذلك ليس صدفةً ولا عبثاً، إنما هو توقيعٌ خفيٌّ أنّ للكون ربّاً رحيماً

حكيمًا، لا ينسى خلقه، ولا يتركهم سُدىً..

فطوبى لمن عقل عن ربه الرسائل والإشارات، ورآه في دقائق اللطف والرحمات، كما يراه في شواهد الأكوان والآيات.. ﴿وَمَنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ۚ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢]..

□ ثانيًا: دليل الهداية الربانية للأمة..

حق لكل عاقل أن يتساءل: كيف أمكن لدين الإسلام أن يحدث كل هذا التحول الهائل في سلوك الناس وقناعاتهم، وأخلاقياتهم.. ثم يستمر هذا التأثير الكبير قرونًا طويلة، ويصل إلى بيئات بعيدة لا تتكلم العربية؟.. علمًا أن هذا الدين لا يملك من أدوات ووسائل التأثير والتغيير المادية ما يملكه غيره، ومع ذلك فإن المشهد المعجز يتكرر: فكم من أمة كانت قابضة في مجاهل التاريخ، غارقة في الظلام والضلالات، فلما اتخذت الإسلام منهجًا واستقامت عليه، تبدلت أحوالها إلى أحسن حال، وعاشوا بعزة وكرامة لم يعرفوها من قبل..

وهذا لوحده كافٍ لأهل البصيرة، أن يؤمنوا بأن هذا ليس من

صُنِعَ البشر، فكم ظهرَ في التاريخ من حركات إصلاح، إِلَّا أَنْ أَيَّامًا مِنْهَا لَمْ تُغَيِّرِ النفوسَ من الداخل، وَلَمْ تُحْيِ القلوبَ والضمائر، وَلَمْ تَبْنِ إنسانًا جديدًا، كما يصنعُ الإسلامُ العظيم..

وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نَسْتَوْعِبَ الْأَمْرَ جِدًّا، فَلْنَقَارِنْ بَيْنَ حَالِ الْعَرَبِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ وَبَعْدَهُ، وَلْنَتَأَمَّلْ كَيْفَ انْتَقَلُوا مِنْ أَدْنَى دَرَجَاتِ الْحَضَارَةِ، وَأَسْوَأِ حَالَاتِ الضَّعْفِ وَالْانْحِطَاطِ، إِلَى قِمَمِ الرِّيَادَةِ وَالسِّيَادَةِ، وَالتَّأثيرِ وَالْقِيَادَةِ.. كَيْفَ تَجَاوَزُوا الْأُمِّيَّةَ، وَالْوُثْنِيَّةَ، وَالْفَوْضَى وَالْعَصْبِيَّةَ الْقَبْلِيَّةَ، لِيَصْبَحُوا دُعَاةَ عِلْمٍ وَهَدًى، وَحُمَاةَ عَدْلٍ وَحَقٍّ، وَبُنَاةَ حَضَارَةٍ وَأَمْجَادٍ.. كَيْفَ خَرَجُوا مِنْ صَحْرَاءِ قَاحِلَةٍ، لَيْسَ فِيهَا حَضَارَةٌ وَلَا مَدِينَةٌ، وَلَا نِظَامٌ وَلَا شَرِيعَةٌ، لِيَهْزِمُوا أَعْتَى الْجِيُوشِ وَأَقْوَاهَا، وَيَفْتَحُوا أَعْظَمَ الْبُلْدَانِ وَأَمْنَعَهَا، وَلِيُؤَسِّسُوا حَضَارَةً نَوْعِيَّةً مَا عَرَفَ الْعَالَمُ شَبِيهَا لَهَا، وَلِيَنْشُرُوا الْعَدْلَ وَالسَّلَامَ فِي كُلِّ أَصْقَاعِ الْمَعْمُورَةِ.. وَلِيَعْلَمُوا الدُّنْيَا أَرْقَى الْأَخْلَاقِ وَالْمَبَادِي الْإِنْسَانِيَّةِ..

فَأَيُّ سِرٍّ جَعَلَ مِنْ رِعَاةِ غَنَمٍ مُتَخَلِّفِينَ، يَتَحَوَّلُونَ إِلَى أَعْظَمِ قَادَةِ أُمَّمٍ فَاتِحِينَ؟.. مَا الَّذِي حَوَّلَ أَوْلَئِكَ الْأَعْرَابَ الْمُتَنَاحِرِينَ إِلَى إِخْوَةٍ مُتَحَابِّينَ مُتَكَاتِفِينَ.. أَيُّ رُوحٍ عَلَوِيَّةٍ سَرَتْ فِيهِمْ فَجَعَلَتْهُمْ يَقُودُونَ قَافِلَةَ الْإِنْسَانِيَّةِ نَحْوَ النُّورِ وَالْهَدًى، بَعْدَ أَنْ كَانُوا فِي حَالٍ لَا أَفْسَدَ وَلَا

أسوأ منها.. ما الذي حدث لعبدة الأحجار والأصنام حتى تغيرت حياتهم واستقام أمرهم؟.. ألم يكن الواحد منهم يصنع إلهه بيده من التمر، فإذا جاع أكله.. ألم يكن دُينهم أن يقتل بعضهم بعضاً، وأن يبغى بعضهم على بعض، وأن يدفن أحدهم ابنته حية كراهية أن تأكل من طعامه.. ألم يصفهم إمبراطور الفرس بقوله: «إني لا أعلم في الأرض أمةً أشقى ولا أقلَّ عددًا ولا أسوأ ذات بينٍ منكم»..

فما الذي تغيرَ فيهم حتى صارت جحافل فارس والروم رغم إمكانياتها الضخمة، وكفاءتها العالية، وخبرتها الطويلة في القتال، تقفُ أمامهم عاجزةً.. كيف أصبح هؤلاء الأعراب المتخلفون بإمكانياتهم البدائية، وخبراتهم المحدودة، يُذيقون أعداءهم أمرًا وأنكى الهزائم المتتابة..

إنَّ المرءَ ليتساءلُ بانبهارٍ شديد: ما الذي جعل عبَّادَ الحجارة والأصنام، وهم الذين فروا بالأمس هاربين من أمام أبرهة الحبشي وهو يريدُ هدمَ كعبتهم المقدسة، فإذا بهم يدمِّمونَ في وقتٍ واحدٍ على عروش فارس والروم، ويدوسون تيجانهم، حتى هلك قيصرُ فما قام قيصرٌ بعده، وهلك كسرى فما جاء بعده من كسرى..

لا شك أنَّ هذا الانتقال الإعجازي المذهل يستحقُّ وقفةً تأملٍ

طويلة.. لأنه ليس تحولاً عادياً كالذي يحصل لغيرهم من الأمم المتحضرة، بل هو انتقال جذري في فكر الإنسان ووعيه وقيمه، وفي أهدافه وغاياته، أنتج أعظم وأضخم تحول في تاريخ البشر، بل إنه من العمق والاتساع والسرعة بحيث لا يمكن أن تحدثه طاقات البشر المحدودة، ولا بد له من قوة عليا تدعمه وترعاه، وصدق الله.. ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ يَتَّبِعُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد: ٩]..

لقد كان العرب قبل الإسلام في أسوأ حالاتهم، فكانوا في تخلفٍ وجهلٍ مُدقع، لا يقرؤون ولا يكتبون، ولا يعرفون نظاماً ولا دولة، ولا يجمعهم دستورٌ ولا قانونٌ ولا عقيدة.. كانوا قبائل متنافرة متناحرة، يعيشون على السلب والنهب والغارات، ويتقاتلون على أتفه أسباب الخلافات، ويغلب عليهم الظلم وسفك الدماء ونهب الممتلكات، وعبادة الأوثان ووأد البنات.. وقل ما شئت مما ساء وقبح من العادات والصفات..

حتى بعث الله نبيه محمداً ﷺ ليدعوهم إلى الله وحده، وينقلهم من عبادة الأصنام إلى عبادة ربّ الأنام، ويعلمهم منهج القرآن وتعاليم الإسلام، ذلك المنهج الرباني المتكامل، الذي يُعرفهم بخالقهم، ويبيّن حق الله تعالى عليهم، ويضبط علاقاتهم ببعضهم،

وينظم كل شؤون حياتهم، ويدعوهم إلى كل فضيلة، وينهاهم عن كل رذيلة.. وسرعان ما بدّل القرآن أحوالهم، وطهر أرواحهم، وزكّى أخلاقهم، وصاغ عقولهم.. ولم يكن التغيّر مجرد تحسّن في السلوك أو اجتناب لبعض العادات السيئة، بل كان انقلاباً كلياً في شخصية الإنسان ونظرته إلى الحياة، وإلى نفسه، وإلى ربه، وإلى الناس من حوله.. فأصبحوا أمةً جديدةً، لهم غايةٌ ورسالةٌ ومنهج.. فمنهجهم القرآن، وغايتهم: رضا الرحمن، ورسالتهم: هداية الناس إلى الإسلام، وأصبحوا يرون الموت في سبيل الحقّ أكرم من حياة الدّل والخنوع، ويرون إقامة العدل واجباً فوق كلّ اعتبار، ويرون الناس كلّهم سواسيه، لا فرق بين عربيٍّ ولا عجميٍّ إلا بالتقوى..

هذا التحوّل الهائل هو من جعل منهم بحقّ الأمة الأقدَر على البناء، والأسرع في التمدّد والنماء، والأكثر عدلاً ورحمةً وإخاء.. ولم تُعرف حضارةٌ في التاريخ بدأت من الحضيض كما بدأت أمةُ الإسلام، ثمّ انتشرت بهذه السرعة، وبلغت هذا المدى في البناء والنفع والازدهار..

ولو أمعنت النظر في طبيعة الأثر الذي أحدثتهُ هذا المنهج الربانيُّ في أتباعه، لرأيتَ من الشواهد ما يُذهل العقول.. فرجلٌ كعمر بن

الخطاب ﷺ، كان في الجاهلية أعرابياً فظاً غليظاً، يسجدُ لحجرٍ، ولا يعرفُ رحمةً ولا رقةً، ثمَّ إذا به يتحوّل إلى نموذجٍ للعبقريّة والعدلِ والرحمةِ، والزُّهدِ والخشيةِ.. لا يفري أحدٌ فريتهُ، ليس هو فقط، بل وغيره مئآتٌ وألوفٌ وعشراتُ الألوف خرجوا في وقتٍ واحدٍ.. وأصبحوا ولاةً وقادةً وقضاةً ومعلّمينَ ومرابطينَ على الثغور، ينشرونَ العلمَ والأخلاقَ، ويُقيمونَ الأمنَ والعدلَ، ويُربّونَ الأجيالَ، ويُديرونَ دولاً مترامية الأطراف، ويؤسسون حضارةً ما عرفَ التاريخُ مثيلاً لها..

فأيُّ منهجٍ هذا الذي يُحوّلُ النفوسَ إلى هذا المستوى من الصدقِ والتفاني؟ وأيُّ نبيٍّ هذا الذي ربّى أولئك الرجال؟ وأيُّ كتابٍ هذا الذي هزّ الأرواحَ من أعماقها، وصاغها صياغةً جديدةً؟.. ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠]..

لا شكَّ أنّ هذا ليسَ من صنعِ بشرٍ، بل هو من عند الخالقِ جَلَّ وَعَلَا، العليمِ الخبيرِ، والذي يعلمُ كيفَ تُبنى الأممُ، وكيفَ تُزكّى النفوسُ، وكيفَ تُوجّهُ الطاقاتُ، وكيفَ تُستثمرُ بالطريقة المثلى..

وإنَّ أعظمَ ما في هذا التحوّلِ الهائلِ، ليس في حجمِ التوسعِ وضخامتهِ، ولا في قوتهِ وسرعتهِ، بل في طبيعةِ التغيّيرِ وطريقتهِ.. فمع

عدل المسلمين وحسن تعاملهم دخل الناس في دين الله أفواجًا، من غير حرب ولا جيوش.. كما حدث في إندونيسيا وماليزيا وجنوب أفريقيا.. والله لو لم يكن هذا الدين من عند الله، لما كُتِبَ له هذا القبول الكبير، ولما دخل الناس فيه أفواجًا، ولما بلغ من الإصلاح ما بلغ، ولما أخرج أمة بهذا الصفاء والتوازن والانسجام..

إن هذه النقلة التاريخية المذهلة، من الشرك إلى التوحيد، ومن الجهل إلى العلم، ومن الغواية إلى الهداية، ومن الفوضى إلى النظام، ومن المحلية إلى العالمية، كلها تدلُّ دلالة قاطعة على أن هذا الدين ليس اجتهدًا بشريًا، بل هو منهج رباني: ﴿صَبَّغَهُ اللَّهُ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْكَ اللَّهُ صَبَّغَهُ﴾ [البقرة: ١٣٨].. ولقد شهد خصوم الإسلام قبل أصدقائه بأنَّ هذا التَّحول ليس عاديًا، وأنَّ وراءه سرًّا إلهيًّا.. يقول الفيلسوف الفرنسي غوستاف لوبون: «ما عرَفَ التاريخ فاتحين أرحم من العرب المسلمين.. وإنَّ محمدًا قد أحدث في قومه ثورة لم يشهد التاريخ لها مثيلًا، فقد حولهم من قوم بدائيين، إلى أمة تحمل رسالة حضارية عظيمة، وكلُّ ذلك في زمنٍ وجيز».. بل اعترف توينبي، وهو أحد كبار المؤرخين بأنَّ الحضارة الإسلامية قامت على أساس أخلاقي عجيب، لم تعرف له أوروبا مثيلًا في العصور الوسطى.. ويقول المستشرق الأمريكي ستودارد: «إنَّ نشوء الإسلام

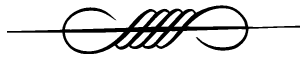
هو النبأ الأعجبُ في تاريخ الإنسان كله.. فقد ظهر الإسلام في أمةٍ كانت متضعضةً الكيان، مُنحطةً الشأن، فلم يمضِ على ظهوره سنواتٌ، حتى غطى نصفَ الأرض، ممزقاً ممالكَ عاليةَ الذرى، متراميةَ الأطراف، مُشيّداً عالماً حديثاً متراصّ الأركان.. أمّا المؤرخُ البريطاني إدوارد جيبون، فقد قال: «بقوةٍ واحدةٍ وفي وقتٍ واحدٍ زحفَ العرب على فارس والروم، وخلالَ عشرِ سنواتٍ من خلافةِ عمر، أخضعوا ستةً وثلاثينَ ألفَ مدينةٍ وقلعةٍ، وهدموا أربعةَ آلافِ معبدٍ، وبنوا أربعةَ عشرَ ألفَ مسجدٍ»..

إنَّ هذه النقلةَ التربويةَ الهائلةَ لأمةِ الإسلام، فهي دليلٌ من أقوى الأدلةِ على وجود الخالق، لأنَّ القوةَ التي صنعت هذه التحوّلَ العميقَ، لا يمكنُ أن تكونَ إلا من عند الله، ولا يمكنُ لعاقِل مُنصفٍ أن ينسبها إلى الصدفة، أو إلى عبقرية فردٍ من الناس.. إنها آيةٌ بينةٌ، تشهدُ أنَّ هذا الدينَ ليس صناعةً بشريةً، بل هو رسالةٌ ربانيةٌ، هزّت الأرض، وبدّلت التاريخَ، وأثبتت أنَّ الإيمانَ الحقَّ يغيّر الإنسانَ تغييراً جذرياً، ويرفعه من أسفلٍ سافلين إلى أعلى عليين..

وإنَّ التاريخَ ليشهدُ أنَّ المسلمينَ يومَ تمسكوا بتعاليم دينهم سادوا وشادوا، وعمرّوا الأرضَ وطوروها، وأناروا للإنسانية طريقَ

التقدم والرقى، وقدموا حضارةً امتدت منافعها إلى كلِّ المجالات..
 فلما ابتعدوا عن تعاليم دينهم، وجعلوه وأهملوه، انحدروا إلى ما
 هم فيه، وسيظلون كذلك حتى يعودوا إليه عودةً صادقةً صحيحة..
 ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ
 الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]..

وعليه فأدلة الهداية الربانية للفرد والأمة برهانٌ حيٌّ على أن وراء
 الكونِ يدًا تُمسكه، وعينًا تحرّسه، ورحمةً ترعاه وتعتني به.. فالله
 جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿فَانْظُرْ إِلَىٰ ءَاثَرِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا
 إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِ الْمَوْتِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الروم: ٥٠]..



النوع السابع من الأدلة: الدليل اللغوي

منذ أن وُجدَ الإنسانُ على وجه الأرض وجدت معه لغته التي يتكلّم بها.. ولا تكادُ توجدُ أمةٌ في التاريخ إلا وفي لغتها اسمٌ تعبّر به عن الخالق العظيم جَلَّ وَعَلَا، سواءً أسمته: إيل، أو إله، أو ألهم، أو ثيوس، أو ديوس، أو خدا، أو بوج، أو الله.. فكلّها رغم اختلاف البيئات واللغات معانٍ متقاربة تعبّر عن الألوهية والعلو والجلال.. وتطلق على الإله العظيم، الذي يُعتقد أنه خالق كل شيء، المدبّر، المستحق للعبادة، المنزّه عن النقص، المجيب للنداء، الملاذ عند الخوف، المستغاث عند الضرر.. بل إن كثيراً من تلك الأسماء بينها تشابهٌ صوتيٌّ، يدل على أن لها أصلاً مشتركاً.. وهذا معناه أن فكرة الإله لم تنشأ من خيال الإنسان، بل كانت استجابةً لنداءٍ داخليٍّ فيه، اسمه الفطرة، عبّر عنه الإنسان بلغته حين تكلم، واستشعره في قلبه قبل أن يعرف الأحرف..

وهنا يتجلّى الدليل اللغوي بوصفه أكثر من ملاحظة صوتية، بل هو دليلٌ فطريٌّ تاريخيٌّ، يتلاقى فيه اللسان مع الوجدان مع الزمان، ليثبت أن الإيمان بالله جزءٌ من اللغات ومن الأبجديات العقلية..

ومن المقرّر في علم اللغة أنّ المعنى يسبق اللفظ، فما من اسمٍ يوضع إلا ويسبق بتصورٍ ذهنيٍّ لمعناه.. ولا يبتكر الناس كلمةً إلا ولها مدلولٌ في أذهانهم.. ولذلك لم يكن هناك كلماتٌ مثل: «الهاتف»، و«الكمبيوتر»، و«القمر الصناعي» قبل اختراعها، لأنها لم تكن معروفةً المعنى من قبل.. فإذا كان هذا هو القانون اللغوي العام، فكيف تُفسّر وجود اسم «الله» أو مرادفاته في أقدم نقوش البشر، وفي جميع اللغات، البدائية منها والحديثة.. وكيف استقر هذا الاسم في الوعي البشري، رغم تنوع البيئات، وتباعد الشعوب، واختلاف الديانات والثقافات؟.. وكيف اتفقت عقول البشر على أنّ هذا الاسم يُشير إلى ذاتٍ واحدة: (الإله الخالق العظيم)؟..

وما من تفسيرٍ منطقيٍّ لبقائه محفوظًا في أعماق اللغة، إلا لأنّه فطرةٌ مركوزةٌ في النفس البشرية منذ أن خلقها الله.. مُستقرٌّ في الضمير الجمعي، فقام كلٌّ منهم بإطلاقه حسب لسانِ قومه..

ولذلك فإنّ اسمَ الجلالة (الله) ليس مجردَ اصطلاحٍ بشري، ولا اختراعٍ لغوي، بل هو شاهدٌ لغويٌّ داخليٌّ على وجود الله في وجدان الإنسان.. بل إنّ لهذا الاسم حين يُنطق وقعًا لا يُشبه غيره من الأسماء: فمهابتُهُ، وجلالَتُهُ، وتَفَرُّدُهُ، وجَرَسُهُ ورنَّتُهُ في القلب،

وقداسته في الضمير، تجعله مُتميزاً برسمه وبمبناه، مُنفرداً في بنيته الصوتية وفي معناه، فلا يُثنى، ولا يُجمع، ولا يُشتق، بل هو عَلمٌ على الذات الإلهية، دالٌّ على الكمال من كلِّ وجهٍ.. ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥].. وصدق الله: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ (٢) لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١-٤]..

فاللهُ واحدٌ في ذاته، واحدٌ في أسمائه وصفاته، واحدٌ في فطرة الإنسان وكيونته، وسيبقى منقوشاً في ضميره ووجدانه حتى وإن ضلَّ عن طريقه وابتعد عن مساره.. وإنَّ وجودَ هذا الاسمِ أو ما يرادفه في كلِّ اللغات والثقافات، لهو دليلٌ على أنَّ الاعتقادَ بالله لم يكن بدعةً دينيةً، ولا طارئاً ثقافياً، بل هو أصلٌ إنسانيٌّ مُشتركٌ.. والعلماءُ يسمُّونَ هذا «ثباتاً ثقافياً»، وذلك حين يظهرُ لهم معنىٌ أو اسمٌ مُشتركٌ في حضاراتٍ مُتباعدةٍ ليس بينها صلةٌ، ويرونَ فيه أثراً لتجربةٍ عميقة، أو فطرةٍ إنسانيةٍ موحدةٍ، وهذا ما ينطبقُ تماماً على اسم الله الأعظم..

فحتى لو اختلفت المذاهبُ، وتنوعت الفلسفاتُ، وتعددت الطقوسُ، فإن اسمَ الإلهِ يظلُّ حاضراً، شاهداً على وجود شيءٍ

أعمق من الثقافة: مغرور في الفطر.. فهل بعد هذا يبقى شك في أن الله
 أثرًا في كل فطرة، وله اسم في كل لغة، وله مكانة في كل قلب، وأنه
 حقيقة نطقت بها كل اللغات، وأنه كان ولا يزال باقيا في أعماق
 الإنسان ما بقيت الحياة.. ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ
 وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا
 كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢]..



النوع الثامن من الأدلة: الدليل التاريخي

من يقرأ التاريخ بتأمل، يلحظ أنه رغم تباين البيئات، واختلاف الثقافة واللغات، فإن الإيمان بوجود قوة عليا تتحكم في شؤون الكون كله، أمر مشترك بين جميع الأمم والحضارات.. وأنه لا توجد أمة واحدة بلا معتقد ديني أو بدون تصور ما عن قوة غيبية عليا؟.. يشهد لذلك وجود ما لا يحصى من النقوش والرسومات، والطقوس وأماكن العبادات..

فلو كان الدين اختراعاً اجتماعياً محضاً، أو مجرد خرافة مفيدة كما يزعم بعض الملاحدة، فلماذا لم تنشأ مجتمعات بلا أي مظهر إيماني؟.. ولماذا استمر هذا الميل الغريزي إلى الإيمان لآلاف السنين، رغم تبدل الفلسفات والأيدولوجيات، وتعاقب الأجيال وتنوع الثقافات..

ثم إنه من الثابت تاريخياً أن الدين سابق للكتابة، وأنه أقدم من سائر الفنون والآداب، بل إنه كان هو الحافز الأول لبناء المدينة والحضارة، يشهد لذلك نماذج عمرانية متقدمة، كمعابد بابل، وأهرامات مصر، وأبراج حضارة المايا، وكنائس النصارى، ومساجد المسلمين..

بلغةٍ أخرى: فهذا الإيمانُ بوجودِ قوةٍ عليا ليس طارئاً على الإنسان، بل هو جزءٌ أصيّلٌ من تكوينه الفطريّ.. ولو تتبعنا تحولات التاريخ الكبرى، لوجدنا أنّ أبرزها وأقواها هي التحولاتُ الدينية..

فدعوةُ نوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ غيّرت ملامحَ البشرية، وحنيفةُ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ أسقطت صنميةَ بابل، وموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أقامَ أمةً جديدةً وسطَ التيه، وتعاليمُ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ غيرت قبائلَ وشعوبَ البحر المتوسط، وبعثةُ محمدٍ ﷺ أعادت رسمَ خريطةِ العالم..

وحتى محاولاتُ الشيوعيين والعلمانيين لإقصاءِ الإيمانِ عبرَ فرض الإلحادِ والعلمانية لم تنجح في إطفاء هذا الميل العميق نحو الإيمان، فما أن زالت الموانعُ حتى عادت الشعوبُ تبحثُ عن الإيمانِ من جديد..

أمرٌ آخر مهم: وهو أنّ هناك نمطاً من أنماط التاريخ، يتكرر باستمرار، وهذا النمطُ العجيبُ يحصلُ عندما ينشبُ صراعٌ بين قلةٍ مؤمنةٍ مستضعفة، ضدّ كثرةٍ طاغيةٍ متجبرة.. ورغم الفارق الهائل في موازين القوى، فإنّ هناك «قوةً ما» تجعلُ كفةَ القلة ترجحُ على كفةِ الكثرة فتغلبها.. كما قال تعالى: ﴿كَمْ مِّن فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَتُهَا كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩]. ولئن قال قائل: إنما

هي مجردُ صدفة.. فَإِنَّ ما أثبتهُ التاريخُ من تكرارها مرارًا، لا يتوافقُ مع تصنيفها كصدفٍ عشوائيةٍ..

وإنَّ من يدرسُ حياةَ الأنبياءِ، وسيرَ المصلحين، ويتأملُ في كيفية سقوطِ الجبابرةِ، ومصارعِ الطُّغاةِ، ونهايةِ الظُّلَمَةِ، يجرُمُ أنَّ هناكَ قوةً خفيةً تتدخلُ لكي تحفظَ التوازنَ، وتنصرَ المظلومَ، وتُعاقِبَ الظَّالِمَ، وتُديرَ هذا الكونَ بحكمةٍ بالغةٍ.. ويُدرِكُ أنَّ للكونِ قانونًا غيرَ مرئيٍّ لكنه لا يقلُّ حضورًا وتأثيرًا عن قانونِ الجاذبيةِ، إنه قانونٌ يحكمُ قيامَ الأممِ وسقوطها، ويميلُ بالكفةِ -ولو تأخر- لصالحِ المظلومِ، ويجعلُ نهايةَ الباطلِ وهلاكهُ حتميًا، ولو بدا عظيمًا منيعًا في وقتٍ من الأوقات.. إنه «قانونُ العدالةِ المؤجلة».. الذي لخصهُ بعضُ الفلاسفةِ بقوله: «عجلةُ العدالةِ وإن كانت تدورُ ببطءٍ، لكنها لا تتوقفُ أبدًا»..

وإذا بحثنا عن تفسيرٍ موضوعيٍّ لهذه القوانينِ الأخلاقيةِ والتاريخيةِ، فلن نجدَ في المنهجِ الماديِّ المحضِ ما يشفي الغليل.. على الرغمِ من أن الإنسانَ لا يحتاجُ إلى مُعجزةٍ خارقةٍ ليشعرَ بأنَّ الأمورَ تسيرُ باتجاهٍ مُعاكسٍ لما هو مُتوقعٌ.. وأن هناكَ واقعًا يُفرضُ فرضًا لينصرَ المستضعفينَ رغمَ قتلهم وضعفهم، ويهلكَ الطُّغاةَ

رغم كثرتهم وقوتهم..

مما يبين بوضوح: أَنَّ هناك ما هو وراء المادة، وما فوق التوازنات والمصالح.. هناك قوة خفية تُمسك بخيوط الأحداث من وراء الستار، وتُهيئ للحق انتصاره، وللباطل نهايته، وللأمم مصائرهما؟.. هناك «عدالةٌ عليا» تُدير هذا العالم بكل حكمة واقتدار.. ربما كان من الصعب إثبات هذا بالمعادلات، لكن القلب حين يتجرد، والعقل حين يتأمل، فإن كليهما يقول: ما من شيء في الكون يجري عبثاً، والنهايات مرتبطة بالمقدمات، والتاريخ كله دروس وحكم ودلالات..

ولئن أنكر البعض وجود الخالق جلَّ وعَلا، فإنَّ التاريخ لا يُنكره، ولئن جحدوا آثار ربوبيته، فإنَّ تقلبات الزمان تُبرزها بوضوح، ولئن غفلت بعض القلوب، فإنَّ مصارع الطغاة تُوقظها من سكرتها.. ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [النمل: ٦٩]..

ومتى تجرد الإنسان وأصغى لصوت الفطرة في داخله.. فسيجد أنَّ كلَّ الشواهد، وكلَّ السُّنن، وكلَّ الوقائع تصرخ في وجه الغفلة: كفى فإنَّ لهذا الكون رباً عظيماً، لم يخلق خلقه سُدى، ولم يتركهم هملاً، بل أرسل إليهم رُسلًا، وأنزل معهم كُتبًا، وزين في قلوبهم

الإيمان.. وإنك لترى في كل حضارة آثار عبادة، وفي كل أمة بقايا دعوة، وفي كل نفس توقفاً إلى العدل والجمال والحق.. فهل كل هذا من عبث المصادفة؟.. أم هي البصمة الخالدة لرب عظيم، أودع نورها في الفطر، وخلدها في ضمير الإنسان، وبثها في ربوع الكون، وكررها في أحداث التاريخ.. ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]..

وهكذا فإن التاريخ ليس مجرد وقائع باردة، بل هو دليل حي متجدد على وجود الإله ورحمته، وعدله وحكمته.. وأنه حي قيوم لا يغفل ولا ينسى، له سنن ربانية لا تتخلف، وقانون سماوي منصف.. يتسلل بلطف وحكمة، لينصر الحق وأهله، ويدير الدائرة على الباطل وأهله.. ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١]..



الباب الثالث:

أدلة الإعجاز في القرآن والسنة..

المعجزة أمرٌ خارقٌ لنواميس الكون، وفوق قدرة البشر، يؤيد الله بها أنبياءه ورسله، ويتحدى بها كل من كذبهم، ويدلّل بها على صدقهم.. في صحيح البخاري، قال ﷺ: «ما من الأنبياء نبيٍّ إلا أُعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أُوتيت وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»..

وحيث إنّ جميع الأنبياء السابقين بُعثوا لأقوامهم فقط؛ لذا فقد أيّدهم الله تعالى بمعجزاتٍ (مؤقّته)، أمّا محمدٌ ﷺ، فقد بُعث للناس كافةً، ولا نبيّ بعده، ولذا فمعجزته ﷺ باقيةٌ إلى قيام الساعة، تجعل كل من يطلّع عليها بتجردٍ يُسلم أنّ هذا الكتاب حقٌّ من عند الله عزّ وجلّ، وفي القرآن العظيم والسنة النبوية أنواعٌ كثيرةٌ من أوجه الإعجاز والدلائل المتنوعة التي تُثبت أنّ هذا الدين من عند الله، وفيما يلي نذكر بالتفصيل عشرة أدلة من أدلة إعجاز القرآن الكريم والسنة المطهرة:



الدليل الإعجازي الأول: الإعجاز البياني..

القرآن العظيم: كتابٌ مُذهِلٌ.. ﴿كَتَبْنَا أَحْكَمَ آيَاتِهِ ثُمَّ فَضَّلْنَا مِنْ لَدُنْ

حَكِيمٍ خَيْرٍ﴾ [هود: ١]..

القرآن الكريم: كتابٌ مبهر، غزير المعاني، واسع المضمون، بليغ الأسلوب، متين الحبك والتركيب، قوي الوقع والتأثير، قريب الفهم والاستيعاب، سهل الحفظ والتذكر، جميل النعمة والجرس، تراح النفوس لسماعة، وتنشرح الصدور بتلاوته، وتطمئن القلوب بترداده.. ﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَبِّهًا مَثَانِي نَقْشَعُرٍ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣]..

ولقد تحدّى الله تعالى بهذا القرآن العظيم الإنس والجن مجتمعين، فقال تعالى: ﴿قُلْ لِّينِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]، وقال جلّ وعلا: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ أَسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٣٨].. هكذا تحدّى القرآن العظيم خصومه.. حيث جاءهم بأسلوب بياني مُذهِل، لم يعهدوه من قبل، فلا هو كقصائد الشعراء، ولا هو كرتانة الكهان

والحكماء، ولا هو كسجع الخطباء والأدباء.. ومن ثمَّ فقد بهرهم به
وحيرهم، وأعجزهم وأفحمهم، حتى إنَّ خبراء اللغة منهم وصفوه
بأوصافٍ عجيبةٍ، فقالوا: «إنَّ لكلامه لحلاوة، وإنَّ عليه لطلاوة، وإنَّ
أعلاه لمثمر، وإنَّ أوسطه لمشرق، وإنَّ أسفله لمغدق، وإنَّه ليعلو
ولا يُعلو عليه، وما هو بكلام بشرٍ».. فيا لله العجب، كيف يصفون
القرآن بهذه الأوصاف المذهلة وهم ألدُّ أعدائه؟! وكيف لخصوم
بلغوا الغاية في العداوة، وكانوا أحرص ما يكونون على صدِّ النَّاسِ
عن دين الله بأيِّ طريقةٍ كانت، ثمَّ يتحداهم القرآن بذلك التَّحدي
السَّافر، وفي صميم ما يبرعون فيه ويتفوقون، ويستفز قريحة البُلغاء
منهم وغير البُلغاء، ويتحداهم فرادى ومجتمعين أن يأتوا بمثله، وقد
كان فيهم الكثير من أصحاب البلاغة والبيان السَّاحر.. وعلى الرغم
من طول العهد وتطول الزمان، واشتتار الأمر بين الجميع، إلا أنهم
ظلوا عاجزين على مرِّ السنين، مُجلَّلين بالحيرة والذهول، لا
يستطيعون رغم حِرصهم الشديد أن يفعلوا ضدهُ أيَّ شيء.. وهكذا
فقد ظلَّ العربُ جميعاً.. بل وكلُّ من وصله هذا التَّحدي، ظلُّوا
عاجزين عن مُعارضته، يتهربون من مواجهته.. حتى بعد أن نزل
التَّحدي إلى سورةٍ واحدة، فقد قال لهم القرآن: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ
مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ۚ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ

كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿البقرة: ٢٣﴾، ثم تحدّاهم بقوله: ﴿لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾.. يقول الألوسي رَحِمَهُ اللَّهُ: «فلم ينطق أحدٌ منهم إلى يومنا هذا ببنت شفةٍ، ولا أعربَ عن موصوفٍ أو صفةٍ، لقد أظهر الكلُّ عجزهم التّامَّ عن المعارضة في كلِّ وقتٍ وحين، بل وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهو خيرُ الوارثين»..

لسانُ حالهم: إذا كُنّا سنحاربُ محمداً ودينه، فليس أماننا إلا اللغو والتّشويشُ على القرآن، وصدُّ النَّاسِ عن سماعه، وتجميعُ الجيوشِ الضّخمةِ لمحاربةِ أتباعه ودُعائه، هذا هو مبلغُ جهدنا، وأقصى ما في وسعنا: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].. أمّا مُعارضةُ القرآنِ للإتيانِ بشيءٍ من مثله، فأمرٌ مُعْجَزٌ لا طاقةَ لنا به ولا قدرةً..

وهكذا، فإنَّ إعجازَ القرآنِ البياني، وتحديه المفتوح المتجدد، لا يمكنُ أن يُفسَّرَ إلا بأنه كتابٌ من عند الله تعالى، وأنه برهانٌ ساطعٌ على صدق الرسالة المحمدية.. وصدق الله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ [الزمر: ٤١]..



الدليل الإعجازي الثاني: سطوة القرآن وقوة تأثيره..

سطوة القرآن وقوة تأثيره على النفوس دليل من أعظم أدلة صدقه وإعجازه، فقد جمع بين روعة البلاغة، وقوة التأثير والجاذبية، بما لا يوجد له نظير في كلام البشر.. فما من كتاب يمكن أن يُحرّك كوامن النفس، ويستثير العقل والقلب، كما يفعل القرآن، لا سيما إذا قُري بتمعنٍ وتدبرٍ، أو سُمعَ بإنصاتٍ وخشوعٍ، يقول الإمام الأصفهاني رَحِمَهُ اللهُ: «إِنَّ مِنْ إعجاز القرآن صنيعة بالقلوب، وتأثيره في النفوس، فإنك لا تسمع كلامًا غير القرآن منظومًا ولا مثورًا، إذا قرع السمع ووصل إلى القلب، كان له من اللذة والحلاوة من جهة، والروعة والمهابة من جهة أخرى، حتى تقشعر منه الجلود، وتوجل له القلوب، وتفيض منه العيون».. قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣].. وقال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانٍ نَقْشَعُرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣]..

فالقرآن العظيم: كتابٌ عجيبٌ، ذو قوة مؤثرة، وسطوة قاهرة

ظاهرةً بينةً: فما من أحدٍ يسمعهُ بإنصاتٍ وانتباهٍ، إلا خضعَ لتأثيره
وسُلطانه، وذُهِلَ من قوته وروعةِ بيانه.. فما من شيءٍ أعظمَ وقعًا في
النفوس، ولا أشدَّ سُلطانًا على القلوب، ولا أبلغَ أثرًا في الأرواح من
هذا القرآن: ﴿لَوْ أَنزَلْنَاهُ هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَشَعًا مُّتَصِدِّعًا مِّنْ
خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١]..

ولقد تبَيَّنَ لكفار قريشٍ ما للقرآن العظيم من وقعٍ قويٍّ، وتأثيرٍ
كبيرٍ على كلِّ من يسمعهُ بإنصاتٍ، ولذا فقد كانوا يخافونَ من تأثيره
عليهم وعلى نسائهم وأولادهم، فكانوا يقولون لبعضهم: ﴿لَا تَسْمَعُوا
هَذَا الْقُرْآنَ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].. وكان السادةُ منهم
يمنعونَ أتباعهم من الاستماع للقرآن، كما كانوا يؤذونَ من يجهُرُ
بالقرآن من المسلمين، ويحاولونَ منعهُ ولو كان يقرأ في فناء داره..
والشواهدُ الفرديةُ والجماعيةُ على قوة تأثير القرآنِ وسطوتهِ كثيرةٌ
ومتنوعة..

فهذا عتبةُ بن ربيعة وهو زعيمٌ من أكبر زعماءِ قريشٍ، جاءَ لكي
يجادلَ الرسولَ ﷺ، فلمَّا سمعَ منه مطلعَ سورةِ فصلت، تأثرَ ورجعَ
إلى قريشٍ قائلاً: «لَقَدْ سَمِعْتُ قَوْلًا مَا سَمِعْتُ مِثْلَهُ قَطُّ، يَا مَعْشَرَ
قُرَيْشٍ أَطِيعُونِي وَاجْعَلُونِي بِي، خَلُّوا بَيْنَ الرَّجُلِ وَمَا يَرِيدُ، فَوَاللَّهِ

ليكوننَّ لكلامه شأنٌ، قالوا: سحرك وربُّ الكعبة»..

وهكذا جُبَيْرُ بْنُ مُطْعِمٍ وهو سيّدٌ من سادات مكة، جاء إلى المدينة ليفاوضَ في أسرى بدرٍ، ومنهم ولدهُ، فوصلَ المسجد النبوي والمسلمونَ في صلاة المغرب، فسمعَ النبي ﷺ يقرأُ بِسُورَةِ الطُّورِ، يقول: فلما بلغَ قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَلْقُوتُ﴾ [الطور: ٣٥]، قال جُبَيْرُ: «كاد قلبي أن يطير»..

وهكذا الوليدُ بن المغيرة، كبيرُ مكة وحكيمُها المفوّه، حين اختاروه ليفاوضَ النبي ﷺ، ويعرضَ عليه بعض العروضِ المغرية، فلما رجعَ إلى أصحابه قال لهم: والله إنَّ لقوله لحلاوةً، وإنَّ عليه لطلاوةً، وإنَّ أعلاه لمثمرٌ، وإنَّ أوسطه لمشرقٌ، وإنَّ أسفله لمغدقٌ، وإنَّه ليحطمُ ما تحتهُ، وإنَّه ليعلو ولا يُعلَى عليه، ووالله ما هذا بكلام بشر..

ومن أشهر من كان القرآنُ سبباً في إسلامه فاروقُ الأمّة، عمرُ ابن الخطّابِ رضي الله عنه وأرضاه، فقد كان في جاهليته جباراً شديداً، وخصماً عنيداً، وعدواً لدوداً، لكن القرآنَ العظيمَ حوله إلى جبلٍ من جبال الإسلام لا يجاريه أحدٌ، ولا يفري أحدٌ فريه..

وسعدُ بن معاذٍ رضي الله عنه سيّد الأوس وأميرهم المطاع، حينَ علمَ

بما يفعله مُصعبُ بن عمير في أول قدومه للمدينة، حملَ حربته، وأقبلَ مُغضبًا، فلما قرأ عليه مُصعبُ أوائلَ سورة الزخرف، قال من حضرَ المشهد، فوالله لقد عرَفنا الإسلامَ في وجهه قبل أن يُسلم، نعم لقد غيَّرهُ القرآنُ إلى سعدٍ آخر، يهتَزُّ لموته عرشُ الرحمن..

النَّجاشيُّ ملكُ الحبشة، حينَ أسمعهُ جعفرُ بنُ أبي طالبِ آياتٍ من سورة مريم، تحدَّرت دموعه بغزارة، ثم قال: إِنَّ هذا والذي جاءَ به عيسى ليخرجُ من مشكاةٍ واحدةٍ..

أما الشاعرُ الفلسطيني (نقولا يوسف حنا) وهو مسيحيٌّ سابق، فيقول: «قرأتُ القرآنَ فأذهلني، وتعمَّقتُ فيه ففتنتني، ثم أعدتُ قراءته فآمنتُ وأسلمت»..

وأما الإنكليزية عائشة بيرقت، فتقول: «لن أستطيعَ مهما حاولتُ أن أصفَ الأثرَ الذي تركهُ القرآنُ في قلبي، فلم أكد أنتهي من السورة الثالثة حتى وجدتني ساجدةً للخالق العظيم».. وهذا شاعرُ ألمانيا الشهير جوته يقول: «كلَّما قرأتُ القرآنَ، شعرتُ أنَّ رُوحِي تهتَزُّ داخلَ جسمي».. أما البروفيسور البريطاني الشهير مونتغمري، فيقول: «كُلُّ ما تمَّ تدوينه من روائع الكتاباتِ لا يُعدُّ شيئاً في مقابلِ بلاغةِ القرآنِ الكريم».. ويقول المستشرق شومبس: «لم أرَ مثلاً

بلاغة القرآن قطُّ، جملةٌ واحدةٌ منه تُغني عن مؤلَّفاتٍ.. وفي كتابها: دفاعٌ عن الإسلام، تقول: لورا فيشيا فاغليري: «لقد تحدى محمَّدٌ خصومَ الإسلام أن يأتوا بكتابٍ مثل كتابه، أو على الأقلِّ بسورةٍ واحدةٍ من مثل سُورِهِ، وعلى الرغم من أنَّ فيهم الكثيرَ من أصحابِ البلاغةِ والبيانِ السَّاحرِ، فإنَّ أحداً لم يتمكَّن من أن يأتي بأيِّ أثرٍ يُضاهي القرآن، لقد قاتلوه بالأسلحة، وبكل ما وسَّعهم من حيلةٍ، لكنَّهم عجزوا عن مضاهاة السموِّ القرآني نظماً، لقد غلبهم القرآن».. ﴿لَوْ أَنزَلْنَاهَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَشِيعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١]..



الدليل الإعجازي الثالث: الإعجاز العلمي..

الإعجاز العلمي هو سبق القرآن الكريم إلى ذكر عدد كبير من الحقائق الكونية التي يستحيل التعرف عليها دون استخدام أجهزة علمية متقدمة، لم تكن البشرية تملك شيئاً منها وقت نزول القرآن.. مما لا يدع مجالاً للشك في صدق القرآن الكريم، وأنه لا يمكن أن يصدر إلا من عند الخالق العليم جلّ وعلا..

فمثلاً: حين تجاوز رائد الفضاء بمركبته الغلاف الجويّ صاح فجأة: لقد أصبحنا عُمياً لا نرى شيئاً.. فتأمل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ [١٤] لقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ [الحجر: ١٤-١٥].. فهذا إعجاز، لأن القرآن الكريم قد أخبرنا قبل أكثر من ألف عام أن من يصعد إلى الفضاء الخارجي سيجد أنه مظلم تماماً، كمن أغلق عينيه فجأة، والآية تعبر عن ذلك بكل دقة، ﴿سُكِّرَتْ أَبْصَرُنَا﴾ فهي إشارة لحقيقة كونية تؤكد يقيناً أن الذي خلق الأكوان هو الذي أنزل هذا القرآن، وأن الذي جاء بهذا الكتاب هو رسول صادق من عند الله جلّ وعلا، ومؤيد بهذا الإعجاز المتجدد.. فالآيات التي تتحدث عن الحقائق والظواهر الكونية في القرآن الكريم تزيد عن الألف آية، غالب هذا الآيات

وجد أنها تتطابق تمامًا مع الحقائق التي كَشَفَ عنها العلمُ بوسائله الحديثة، والبقية سيُكشَفُ عنها في المستقبل بإذن الله، فالله تعالى يقول: ﴿وَلَنَعْلَمَنَّ نَبَاهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ [ص: ٨٨]..

ثمَّ إِنَّ المتأملَ في هذه الآياتِ يجدُ أنها مُتنوعةُ المواضعِ، ولا تنحصرُ في مجالٍ واحدٍ.. فالقرآنُ الكريمُ قد تحدَّثَ عن نشأة الكونِ بطريقةٍ مذهلةٍ، فأشارَ إلى أنَّ السماواتِ والأرضَ كانتا شيئًا واحدًا ففتقناهما، أي فصلنا بينهما، وهو ما يعرفُ اليومَ بانفجار البداية العظيم، فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ [الأنبياء: ٣٠]، وتحدَّثَ القرآنُ عن توسُّعِ الكونِ فقال: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧].. وتحدَّثَ عن أصلِ الحياةِ فقال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، بل وأشارَ إلى أنَّ السماواتِ كانت في بدايتها دُخانًا، أي غازاتٍ متشرة، فقال: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ [فصلت: ١١]، وأشارَ إلى أنَّ الحديدَ ليس من الأرض وإنما أنزلَ إليها من خارجها فقال: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾ [الحديد: ٢٥].. وعلماءُ اليومِ يؤكدون أنَّ الحديدَ عنصرٌ غريبٌ عن الأرض جاء من خارج المجموعة الشمسية.. كذلك فقد أشارَ القرآنُ إلى الضيق الشديد في طبقات الجو العليا، فقال: ﴿وَمَنْ

يُرِدُّ أَنْ يُضِلَّهُ، يُجْعَلُ صَدْرُهُ ضَيْقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَعُدُ فِي السَّمَاءِ ﴿١٠﴾
 [الأنعام: ١٢٥].. وتحدث عن تدرج ظلمة البحر فقال: ﴿فِي بَحْرِ لُجِّي
 يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ، مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ، سَحَابٌ ظُلُمْتُ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾
 [النور: ٤٠].. وتحدث عن التقاء البحرين واختلاف مائهما رغم
 التلامس، فقال تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١١﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾
 [الرحمن: ١٩-٢٠].. وأشار القرآن العظيم إلى النهايات العصبية في
 الجلد بقوله: ﴿كُلَّمَا نَضَجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء: ٥٦]..
 وإلى الشكل الوتدي للجبال بقوله: ﴿وَالْجِبَالُ أَوْتَادًا﴾ [النبأ: ٧].. بل
 وحدد أخفض نقطة على وجه الأرض فقال: ﴿فِي أَدْنَى الْأَرْضِ﴾
 [الروم: ٣]، وهي منطقة البحر الميت.. وتحدث القرآن عن أطوار
 خلق الإنسان في رحم أمه بطريقة مذهشة، فقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا
 الْإِنْسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِّنْ طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا
 النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا
 الْعِظْمَ لَحْمًا﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤].. وهذا التسلسل الدقيق لم يكن
 معروفًا قط وقت نزول القرآن، فمعلوم أن طريقة تكون الإنسان
 ونشأة خلقه وتناسله كانت لغزًا مبهمًا لقرون طويلة، قبل ظهور
 الرسول ﷺ وبعده، وإلى بدايات القرن التاسع عشر، حين ظهرت

المجاهرُ والعدساتُ المكبرة، فظهرت حقائقٌ ومكتشفاتٌ نسفت كُلياً ما كان قبلها من الآراء والمعتقدات.. حيث كانت نظريةُ الإنسانِ القزمِ هي السائدة، (وهي أنَّ الجنينَ ومنذُ بدايةِ تكوُّنِه في الرحم كان بنفسِ الشكلِ ولكن بصورةٍ مصغرةٍ جداً، ثم أخذَ يكبرُ ويتضاعفُ حجمه طوَالَ فترةِ الحمل).. وبالطبع فإنَّ أحداً لم يكن يعرفُ أيَّ شيءٍ عن أطوارِ الجنين: (النطفة ثمَّ العلقة ثمَّ المضغة... إلخ) حتى ظهرت الوسائلُ والآلاتُ الحديثة.. فكيف عرفَ النبي ﷺ هذا اللغزَ الكبير، وبكلِّ تلك الدقة العجيبة؟.. وكيف له أن يأتيَ بآراءٍ يخالفُ فيها كلَّ ما كان سائداً في عصره، بل واستمرَّ جميعُ علماءِ الطبِّ على خلافه حتى القرنِ الماضي.. فكيفَ لرجلٍ أميٍّ لا يقرأ ولا يكتبُ، أن يأتيَ بكلِّ هذه الحقائقِ المدهِشة؟..

والجوابُ: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].. والقائلُ سبحانه: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].. وقال تعالى أيضاً: ﴿وَلَنَعْلَمَنَّ نَبَاهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ [ص: ٨٨]..



الدليلُ الإعجازيُّ الرابع: الإعجازُ التشريعيُّ..

المتأملُ في التشريع الإسلامي (المبني على أحكام القرآن والسُّنة)، يرى أنه قد بلغَ الغايةَ في الشمول والكمال، وفي الصِّلاح والإصلاح، وفي الحُسْن والجودة والدقة والإتقان، وأنه جاءَ بنظامٍ تشريعيٍّ وأخلاقيٍّ وتربويٍّ مُتكامِلٍ، يستحيلُ أن يكونَ صادرًا عن بشرٍ، مهما أوتي من الذكاء والثقافة، فكيف برجلٍ أُمِّيٍّ، نشأ وترعرعَ في بيئةٍ أُمِّيَّةٍ بدويةٍ جاهليَّةٍ متخلفة..

فالتَّشريعُ الإسلاميُّ تشريعٌ مُذهِلٌ مُتكامِلٌ، ذو نظامٍ متوازنٍ وشاملٍ، أساسُهُ الإيمانُ والعقائدُ والأعمالُ الباطنةُ التي تعمُرُ القلبَ.. وأركانُهُ العباداتُ والأعمالُ الظَّاهِرةُ التي تَصِلُ العبدَ بالرَّبِّ.. وسِياجُهُ المحكمُ القيمُ والشَّرائعُ التي تضبطُ السُّلوكَ، وتحميُ الحقوقَ، وتمنعُ الظُّلمَ، وتُنظِّمُ كُلَّ أمورِ الحياة.. إِنَّهُ منهجٌ شاملٌ مُتكامِلٌ، يُعرِّفُ النَّاسَ بخالقهم، ويبيِّنُ حقَّه العظيمَ عليهم، ويُغذي أرواحهم وعقولهم، ويرتقي بأخلاقهم، ويضبطُ علاقاتهم، ويحكمُ باطنهم وظاهرهم، وسائرَ شؤونِ حياتهم، ويُحقِّقُ المصالحَ بأعلى قدرٍ، ويدركُ المفاسِدَ لأدنى حدٍ، ويضمَّنُ لمن استقامَ عليه الحياةَ الآمنةَ المستقرَّةَ، والسَّعادةَ والطمأنينة..

والأدلة على أَنَّ الإسلامَ حقٌّ من عندِ الله تعالى، أدلةٌ كثيرةٌ.. أولها: أَنَّ كلَّ شرائعِ البشرِ لم تأتِ إِلَّا بَعْدَ اكْتِمَالِ حضارتها، وتَطورِ مُجتمعها، أمَّا الإسلامُ فقد اكتمَلَت شريعتهُ قَبْلَ أَنْ تَبْدَأَ حَضَارَتُهُ، وَكَانَ وَلَا يَزَالُ ثَابِتًا مَحْفُوظًا بِحِفْظِ اللَّهِ، لَمْ يَتَغَيَّرْ فِيهِ شَيْءٌ..

لنتأمل جيداً: فَإِنَّ من الأمورِ البدهيَّةِ عندَ عُلماءِ القانونِ والاجتماع، أَنَّ آخَرَ مَا يُتَوَجَّعُ بِهِ تَقَدُّمُ يَّ أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ هُوَ وَضْعُ الدِّسَاتِيرِ الْقَانُونِيَّةِ وَالتَّشْرِيعِيَّةِ (خصوصاً إِذَا كَانَتِ الْأُمَّةُ مُتَخَلِّفَةً حَضَارِيًّا).. فَظُهُورُ قَانُونٍ مُتَكَامِلٍ فِي أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ، هُوَ الذَّرْوَةُ الْعُلْيَا لِتَقَدُّمِهَا الْحَضَارِيِّ، وَلَيْسَ الْعَكْسُ؛ فَالْأُمَّةُ النَّاشِئَةُ الَّتِي لَمْ تَتَقَدَّمْ حَضَارِيًّا، لَيْسَ فِي حَيَاتِهَا مِنَ التَّعْقِيدِ مَا يَجْعَلُهَا تَحْتَاجُ لَوْضَعِ دَسْتُورٍ يُنْظِمُ مَجْتَمَعَاتِهَا، وَيَضْبِطُ أَوْضَاعَهَا، وَلَكِنَّهَا تَشْعُرُ بِالْحَاجَةِ لَذَلِكَ كُلَّمَا تَوَسَّعَتْ وَتَقَدَّمَتْ حَضَارِيًّا، وَازْدَادَ تَرْكِيبُهَا الْاجْتِمَاعِي تَعْقِيدًا.. لَكِنَّ الَّذِي حَصَلَ فِي الْإِسْلَامِ، كَانَ الْعَكْسَ تَمَامًا، فَقَدْ خَرَجَ فِي تِلْكَ الْبَيْئَةِ الْبَدَائِيَّةِ قَانُونٌ مُتَكَامِلٌ، يَتَنَاوَلُ الْحَقُوقَ الْمَدْنِيَّةَ، وَالْأَحْوَالَ الشَّخْصِيَّةَ، وَالْأَخْلَاقَ الْعَامَةَ، وَيَرَسِّمُ صُورَةَ الْعِلَاقَاتِ الدَّوْلِيَّةِ، وَيَحْدُدُ نِظَامًا لِلْحَرْبِ وَالسَّلَامِ، وَنِظَامًا لِلْعِلَاقَاتِ الْمَالِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ، وَغَيْرَهَا مِنْ مَجَالَاتِ الْحَيَاةِ وَأَنْشِطَتِهَا، لِشَكْلِ فِي مَجْمُوعِهِ تَشْرِيعًا

مُتَكَامِلًا لَا يَتْرُكُ مِنْ أُمُورِ الْحَيَاةِ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا عَالَجَهَا وَنَظَّمَهَا، وَكُلُّ ذَلِكَ تَمَّ فِي وَقْتٍ لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ يَعْرِفُ شَيْئًا عَنْ مَعْنَى الْمَجْتَمَعِ الَّذِي يَحْتَاجُ إِلَى قَانُونٍ، بَلْ إِنَّ الْمَجْتَمَعَ بِمَعْنَاهُ الْحَدِيثَ لَمْ يَكُنْ قَدْ تَكُونَنَ بَعْدُ.. وَهَذَا وَاللَّهُ مِنْ أَكْبَرِ الْأَدِلَّةِ عَلَى أَنَّ الْإِسْلَامَ حَقٌّ، وَأَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى..

كَمَا أَنَّ مِنْ أَقْوَى الْأَدِلَّةِ عَلَى أَنَّ الْإِسْلَامَ حَقٌّ، وَأَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى: ثُبُوتَ صِلَاحِيَّتِهِ وَجِدَارَتِهِ فِي إِدَارَةِ حَيَاةِ النَّاسِ بِصُورَةٍ مِثَالِيَّةٍ، فَمَا مِنْ مُجْتَمَعٍ يَطْبُقُ التَّشْرِيعَ الْإِسْلَامِيَّ تَطْبِيقًا صَحِيحًا، إِلَّا سَعَدَ وَازْدَهَرَ، وَأَمِنَ وَاسْتَقَرَّ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ أَتَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه: ١٢٣].. وَقَدْ حَكَمَتِ الشَّرِيعَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ أَمَاكِنَ شَاسِعَةً، وَأَقْطَارًا وَاسِعَةً، وَأَجْنَاسًا شَتَّى مِنَ الْبَشَرِ، وَلَأَزْمَنَةً عَدِيدَةً، وَقُرُونًا مَدِيدَةً، نَعِمُوا خِلَالَهَا بِالْعَدْلِ وَالْأَمْنِ وَالطَّمَأْنِينَةِ، وَعَاشُوا عِيشَةً هَانِيَةً كَرِيمَةً.. وَكَذَلِكَ فَإِنَّ مِنْ أَقْوَى الْأَدِلَّةِ، دُخُولَ النَّاسِ فِي الْإِسْلَامِ أَفْوَاجًا، وَعَنْ طَوَائِعِيَّةٍ وَاقْتِنَاعٍ، ثُمَّ ثَبَاتِهِمْ عَلَيْهِ، حَتَّى أَصْبَحَ الْإِسْلَامُ الْيَوْمَ هُوَ الدِّينَ الْأَسْرَعَ انْتِشَارًا، وَالْأَكْثَرُ قَبُولًا..

كَمَا أَنَّ مِنْ أَقْوَى الْأَدِلَّةِ عَلَى أَنَّ الْإِسْلَامَ حَقٌّ، وَأَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى: انْفِرَادُهُ بِخَصَائِصٍ وَمَزَايَا فَرِيدَةٍ.. مِنْهَا:

أَنَّهُ مِنْهَجٌ شَامِلٌ مُتَكَامِلٌ، فَهُوَ عَقِيدَةٌ وَشَرِيعَةٌ، وَفَكْرٌ وَسُلُوكٌ، وَعِلْمٌ وَتَرْبِيَةٌ، وَدِينٌ وَدَوْلَةٌ، وَدُنْيَا وَآخِرَةٌ، قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَيِّدُنَا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]..

وثَانِيًا: أَنَّهُ مِنْهَجٌ ثَابِتٌ، لَا يَتَغَيَّرُ وَلَا يَتَبَدَّلُ، صَالِحٌ لِكُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ وَفِتْنَةٍ.. سَالِمٌ مِنَ التَّنَاقُضِ وَالتَّقْصِ وَالْخَطَا وَالْهَوَى، قَائِمٌ عَلَى أَسَاسِ الْعَدْلِ الْمَطْلُوقِ، وَالْحَقِّ الْخَالِصِ، وَالرَّحْمَةِ التَّامَّةِ..

وثَالِثًا: أَنَّهُ سَهْلُ الْفَهْمِ وَالتَّصَوُّرِ، مُعْتَدِلُ الْمَنْهَجِ، ميسُورُ التَّكَالِيفِ، يَتَلَاءَمُ مَعَ الْفِطْرَةِ السَّلِيمَةِ، وَيَتَوَافَقُ مَعَ الْعَقْلِ وَالْمَنْطِقِ، وَيَدْعُو إِلَى كُلِّ فَضِيلَةٍ، وَيَنْهَى عَنِ كُلِّ رَذِيلَةٍ، وَيُوزِنُ بَيْنَ الْمَثَالِيَةِ وَالْوَاقِعِيَةِ، وَيَبِينُ مُتَطَلِبَاتِ الرُّوحِ وَالْجَسَدِ، وَبَيْنَ الْعَمَلِ لِلدُّنْيَا وَالْعَمَلِ لِلْآخِرَةِ..

ورَابِعًا: أَنَّهُ دِينُ السَّعَادَةِ وَطُمَأْنِينَةِ الْقَلْبِ، وَسَكِينَةِ النَّفْسِ، وَانْشِرَاحِ الصَّدْرِ، وَهَذَا مَا يَقُولُهُ كُلُّ مَنْ دَخَلَ فِي الْإِسْلَامِ حَدِيثًا..

وَخَامِسًا: أَنَّهُ دِينُ الرَّحْمَةِ وَالتَّيْسِيرِ، فَالضَّرُورَاتُ تُبِيحُ الْمَحْظُورَاتِ، وَالْحَرْجُ مَرْفُوعٌ عَنِ النَّائِمِ وَالنَّاسِي وَالْمُكْرِهِ، وَ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]..

وسادسًا: أَنَّهُ دِينُ النَّظَامِ وَالانضباطِ، يَضْبُطُ حَيَاةَ الْمُسْلِمِ وَعَمَلَهُ، وسائر أنشطته وأُمُورِهِ..

وسابعًا: أَنَّهُ دِينُ الْمَحَبَّةِ وَالْإِخَاءِ، يَبْنِي عِلَاقَاتِ التَّوَاصُلِ، وَيَأْمُرُ بِرِّ الْوَالِدَيْنِ، وَصِلَةِ الْأَرْحَامِ، وَاحْتِرَامِ الْكَبِيرِ، وَتَوْقِيرِ ذَوِي الْفَضْلِ وَالسُّلْطَانِ، وَالسَّلَامِ عَلَى مَنْ عَرَفَتْ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ، وَالْإِحْسَانِ إِلَى الْجِيرَانِ، وَمُسَاعَدَةِ الْمَحْتَاجِينَ، وَالتَّعَاوُنِ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى..

وثامنًا: أَنَّهُ دِينُ الْعَدْلِ وَالْمَسَاوَةِ، فَلَا عُنْصَرِيَّةَ، وَلَا طَائِفِيَّةَ، وَلَا طَبَقِيَّةَ وَلَا قَوْمِيَّةَ، الْكُلُّ فِي الْإِسْلَامِ سَوَاسِيَّةٌ، يُؤَكِّدُ ذَلِكَ وَيُؤَصِّلُهُ، شَعَائِرُ تَعْبُدِيَّةٍ جَمَاعِيَّةٍ مُتَنَوِّعَةٌ كَالصَّلَاةِ وَالْحَجِّ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]..

وتاسعًا: أَنَّهُ دِينُ الذَّوْقِ وَالْجَمَالِ، وَدِينُ الْأَخْلَاقِ الرَّاقِيَةِ، وَالْآدَابِ الرَّفِيعَةِ، كَالْبَشَاشَةِ وَالتَّبَسُّمِ وَالْقَوْلِ الطَّيِّبِ، وَإِدْخَالِ السُّرُورِ عَلَى الْآخَرِينَ، وَإِمَاطَةِ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَكَالنِّظَافَةِ وَالطَّهَارَةِ وَالْإِغْتِسَالِ، وَالتَّطْيِيبِ وَالتَّجْمُلِ، وَالْوُضُوءِ لِكُلِّ صَلَاةٍ..

وعاشرًا: أَنَّ الْإِسْلَامَ يُعْظِمُ حُقُوقَ الْإِنْسَانِ وَيُرَاعِيهَا، وَيَكْفُلُ لِكُلِّ إِنْسَانٍ حُقُوقَهُ الْعَامَّةَ، وَحُرِّيَّتَهُ الْمُنْضَبَطَةَ، وَالْعِيشَ بِكَرَامَةٍ

وخصُوصية..

وحادي عشر: أنَّ الإسلام يُبيح الطَّيِّباتِ، وكُلَّ ما كانَ نفعُهُ أكبرَ من ضرِّهِ، تحقيقًا للمصلحة، ويحرِّمُ الخبائثَ، وكُلَّ ما كانَ ضرُّهُ أكبرَ من نفعِهِ، حفظًا للدينِ والنَّفْسِ والعقلِ والعرضِ والمالِ..

وثاني عشر: أنَّ الإسلامَ يجيبُ عن الأسئلة الوجودية إجاباتٍ شافيةً كافيةً، (من أين جئنا، وإلى أين نمضي، ولماذا نحن موجودون في هذه الحياة).. كما أنَّه يجيبُ عن كُلِّ ما يتعلَّقُ بالخالقِ وحِكمَتِهِ، أو نشأة الكونِ ونهايته، أو عالمِ الغيبِ وحقيقته، أو الموتِ والبرزخ وما بعده..

إلى غير ذلك من مميزات التشريع الرباني الحكيم..

ومن ظنَّ أنَّ في الأمر مبالغةً أو تجاوزًا، فهاهم عباقرة القانونِ (أفرادًا ومؤسسات) كانوا وما زالوا يجتهدونَ منذُ أمدٍ بعيدٍ، بحثًا عن منهجٍ يحكِّمُ حياةَ الناسِ ويضبطُ أمورهم، وتنصلِّحُ به أحوالهم، يبدؤُ السَّابِقُ ويبني على نتائجه اللاحق، ولكنهم جميعًا عجزوا عن ذلك وفشلوا فشلًا ذريعًا، فلا يُرَقَّعونَ جانبًا إلا انفتقَ عليهم الآخر، ولا يُصلحونَ طرفًا إلا بفسادِ طرفٍ آخر، وهذا واقعهم المتخبطُ

اقتصاديًا، والمتفكك اجتماعيًا، والمتهمل أمنياً، والمضطرب نفسياً يشهد بذلك، بينما تاريخ الإسلام بطول زمانه، وكثرة دوله، وتنوع مجتمعاته، واختلاف بيئاته، يشهد أن ما جاء به النبي ﷺ من تشريع وقضاء، ليس بشري المصدر؛ وإنما أوحاه إليه الخالق العظيم، العالم الخبير بخلقه، وبما يصلحهم وما يصلح لهم.. القائل: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]..



الدليل الإعجازي الخامس: الإعجاز الغيبي

وهو إخبار القرآن والأحاديث الصحيحة بأمور ستقع في المستقبل، فتقع كما أخبر.. كما في قصة أبي لهب، الذي كان هو وزوجته يكرهان الإسلام كرها شديداً، وكانا على استعداد لأن يفعلوا أي شيء يصد الناس عن دين الله، فقد كان أبو لهب يسير خلف النبي ﷺ ويقول للناس: أنا عمه وأعلم الناس بحاله، لا تصدقوه فإنه كاذب، فيقول الناس: نعم عمه أعلم به، وكانت زوجته أبي لهب شاعرة، تعلن تكذيب الرسول في شعرها.. والعجيب أنه قبل وفاة أبي لهب باثنتي عشرة سنة كاملة، نزل في القرآن خبر قاطع أنه هو وزوجته سيذهبان للنار، أي أنهما سيموتان كافرين ولن يدخلوا في الإسلام.. ولقد كانت فرصة سانحة لهما أن يهدما دين الإسلام في لحظة، فقد كان بإمكان أي منهما أن يعلن إسلامه أمام الناس ولو كذباً، وبذلك يثبت كذب القرآن.. ولكن ذلك لم يحدث أبداً، ولأكثر من عشر سنوات.. ولا تفسير لهذا إلا أنه وحي من الخبير العليم، الذي يعلم أن أبا لهب وزوجته لن يسلما أبداً، لا صدقاً ولا ادعاءً..

وأما الأحداث والوقائع وعلامات الساعة التي أخبر المصطفى

ﷺ أنها ستقع في المستقبل، فهي أحداث كثيرة جداً، ومتنوعة جداً، وعلى فترات زمنية مختلفة جداً، وهي من أقوى الأدلة على صدق الرسول ﷺ وأن ما جاء به هو حقاً من عند الله جلَّ وعلا..

❖ **فمن تلك الأحداث والعلامات:** ما جاء في صحيح البخاري، عن عوف ابن مالك رحمته الله قال: أتيت النبي ﷺ في غزوة تبوك وهو في قبّة من آدم، فقال: «اعْدُدْ سِتّاً بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ: مَوْتِي، ثُمَّ فَتْحُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، ثُمَّ مَوْتَانِ يَأْخُذُ فِيكُمْ كَقُعَاصِ الْغَنَمِ، ثُمَّ اسْتِفَاضَةُ الْمَالِ حَتَّى يُعْطَى الرَّجُلُ مِئَّةَ دِينَارٍ فَيَظُلُّ سَاخِطاً،...» إلى آخر الحديث، ففتح بيت المقدس ثم في عهد عمر بن الخطاب رحمته الله، في العام الخامس عشر للهجرة.. والموتان كقُعَاصِ الْغَنَمِ، هو طاعون عمواس الذي حدث في العام الثامن عشر للهجرة، حيث مات منه أكثر من خمسة وعشرين ألفاً من الصحابة والتابعين، من بينهم أمين هذه الأمة أبو عبيدة عامر بن الجراح، ومعاذ بن جبل، وسهيل بن عمرو، وغيرهم كثير رحمته الله أجمعين»..

❖ **ومن الأحداث والعلامات:** إخباره ﷺ بمقتل كبار الصحابة كعمر وعثمان وعليّ وعمرار وغيرهم رحمته الله، وإخباره ﷺ بمعركة الجمل.. فقد جاء في «صحيح مسلم»، أن النبي ﷺ قال: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَقْتَلَ فِتْنَانِ عَظِيمَتَانِ، وَتَكُونُ بَيْنَهُمَا مَقْتَلَةٌ عَظِيمَةٌ

وَدَعَوَاهُمَا وَاحِدَةً».. وهذا ما جرى في سنةٍ ستٍ وثلاثين للهجرة، وكانت بين علي بن أبي طالب وجمعٍ من الصحابة على رأسهم طلحة والزبير وأُمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنهم أجمعين، وقد راح ضحية هذا الخلاف عددٌ كبيرٌ جدًا من الطرفين يُقدرُ بعشرة آلافٍ من المسلمين..

❖ **ومن الأحداث والعلامات:** إخباره ﷺ بفتنة الخوارج، فعَن سُؤَيْدِ بْنِ غَفَلَةَ، قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «سَيُخْرِجُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ قَوْمٌ أَحْدَاثُ الْأَسْنَانِ سُفَهَاءُ الْأَحْلَامِ، يَقُولُونَ مِنْ خَيْرِ قَوْلِ الْبَرِيَّةِ، يَفْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمُرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمُرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ؛ فَإِنَّ فِي قَتْلِهِمْ أَجْرًا لِمَنْ قَتَلَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، متفقٌ عليه..

❖ **ومن الأحداث والعلامات:** ما جاء في البخاري وغيره عن أبي بكرة نفيح بن الحارث، قال: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ، عَلَى الْمِنْبَرِ وَالْحَسَنُ إِلَى جَنْبِهِ، يَنْظُرُ إِلَى النَّاسِ مَرَّةً وَإِلَيْهِ مَرَّةً، وَيَقُولُ: «ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ، وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِتْنَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ».. وهو الصلح الذي حصلَ بينه وبين معاوية وتنازل فيه عن الحكم لمعاوية رحمته الله..

❖ **ومن الأخبار والعلامات:** إخباره بزوال دولتي فارس والروم،

ففي صحيح البخاري، قال ﷺ: «إِذَا هَلَكَ كِسْرَى فَلَا كِسْرَى بَعْدَهُ، وَإِذَا هَلَكَ قَيْصَرٌ فَلَا قَيْصَرَ بَعْدَهُ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَنْفَقَنَّ كُنُوزُهُمَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ»..

❖ **ومن الأحداث والعلامات:** ما جاء في الحديث الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَخْرُجَ نَارٌ مِنْ أَرْضِ الْحِجَازِ تُضِيءُ أَغْنَاقَ الْإِبِلِ بِبُصْرَى»، وبُصْرَى هي مدينة حُورَان بالشَّام، وتبعدُ عن المدينة أكثر من ألف كيلو، قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ، خَرَجَتْ فِي زَمَانِنَا نَارٌ بِالمَدِينَةِ سَنَةَ ٦٥٤ للهجرة، وكانت نَارًا عَظِيمَةً، بِقُرْبِ المَدِينَةِ، تَوَاتَرَ الْعِلْمُ بِهَا عِنْدَ أَهْلِ الشَّامِ وَرَأَوْا ضَوَاهَا..

❖ **ومن تلك العلامات:** قتالُ التَّارِ والمَغُولِ والترك: فقد جاء في صحيح البخاري، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تُقَاتِلُوا قَوْمًا نِعَالُهُمُ الشَّعْرُ، وَحَتَّى تُقَاتِلُوا التُّرُكَ، صِغَارَ الْأَعْيُنِ، حُمْرَ الْوُجُوهِ، ذُلْفَ الْأَنْوَفِ، كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الْمَجَانُّ الْمُطْرَقَةُ»، وقد حدثَ هذا في القرن الثامن الهجري..

❖ **ومن العلامات:** ظهورُ الدجالين الكذابين، الذين يدَّعون النبوة، فقد جاء في صحيح مُسْلِمٍ عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال

رسول الله ﷺ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُبْعَثَ دَجَّالُونَ كَذَّابُونَ قَرِيبٌ مِنْ ثَلَاثِينَ، كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ».. وقد ظهر الكثير من هؤلاء الدجالين، أمثال: مُسَيْلَمَةَ، وَسُجَّاحَ، وَطُليحَةَ الأَسَدِي، والأَسودِ العَنَسِي، والمختارِ الثَّقَفِي، والقادياني، والميرزا وغيرهم..

❖ **ومن تلك الأحداث والعلامات:** التَّطَاوُلُ فِي البُنيَانِ، ففي صحيح مُسْلِمٍ، أَنَّهُ ﷺ سُئِلَ عَنْ أَمَارَاتِ السَّاعَةِ فَقَالَ: «وَأَنْ تَرَى الحُفَاةَ العُرَاةَ العَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي البُنيَانِ»، وصدق ﷺ، فهام رُعاةُ الشَّاءِ والإبل، يملكون اليوم أطول الأبراج في العالم..

❖ **ومنها:** ظهورُ النساءِ الكاسياتِ العارياتِ، ففي صحيح مُسْلِمٍ قَالَ ﷺ: «صِنْفَانِ مِنَ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا، قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ البَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ، وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مُمِيلَاتٌ مَائِلَاتٌ»، وقوله: (كاسياتٌ عاريات) أي تغطي بعض جسدِها وتكشفُ بعضه..

❖ **ومن تلك العلامات:** كثرةُ الأسواقِ وتقاربها: ففي الحديث الصحيح: قَالَ ﷺ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَظْهَرَ الفِتْنُ، وَيَكْثُرَ الكَذِبُ، وَتَتَقَارَبَ الأسواقُ، وَتَتَقَارَبَ الزَّمَانُ، وَيَكْثُرَ الهَرْجُ». قِيلَ: وما الهَرْجُ؟ قَالَ: «الْقَتْلُ»..

❖ **ومنها:** زوال الجبال، ففي الحديث الصحيح، قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تزول الجبال عن أماكنها، وترون الأمور العظام التي لم تكونوا ترونها»..

❖ **ومنها:** زخرفة المساجد والتباهي بها، ففي الحديث الصحيح، قال ﷺ: «إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يَتَبَاهَى النَّاسُ فِي الْمَسَاجِدِ»..

إلى غير ذلك من أدلة الإعجاز الغيبي والإخبار بالمستقبل، والتي وقعت تمامًا كما أخبر المصطفى ﷺ.. وذلك مما يُثبِت قطعياً أنه حقٌّ من عند الله تعالى..

تأمل قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢]..



الدليل الإعجازي السادس: حِفْظُهُ مِنَ التَّحْرِيفِ

إِنَّ مِنْ أَعْجَبِ وَجْهِهِ الْإِعْجَازِ فِي الْقُرْآنِ، وَالتِّي تَشْهَدُ بِصَدَقِهِ،
حِفْظُهُ مِنَ التَّحْرِيفِ وَالتَّبْدِيلِ وَالْخَطَأِ..

فَرِغَمَ مَرُورِ أَكْثَرَ مِنْ ١٤٠٠ سَنَةٍ، وَرِغَمَ تَعَاقُبِ الْأُمَمِ، وَتَغْيِيرِ
الْأَحْوَالِ، وَتَبْدِيلِ الْحُكَّامِ، وَتَعَدُّدِ الْفِرَقِ وَالْمَذَاهِبِ، وَرِغَمَ انْعِدَامِ
وَسَائِلِ الْحِفْظِ وَالتَّخْزِينِ، وَبِدَائِيَّةِ وَسَائِلِ النِّسْخِ وَالكِتَابَةِ.. إِلَّا أَنَّهُ لَمْ
تَتَغَيَّرْ مِنْهُ آيَةٌ وَلَا كَلِمَةٌ وَلَا حَتَّى حَرْفٌ وَاحِدٌ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْقُرْآنَ
الْكَرِيمَ قَدْ نُقِلَ بِالتَّوَاتُرِ لَفْظًا وَكِتَابَةً، جِيلًا بَعْدَ جِيلٍ، فَتَلَقَّاهُ الصَّدُورُ
بِالْحِفْظِ، كَمَا حُفِظَ فِي السُّطُورِ بِالكِتَابَةِ، وَتَلَقَّاهُ مَلَائِكُ النَّاسِ فِي كُلِّ
عَصْرِ، وَحَفِظُوهُ فِي صُدُورِهِمْ مِنْذُ زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا..

وَقَدْ وُجِدَتْ مَخْطُوطَاتٌ قَدِيمَةٌ لِلْقُرْآنِ تَعُودُ إِلَى عَصْرِ الصَّحَابَةِ
(مِثْلُ مَخْطُوطَةِ صَنْعَاءَ، وَمَصْحَفِ طَشْقَنْدَ، وَمَصْحَفِ بَرْمَنْجَهَامِ)،
وَقَدْ ثَبَتَ تَطَابُقُهَا التَّامُّ مَعَ الْمَصَاحِفِ الَّتِي بَيْنَ أَيْدِينَا الْيَوْمَ، دُونَ أَيِّ
اِخْتِلَافٍ..

وَمَعَ تَغْيِيرِ الْأَحْوَالِ، وَتَبْدِيلِ الدُّوَلِ، وَظُهُورِ الْفِرَقِ الضَّالَّةِ،
وَالْحُكُومَاتِ الْمُنْحَرِفَةِ، وَغَرَبَةِ الدِّينِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَزْمَنَةِ.. وَمَعَ ذَلِكَ

ظَلَّ كَثِيرٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي كُلِّ جِيلٍ يَحْفَظُونَ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ حِفْظًا قَوِيًّا رَاسِخًا.. بل الأعجب: أَنَّ أَطْفَالًا لَا يَتَجَاوِزْنَ السَّابِعَةَ يَحْفَظُونَهُ وَيَضْبُطُونَهُ بِدَقَّةٍ مُذْهِلَةٍ، كَمَا أَنَّ هُنَاكَ مِنَ الْأَعَاجِمِ وَمِمَّنْ لَا يَعْرِفُ مِنَ الْعَرَبِيَّةِ شَيْئًا لَكِنَّهُمْ يَحْفَظُونَ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ حِفْظًا مُتْقَنًا..

كُلُّ هَذَا لَا يُمْكِنُ أَنْ تُفَسِّرَهُ الصَّدْفَةُ أَوْ التَّطَوُّرُ، بَلْ هُوَ عَنَاءٌ رَبَّانِيٌّ وَاضِحٌ، وَمُعْجَزَةٌ إِلَاهِيَّةٌ بَيِّنَةٌ، تُؤَكِّدُ مَا قَالَهُ اللَّهُ لِنَبِيِّهِ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].. وَأَنَّ هَذَا الْحِفْظَ الْمَعْجَزُ، هُوَ شَهَادَةٌ تَنْطِقُ بِصَدَقِ مَنْ بَلَغَ هَذَا الْكِتَابَ، وَأَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ حَقًّا، لَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى..

وَالْعَجِيبُ الْمَذْهَلُ أَنَّهُ طَوَالَ سِنَوَاتٍ كَثِيرَةٍ، قَبْلَ وَأَثْنَاءَ وَبَعْدَ نَزُولِ الْقُرْآنِ، كَانَتْ هُنَاكَ آلَافُ الْمَعْلُومَاتِ وَالْآرَاءِ الْخَاطِئَةِ، وَالْمُخَالَفَةِ تَمَامًا لِلصَّوَابِ، كَانَتْ سَائِدَةً وَمُتَشَرِّعَةً وَمُتَدَاوِلَةً بَيْنَ الْجَمِيعِ (عُلَمَاءَ وَعَوَامَ)، وَكَانَ الْكُلُّ يَعْتَقِدُ أَنَّهَا صَحِيحَةٌ، إِلَى أَنْ ظَهَرَ الْمَجْهَرُ وَبَقِيَّةُ الْوَسَائِلِ التَّقْنِيَّةِ فِي مُتَنَصِّفِ الْقَرْنِ السَّابِعِ عَشَرَ تَقْرِيبًا، فَحِينَهَا بَدَأَتْ الْحَقَائِقُ الْعِلْمِيَّةُ تَظْهَرُ، وَبَدَأَتْ تِلْكَ الْمَعْلُومَاتُ الْخَاطِئَةُ تَخْتَفِي شَيْئًا فَشَيْئًا..

وَالْأَمْرُ الْآلِفُ لِلانْتِبَاهِ بِشِدَّةٍ أَنَّهُ بِالرَّغْمِ مِنْ كَثْرَةِ تِلْكَ الْمَعْلُومَاتِ الْخَاطِئَةِ وَشُيُوعِهَا الْكَبِيرِ، وَقْتَ نَزُولِ الْقُرْآنِ، فَإِنَّ أَيًّا مِنْهَا لَمْ يَتَسَلَّلْ

إلى أي آية من آيات القرآن الكريم.. ولا إلى أي حديث من أحاديث المصطفى ﷺ الصحيحة.. وهذا والله من أقوى الأدلة على أن هذا القرآن العظيم حق من عند الله جلَّ وعَلا، وأن الله تعالى هو الذي حفظه من التحريف: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۚ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١-٤٢]..

وهكذا فقد ظل القرآن الكريم باهرة آياته، ظاهرة معجزاته، سليمة حروفه وكلماته، لم يستطع أحد أن يغير حرفاً من حروفه، أو شيئاً من آياته، ولقد مضى على نزول القرآن أربعة عشر قرناً ولا يزال غصاً طرياً معجزاً لجميع البشر، محفوظاً بحفظ الله من أي تحريف أو تبديل، وسيظل بإذن الله كذلك إلى يوم القيامة.. ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]..



الدليل الإعجازي السابع: الإعجاز الصوتي

من بين وجوه الإعجاز في القرآن الكريم وجهٌ لا يُدرك إلا بالأذن الواعية، والنفس المتذوقة.. إنه الإعجاز الصوتي.. حين يكون الصوت شريكاً في تجسيد المعنى..

إنه إعجازٌ يتشكل حين تتناسب الأصوات مع المعاني، فتشكل نعمةً معنويةً لا تنفصل عن دلالتها، بل تقويها وتُجسّدُها وتُلبسُها هيئةً محسوسةً تدركها الأسماع قبل العقول.. فالصوت هنا شريكٌ في تشكيل المعنى وليس داعماً له فقط.. والقرآن لا ينقل الصورة باللفظ فحسب، بل يُجسّدُها بالنعمة والصوت..

فمثلاً حين يتحدث عن الثاقل، تكون الكلمة نفسها ثقيلةً في النطق: ﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَثَاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ [التوبة: ٣٨].. وإذا وصف دخول أهل النار فيها، جاء بتكرار يوحى بتتابع السقوط والارتطام، وكأنك تسمعهم وهم يُدخَرُونَ فيها: ﴿فَنَكَبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾ [الشعراء: ٩٤].. وإذا وصف صراخهم جاءت الألفاظ زاخرةً بحروف الصفير القوية: ﴿يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ [فاطر: ٣٧].. فصورُ الطاء يضيف للكلمة جواً صوتياً يحاكي الصراخ في شدته!..

ومثله: ﴿فَمَنْ يُحْيِ عَنِ الْكَارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].. فتكرار الزاي والحاء في «زحزح» يوحي بالجهد والبطء.. وكذلك: ﴿بَرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦].. فصرصر صوتٌ حادٌ مُستمر.. وهكذا: ﴿مَشَاءَ بَنِيمٍ﴾ [القلم: ١١]، فالشينُ من حروف التفشي والألفُ بعدها، ناسبت انتشار النميمة.. وتأمل: ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ﴾ [ق: ١٠]، فالتمدد في الكلمة يعكس ارتفاع النخل وطولها، وجمال الجرسِ يوحي بجمال المنظر.. فكم هو مُدهشٌ تناسبُ الصوتِ مع المعنى..

كما أنَّ القرآنَ الكريمَ هو النصُّ الوحيدُ الذي يُراعي تتابع الحروفِ الثقيلةِ دونَ تعثرِ النطقِ أو إرهاقِ الأذنِ.. وتكرَّرَ فيه الأحرفُ المتماثلةُ دونَ أن يَضْعُفَ الإيقاعُ، أو يختلَّ الوزنُ، اقرأ قوله تعالى: ﴿وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ﴾ [هود: ٤٨].. فرغمَ وجودِ عدةِ ميماتٍ مُتتَابِعَةٍ إلا أنه لا يوجدُ فيها ثقلٌ ولا التواءٌ!..

وقد لاحظَ العلماءُ أمراً عجيَّباً، وهو أنَّ ألفاظَ القرآنِ تحملُ في طيِّها خاصيةَ التجددِ الصوتي والبياني، فحروفه تتوزعُ توزيعاً دقيقاً بين الجهرِ والهمسِ، وبين الشدةِ والرخاوة، وبين الانفجارِ

والانسياب، وبين المدّ والقصر، فتحدث في الأذن موسيقى لغوية لا تملّ، وفي النفس انطباعات شعورية متجددة..

ومن المستحيل على بشر أن يحكم تناسق الصوت مع المعنى في كل موضع، دون أن يقع في التكلف أو التصنع أو الملل.. ولكنك تقرأ القرآن صباح مساء، فلا يثقل عليك، ولا تجد فيه نشازاً..

فالإعجاز الصوتي في القرآن الكريم إعجاز ظاهر، يسهل إدراك تأثيره العميق على السامع والقارئ.. والذي يجعل القلب يخشع حتى قبل أن يفهم.. ولئن كان البيان الحسن يستميل العقل، فإن الصوت المتناغم يجذب السمع ويستميل القلب، وفي هذا يكمن سرُّ من أسرار هذا الكتاب العظيم..

قال ابن جني: «إن أكثر إعجاز القرآن في نظمه، وجرسه، وتوالي كلماته في السمع كما تنسجم الدرر في النظام».. وقال الجرجاني: «وإنك لتجد في نظم القرآن شيئاً يجذب السمع جذباً، ويخلب القلب خلباً، لا تجده في غيره، وإن استعملت الألفاظ نفسها».. ويقول سيد قطب: «إن جرس الكلمات، وتآلف الحروف، وتناسق الظلال، كل ذلك يعمل عمله في النفس كأنه الموسيقى الساحرة».. ويقول الإمام ابن القيم الجوزية في بدائع الفوائد: «إنك لتجد الكلمة

الواحدة في القرآن لها وقعٌ خاصٌ في السمع، لا تجدُ لها نظيراً في غيره، ولو أُبدلت الكلمةُ بمرادفها لاختلَّ الوزنُ، وضعفُ الأثر، ونقصَ المعنى، لأنَّ القرآنَ وحْيٌ، نظمُهُ ومعناه.. وقال ابن عاشور في التحرير والتنوير: «في القرآن كلماتٌ لو لم يكن من إعجاز القرآن غيرها لكفى، فيها من مطابقة الصوتِ للمعنى ما لا يُبلِّغُ بشعر شاعرٍ ولا نثرٍ ناثراً».. وقال الرافعي في إعجاز القرآن: «ألفاظُ القرآن تأتي على نسقٍ كأنما صيغت في السماء، فإذا تلاها السامعُ أحسَّ أنَّ هذه الأصوات ليست كأصوات الناس، بل فيها جرسٌ سماويٌّ يُزلزل، ويُشجِّي، ويملأ القلبَ بالعجب»..

فسبحان من أنزله ﴿ تَبَصَّرَةٌ وَذَكَرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ [ق:٨]..



الدليل الإعجازي الثامن: الإعجاز الشفائي

يقول الحقُّ جَلَّ وَعَلَا عن كتابه العظيم: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].. وقال سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءً﴾ [فصلت: ٤٤]..

فالقرآن شفاؤه عامٌ، يشمل كل أنواع الشفاء.. ومن ذلك ما يلي:

❖ **أولاً: الشفاء الروحي والنفسي:** وهو أعظم أنواعه، وأوضحها أثراً.. فهو يداوي القلوب المريضة بالشك، والقلوب الملوثة بالشهوة، والصدور المنهكة بالضيق والهم، والنفوس الموجوعة بالقلق والذنب والخوف والضياع.. قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في «زاد المعاد»: «فالقرآن هو الشفاء التام من جميع الأدواء القلبية والبدنية، وأدواء الدنيا والآخرة، وما كلُّ أحدٍ يُؤَهِّلُ ولا يُؤَفِّقُ للاستشفاء به، وإذا أحسن العليلُ التداوي به، ووضعهُ على دائه بالصدق والإيمان، وقبولٍ كامل، واعتقادٍ جازم، واستيفاءٍ لشروطه، لم يقاومه الداء أبداً»..

❖ **ثانياً: الشفاء الأخلاقي والسلوكي:** فالقرآن ليس مجرد كتابٍ وعظٍ، بل هو منظومةٌ إصلاحٍ متكاملة، ويكفي أن رسول الله

ﷺ وصفَ مهمته فقال: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق».. وقد أنجز القرآن هذه المهمة، وغيرَ به أقوامًا كانوا في الجاهلية في أسفل سافلين، فصاروا بالقرآن سادة العالمين، رحماء بينهم، أشداء على عدوهم، يدينون للحق، ويأمرون بالعدل، وينشرون الفضيلة..

❖ **ثالثًا: الشفاء الجسدي:** وهذا ثابت بالأثر والتجربة، ومشهودٌ عند كثيرين.. قال الله تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنْ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢].. وقال بعض المفسرين: «الشفاء هنا يشملُ أمراضَ القلوبِ وأمراضَ الأبدان، فمن قرأه بحقٍّ، واعتقدَ بركته، ونزلَ على شروطه، نفعَ به في بدنه كما نفعَ به في روحه».. ووردَ في صحيح البخاري حديثُ الصحابي الذي قرأ سورة الفاتحة على مريضٍ لذيغٍ فبرئَ بإذن الله، فقال النبي ﷺ: «وما يُدريك أنها رُقية».. وقد كان ابن القيم رحمه الله يستشفى بالفاتحة ويقول: «لقد رأيتُ لها من الشفاء أمورًا عجيبة، فصرت أصفُها لمن يشتكي، فبرأ أكثرهم بإذن الله»..

❖ **رابعًا: الشفاء العلمي والمعرفي:** فالقرآن يُزيل أمراضَ الجهل، ويهدي في ظلمات الحيرة، ويفتح مغاليق التفكير، ويهدي العقول إلى أسْمَى درجات الإدراك السليم.. فكم من فلسفات

أضلت، وكم من مناهج أفسدت، وكم من تجارب حيرت.. أمّا القرآن فإنه: ﴿يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].. وقال الرازي رَحِمَهُ اللهُ في «مفاتيح الغيب»: «القرآن فيه الشفاء من الوسوسة والشكوك، ومن الجهل، ومن الحيرة، ومن التناقض، ومن الجبن، ومن الظلم، ومن الانحراف، فليس في العالم دواءً للإنسانية أشمل من هذا الكتاب».. وقال القرطبي في تفسيره: «الشفاء في القرآن عامٌ: للأبدان والأرواح».. وقال الدكتور عبد الكريم بكار: «القرآن عيادةٌ شاملةٌ تداوي أدواء النفس والفكر، وتعيد الإنسان إلى ما فطره الله عليه»..

وأخيراً: فليس غريباً أن يكون كتابُ الله شفاءً.. فهو كلامٌ من بيده الشفاء، وهو الذي خلق الداء والدواء، وهو الذي قال على لسان خليله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينُ﴾ [الشعراء: ٨٠]..



الدليل الإعجازي التاسع: الإعجاز التجديدي

تأمل هذا الكتاب العجيب.. كتابٌ تُتلى آياته صباح مساء، ويُعاد ويُردّد في كلّ وقتٍ وحين، وتُكرّر سُورُهُ في كلّ صلاةٍ، بل إنّ بعضَ سورِهِ وآياتِهِ تُتلى عشرات المرات في كلّ يومٍ وعلى ألسنة الملايين.. ومع ذلك، لا يَمَلّ سامعُهُ، ولا يَسأمُ قارئُهُ، ولا يتناقص أثرُهُ، ولا يَضعفُ سُلطانُهُ على القلوب..

إنه القرآن، المعجزةُ الخالدة، التي لا يخبو أثرها، ولا يطرأ عليها ما يطرأ على كلام البشر من الوهن والخفوت بعد التكرار.. بل تراه كلما أُعيدَ كان أحلى، وكلما رُدّدَ ازدادَ بهاءً وصفاءً، وكأنك تسمعه لأول مرة..

وما هذه الظاهرة إلا ضربٌ من الإعجاز الفريد، الذي لا يُمكنُ لمنصفٍ أن ينكرها، إذ لا يُعرفُ كتابٌ في التاريخ كله، حُفظَ عن ظهر قلبٍ، وتُليّ بمثل هذا التكرار، ومع ذلك يظلُّ محتفظاً بجماله وأثره وهيبته، كأنه يُقرأ لأول مرّة.. فإذا علمت أن القرآن يُتلى منذ أكثر من أربعة عشر قرناً، وقد بلغ آذان المليارات، وسمعه لآلاف المرات، ولا تزال النفوس تهتّزُّ له، والقلوبُ تخشعُ عند تلاوته،

والعقول تنبهر من حُسن نظمهِ ودقةِ بيانه، فهذا وحدهُ برهانٌ على أنه ليس من كلام البشر.. ولقد قال ابن القيم في هذا المعنى كلاماً نفيساً، في كتابه «الفوائد»: «من تأمَّل هذا القرآنَ حقَّ التأملِ، فوقفَ عند عجائبه، واستغرقت لُبُّهُ معانيه، رأى أنه لا يُشبهُ شيئاً من كلام الناس، وأنه لا يَخْلُقُ على كثرة الردِّ، وأنه كلما ازدادَ تردداً، ازداد حلاوةً، وجِدَّةً وطراوةً».. وقال أيضاً: «القرآنُ لا تنقضي عجائبه، ولا يَخْلُقُ على كثرة الردِّ، ولا يَمْلَأُ السامعونَ، ولا تزالُ طراوتهُ تتجدَّدُ في الأسماع كأنه أنزلَ أمس».. وقال الجاحظ عنه: «كلما ازدادت له تلاوةٌ، ازدادت منه حلاوةٌ».. ونقل السيوطي عن بعض العلماء أنَّ هذا الوجه من الإعجاز القرآني هو من أعجبها وأظهرها، لأنَّ الكلامَ البشري، مهما بلغَ من البلاغة، فإنه يُمَلُّ، ولو بعد حين، ولا يثبتُ على كثرة الترداد، بل تبهتُ حلاوته، وتُفقدُ روعته.. وقال الإمام الجرجاني، وهو من أئمة علم البلاغة: «القرآنُ مخصوصٌ بأنَّ الإكثارَ لا يذهبُ طلاوته، ولا تُتنزَعُ به نضارته، بل لا تزالُ قراءتهُ تُجدِّدُ لذتهُ، كأنَّه نزلَ الآن».. وقال الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللهُ: «ما شَبَعَ أحدٌ من القرآن قط، ولو عاش ألفَ عام»..

قال شيخُ الإسلامِ ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «ما من كتابٍ يُقرأ مراراً

وتكراراً، إلا ويُمَلُّ، إلا كتابَ الله، كلما قرأه العبد، جَدَّدَ اللهُ له فهمًا ومعاني، ورقَّ قلبه به، وسكنت به جوارحه».. وقال العلامة ابن عاشور: «تكرارُ سماعِ القرآن لا يزيده إلا بهاءً في النفس، ولطافةً في الأذن، وطمأنينةً في القلب».. وفي هذا دلالةٌ قاطعةٌ على أنَّ هذا القرآن ليس من كلام البشر، لأنه لو كان كذلك، لأصابته السُّنة، وذهبت نضارته، وزال سلطانه، كما يحدث لكل كلام البشر..

فانظر كيف جمعَ هذا الكتابُ العجيبُ بين جمال المبنى، وبهاءِ المعنى، ودوامِ الأثر، وسلطانِ البيان، وشمولِ الاستيعاب، وحلاوةِ الجرس، واستمرارِ التجدد.. فلا يَخْلُقُ عن كثرةِ الرد، ولا تنقضي عجائبه، ووالله لو ﴿كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].. والله ما قرأت العيونُ شيئاً مثل القرآن، ولا سمعت الأذانُ شيئاً مثل القرآن، ولا خاطبَ القلوبَ والعقولُ شيءٌ مثل القرآن.. ووالله ما في الدنيا شيءٌ يُشَبِّهُ القرآن، ﴿قُلْ لِّينِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]..

بارت أجملَ القصائدِ وأحلاها، وفقدت رونقها، وذهبَ بهاؤها، أمَّا القرآنُ فلا.. هُجرت أروعُ القصصِ والروايات ونُسيت أقوى

الرسائل والمقالات، أمّا القرآن فلا..

وما من كتابٍ يذيعُ بين الناسِ شهرتهُ، وينتشرُ بينهم صيتهُ
وسمعهُ، إلا ويتلاشى أثرهُ تدريجيًا، ويزولُ رونقهُ شيئًا فشيئًا، حتى
كأنه لم يكن.. إلا القرآنُ فقد بقي كما هو غصًا طريًا، جديدًا نديًا،
كأنما أنزلَ البارحة: ﴿كُنَّا مُنْشِبِهَا مِثَاقِي نَقْشَعُرٍ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ
رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ
يَشَاءُ﴾ [الزمر: ٢٣]..

بقي القرآنُ وسيبقى: ﴿نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ ١٥ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ
مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ
إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥]..
بقي القرآنُ وسيبقى: كتابٌ عزيز: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ
خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]..



الدليل الإعجازي العاشر: الإعجاز الاستيعابي

إِنَّ مِنْ أَقْوَى أَوْجِهِ إعجازِ القرآنِ الكريمِ أنه استوعبَ كُلَّ ما يحتاجه الناسُ من أمور دينهم ودنياهم في كُلِّ زمانٍ ومكان، كما قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿تَبَيَّنَا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩].. ﴿مَا فَرَطْنَا فِي أُلْكُتَبٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨].. وليس المعنى أَنَّ القرآنَ موسوعةٌ تفصيليةٌ لكلِّ صغيرة وكبيرةٍ من علوم الحياة، بل المرادُ أنه كتابٌ يشتملُ أصولَ الهدايةِ الكبرى، والقيمَ العظمى، والقواعدَ الكليةَ العامة، وأنه لم يُفِرط في شيءٍ يحتاجه الناس في دينهم، أو يصلحُ به أمرٌ معاشهم، إمَّا تفصيلًا أو تأصيلًا، أو إشارةً أو إحالةً.. يقول شيخ الاسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ في مجموع الفتاوى: «جاء القرآنُ بخلاصة العلم، وأصولِ الهدى، وجوامعِ البيان، واشتملَ على ما يحتاجه الخلقُ من أمر دينهم ودنياهم، وبيَّنَ أصولَ الإيمان، وأمّهاتِ الأحكام، ومكارمَ الأخلاق، وأحسنَ الآداب».. وقال الإمام السيوطي في «الإتقان»: «قد اشتملَ القرآنُ على جميعِ علومِ الأولين والآخرين، بحيثُ لم يُبقِ علمًا إلا وقد أشارَ إليه».. وقد أشار العلامةُ ابن القيمِ إلى هذا المعنى في مفتاح دار السعادة فقال: «في القرآن من عجائب الإحاطة والبيان، والاستيعابِ والتفصيلِ، والتنويعِ والإحكام، ما لا تبلغُهُ

العبارة، ولا يُحيطُ به الوصفُ».. وقال في «مدارج السالكين»: «القرآن فيه من العلم والأحكام والتوحيد والأخلاق والسياسة والمعاملة والقصص والعبر والمثل والمواعظ، ما لا يوجد في أي كتاب آخر، ولا يُدانيه فيه ديوان من دواوين الأرض».. وقال أيضاً: في القرآن من أدوية القلوب، وأشفية النفوس، وقواعد العدل، وأصول السعادة، ومناهج النجاة، ما لا تجده في غيره، ولو فتشت علوم الأولين والآخرين.. فالقرآن قد استوعب الغيات، وتناول الأصول الكبرى والكليات، وفتح أبواب النظر والمآلات، ونبه على مسالك الخير والشر بالعموميات..

حيثُ تكلم القرآن الكريم عن قضايا الاعتقاد الكبرى: كالتوحيد، والنبوة، والبعث، والقضاء والقدر، وعرضها بأقوى الحجج، وأوضح البراهين، وأعمق المعاني.. وتناول قضايا المجتمع والأسرة والسياسة والاقتصاد والجهاد والعدل، وما ترك مجالاً إلا رسم فيه معالم الهداية..

وحتى المشاعر والمعاناة النفسية، لم يُغفلهما.. بل وشملت آياته مناهج التربية والتعليم، وأساليب الحوار، وطرق الإقناع، ومراتب التعامل مع الخلق، وعلاج الأدواء الاجتماعية، بل حتى ما

يُعَدُّ من الذوق وفنِّ التعامل، كقوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].. هذا هو إعجاز الاستيعاب: أن ترى كتابًا محدودَ الصفحات والآيات، ثم يكون دستورًا شاملًا لكل الوجود، ومنبع الهدى والنور لكل الناس..

أليس عجيبًا أن تجدَ كتابًا نزلَ قبلَ أربعةِ عشرَ قرنًا، في بيئةٍ بدائيةٍ بدويةٍ لا تعرفُ فلسفاتِ اليونان، ولا علوم الإغريق والرومان، ولا حتى حكم الهند والصين واليابان، ثم هو مع ذلك يتحدث عن أطوار الجنين، وعن حركة الجبال وباطن الأرض، وعن نشأة الكون، ومواقع النجوم، وتكون السحاب، وعن الرياح اللواحق، والتقاء البحار، والأمواج العميقة، وعن إنزال الحديد، ودورات النبات والمطر، وغرائز الحيوان، وممالك النحل والنمل، وعن سنن التاريخ وأخبار الأمم السابقة، وعن تزكية النفس، وتقوية العلاقات، وعن الفرائض والواجبات، والمباحات والمحرمات، ثم يقرّر كل ذلك في كلماتٍ يسيرة، دقيقةٍ محكمة، ثم لا يزالُ الناسُ كلما تقدّم بهم العلم، وجدوا فيها ما يوافقُ الواقع، ويدهشُ العقول، ويربطهم بالخالقِ جَلَّ وَعَلَا.. وكلُّ ينهلُ منه بحسب حاجته، وبحسب همّته، وبحسب أسلوبه وطريقته، ولا يزالُ الجميعُ يجدون فيه ما يروى

عطشهم، ويهدي قلوبهم..

فلو جئنا بعلماء الفقه والشريعة، وعمالقة اللغة والبيان، وأرباب النحو والصرف، وعلماء التاريخ ودارسي الحضارات، وجئنا بعلماء القانون والتشريع، وكبار علماء النفس والاجتماع والتربية.. وجئنا كذلك برموز المال والاقتصاد، وبصفوة الأطباء الجراحين، ولو جئنا كذلك بجهازة علم الفلك والنجوم، وخبراء الطقس والأرصاد، والمتخصصين في علوم الأرض وتضاريسها، وخبراء البحار، والأعماق، وعلماء النبات والحيوان والحشرات..

لو جئنا بكل هؤلاء، وغيرهم من أهل التخصص في كل فن من فنون العلم والمعرفة.. وأوقفناهم بين يدي القرآن، وسألناهم بإنصاف العالم، ونزاهة الباحث.. لأجابونا بصوت واحد، وكأنهم أصدروا بياناً مشتركاً باسمهم جميعاً: «لقد وقفنا على هذا الكتاب فوجدنا فيه عجائب لا تنقضي.. وجدنا حقائق علمية دقيقة توافق تخصصنا، ومعلومات ومكتشفات حديثة لا يعرفها من سبق عصرنا، وأموراً أدهشتنا وحيرت عقولنا، وجعلتنا نوقن أن هذا ليس من صنع البشر أبداً»..

فأتى لكتاب نزل قبل أربعة عشر قرناً أن يتحدث عن حقائق

علمية كثيرة ومتنوعة، لم يُكتشف أيُّ شيءٍ منها إلا في العصور المتأخرة.. ثم لا يكون هناك أيُّ نسبةٍ من الخطأ في كلِّ ما ذكره..

هذا لا يمكن أن يكون إلا من عند الخالقِ الخبير، الذي أحاطَ بكل شيءٍ علمًا، ولا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السماء..
القائل في كتابه: ﴿سَرَّيْهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۖ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣]..
والقائل سبحانه: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ ۖ فَاعْرِضُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٣]..

فإن لم يكن هذا إعجازًا، فما عساه أن يكون؟.. وإن لم يكن هذا من عند الله فممن يكون؟.. وإن لم يستوقف قلبك هذا الكمال والجلال، فأَيُّ شيءٍ يوقفه؟.. ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِظٍ﴾ [الأنعام: ١٠٤]..

وبعد، فهذا هو قرآن ربِّ العالمين.. لا يفتأ يُدهشك كلما أمعنت النظر فيه، ويأسرك كلما أصغيت إليه بتجرد.. ففيه العلم الذي يسبقُ الزمان، والبيان الذي ليس كمثله بيان، والتشريعُ الصالحُ لكلِّ زمانٍ ومكان، والأخبارُ التي صدَّقتها وقائعُ الأيام، والتأثيرُ العميق الذي

يغيّر القناعات من الأعماق، والحِفظُ الذي حيّر العقول، وصمد
 لمئات السنين.. فأنتي لبشرٍ أن يأتي بكل هذا؟!.. وماذا بقي للمعاند
 من حُجةٍ أو برهان؟!.. ولئن لم يكن هذا هو الحقّ، فأين يُطلبُ
 الحقُّ؟.. ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾
 [الأعراف: ٥٢].. ﴿فِي آيٍ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ [المرسلات: ٥٠]..



الباب الرابع:

أدلةُ صدقِ الرسول ﷺ

لقد أثبتنا بحمد الله وجودَ الخالقِ جَلَّ جَلَالُهُ، بأكثر من عشرين دليلاً مختلفاً، ما بين أدلةٍ عقليةٍ وعلميةٍ وفطريةٍ وتاريخيةٍ ولغويةٍ وغيرها من أنواع الأدلة المختلفة.. لكن قد يبقى في النفس سؤالٌ جوهرى: إذا كان الله موجوداً، فهل أرسل إلينا رسولاً؟.. ومن هو هذا الرسول؟.. وما الدليل على صدقه؟..

وحيثُ إنَّ دعوى النبوة دعوى عظيمة، فلا تُقبلُ بلا برهانٍ صحيح، ومحمدُ بن عبد الله ﷺ هو أعظمُ نبيٍّ غيرٍ مجرى التاريخ.. وأثّرٌ في حياة الناس، فلا بدَّ أنَّ معه براهينَ متنوعةً تثبتُ صحةَ رسالتهِ، وتؤكدُ مصداقيتهِ..

وفي الصفحات التالية، نُقدّم اثني عشرَ دليلاً، متنوعةَ الجوانب، متكاملةَ الدلالة، تؤكدُ بكل وضوحٍ وموضوعية: أنَّ محمداً ﷺ نبيٌّ صادق، مرسلٌ من ربِّ العالمين..



الدليل الأول: عظمة أخلاقه ﷺ..

لطالما تسائل العقلاء والمفكرون: عن الإنسان الذي يستحق أن يكون هو الأعظم في التاريخ.. عن الإنسان الذي اجتمع فيه ما تفرق في غيره من الأخلاق الحسنة والخصال الحميدة، وجوانب العظمة كلها.. إنسان لم تعرف له زلة، ولم تؤخذ عليه هفوة، ولم تبد منه منقصة، وما من شخص أجمع المنصفون من كتاب التاريخ أنه الأجدر بهذا سوى محمد بن عبد الله ﷺ.

فإنك حين تتأمل أخلاقه عليه الصلاة والسلام، تجد نفسك أمام شخصية تبهر العقل، وتأسر القلب، وتستثير الإعجاب.. شخصية رجل عظيم، ما عرف في التاريخ عظيم يُدانيه..

وإن الدارس لسيرة النبي ﷺ يلحظ صرامة أخلاقية فائقة عاشها النبي ﷺ طوال حياته كلها، صرامة ثابتة مهما تغيرت الظروف والأحوال، مما يجعل الدارس لسيرته يوقن أن تلك الصرامة الأخلاقية وذلكم الكمال الأخلاقي يستحيل أن تكون لكذاب مدع..

لقد عاش ﷺ أربعين عاماً بين قومه قبل النبوة، فما كذب قط ولا

خان، وما عُرف عنه ظلمٌ ولا فجور، بل كانوا يسمّونه «الصادق الأمين»، وهو لقبٌ لا يُمنحُ في مجتمعٍ أمِّيٍّ إلا لمن بلغ الغاية في الأمانة والصدق.. حتى إنَّ أبا سفيان، وهو عدوُّه يومئذٍ حين سألَهُ هرقُل: «وهل كنتم تتهمونه بالكذب؟» قال: «لا».. وقال عنه عبد الله بن سلام وكان حبراً من أحبار اليهود: «فلما رأيته، عرفتُ أنَّ وجهه ليس بوجه كذاب».. فنحن نتحدثُ عن شخصيّةٍ بلغت الذروة في الأخلاق والسمو الإنساني، حتى شهدَ له بذلك خصومه قبل أتباعه، وأعداؤه قبل أصدقائه.. ولو لم يكن له من المعجزاتِ شيءٌ، لكفى بأخلاقه حُجةٌ دامغة، وبرهاناً ساطعاً على صدقه ونبوّته.. فقد اختصّه الله بخصائصٍ لم تجتمع في أحدٍ من قبله ولا من بعده..

فمع كلّ ما كان يحمله ﷺ من همومٍ ومسؤولياتِ الأُمّةِ، ومع كونه أباً وزوجاً، وإماماً وخطيباً، وقاضياً ومفتياً، ومُعلماً ومربيّاً، وقائداً ومصلحاً، وحاكماً عاماً، فقد كان أحسنَ الناسِ خلقاً، وأعفهمَ لساناً، وأفصحهمَ بياناً، وألينهمَ جانباً، وأسهلهمَ طبعاً، وأعظمهمَ تواضعاً، يخيّطُ ثوبه، ويحلبُ شاته، ويخصِفُ نعله، وكان ﷺ يمازحُ أصحابه ويخالطهم، ويداعِبُ صبيانهم ويلاعِبهم، ويُجيبُ دعوةَ الحرِّ والعبدِ والأُمّةِ والمسكين، ويعودُ المرضى في

أقصى المدينة، ويقبلُ عُدْرَ المعتذر.. وكان ﷺ أوفى الناس بالعهود، وأوصلهم للرحم، وأحسنهم عشرةً، وأوفاهم مودةً، وأوسعهم حلمًا وصبراً، وأزهدهم في الدنيا مع قدرته عليها، وأعظمهم رحمةً ورفقاً بالمحتاجين، وأشدّهم صلابةً وقيامًا بحق رب العالمين.. وما خَيْرُ بين أمرين إلا اختارَ أيسرهما ما لم يكن إثماً، وما انتقم لنفسه قطُّ، وما ردَّ سائلاً، ولا صدَّ محتاجاً، وكان ﷺ يبدأ من لقيه بالسَّلام، ويبدأ أصحابه بالمُصافحة، ولا ينزعُ يده حتى يكون الرجل هو الذي ينزعُ، ولا يصرفُ وجهه حتى يكون الرجل هو الذي يصرفُ وجهه، وكان يجلسُ بين أصحابه كأحدهم حتى لا يُميزه من لا يعرفه من بينهم، وكان يمنعهم من القيام له، ولم يرَ مقدِّماً رُكبته بين يدي جليسه.. وكان ينهاهم عن تعظيمه، ويقول: «إنما أنا عبدٌ، آكلُ كما يأكلُ العبد، وأجلسُ كما يجلسُ العبد، فقولوا عبد الله ورسوله».. ولكم كان في قلبه ﷺ من الرأفة والرحمة، ولكم كان في خلقه من الإيناس والملاطفة، ولكم كان في طبعه من السهولة واللين، ولكم كان في يده من السخاء والكرم..

ويكفي من لا يعرفه أن ينظرَ إلى حال أصحابه الذين تربوا على يده، فلقد أنشأ أمةً من الأبطال والفضلاء، ساروا على نهجه، واقتفوا

أثره، فكانوا أفضل الأمم خلقًا وعدلاً، وأمانةً وصدقًا.. فأنى لكاذبٍ أن يُخرَجَ صادقين أمناء؟. وأنى لدجالٍ أن يَبْنِي أُمَّةً من الأخيار العظماء؟. وكيف يستطيع كاذبٌ أن يصطنع هذه العظمة الأخلاقية مدةً ثلاثة وعشرين عامًا؟.. وكيف يمكنه أن يستمر على هذا السمو في جميع أوقاته، وعلى كلِّ أحواله؟..

إنَّ كلَّ من يتأمل بإنصافٍ وتجردٍ، سيقطعُ يقيناً أنَّ تلك الأخلاق العظيمة لا يمكنُ أن تكونَ إلا لنبيٍّ صادقٍ مؤيَّد.. وأنَّ الكذبَ والادعاءَ والغشَّ والخداعَ لا يمكنُ أن يتسقَ أبداً معَ هذا المنهج الأخلاقي المتين..

فلقد بهرَ النبيُّ ﷺ العالمَ كلهُ بعظمة أخلاقه، حتى إنَّ الكثيرَ من الكتاب والمفكرين العالميين درسوا سيرته، وتأثروا بشخصيته، وأشادوا بإنجازاته، وتحدثوا عن عظمته.. وهذه بعضُ شهادات المنصفين منهم:

قال المستشرق توماس كارلايل: «لقد أصبحَ من أكبر العارِ على أيِّ فردٍ متمدِّن أن يُصْغِي إلى زعم أنَّ محمداً خداعٌ مزور.. فلنُصْغِ إلى ما يقوله هذا الرجل، وإنه لقولٌ يخرجُ من قلبِ رجلٍ مملوءٍ بالإيمان، رجلٍ صادق، لم يكذب قط».. وقال الكاتبُ والمؤرخُ

الفرنسي لامارتين: «إذا كان مقياسُ العظمةِ هو ضخامةُ الإنجاز، مع قلةِ الإمكاناتِ، فمن يجرؤُ أن يقارنَ أيًّا من عظماءِ التاريخ بمحمد».. وقال أيضًا: «إذا أردنا أن نبحثَ عن إنسانٍ عظيمٍ تتحققُ فيه جميعُ صفاتِ العظمةِ الإنسانيةِ فلن نجدَ أمانا سوى محمدٍ الكامل».. وقال تولستوي: «يكفي محمدًا فخراً أنه خلَّصَ أُمَّةً ذليلةً دمويةً من مخالبِ شياطينِ العاداتِ الذميمةِ، وفتحَ لهم طريقَ الرقي والتقدم».. وقال رامبا كريشنا راو: «لا يمكنُ معرفةَ شخصيةِ محمدٍ بكلِّ جوانبها، ولكن كلُّ ما في استطاعتي أن أقدمهُ هو صورٌ متتابعةٌ جميلة.. وفي كلِّ هذه الأدوارِ الرائعةِ في دروبِ الحياةِ الإنسانيةِ كلها، كان محمدٌ بطلاً».. أما العلامةُ الفرنسي: ساديو لويس: فقد قال: «لم يكن محمدٌ نبياً للعربِ فحسب، بل للعالمِ كله، لأنَّ تعاليمهُ جديرةٌ بالتقديرِ والإعجابِ، وتدُلُّ على أنه عظيمٌ في دينه، عظيمٌ في صفاته، عظيمٌ في أخلاقه، فما أحوجنا إلى رجلٍ مثلِ محمدٍ»..

والخلاصة: أنَّ أخلاقَ المصطفى ﷺ النبيلة، وسيرته الزاكية الجميلة، هي أكبرُ برهانٍ على صدقه، وأنها أخلاقٌ يستحيلُ استحالةُ تامةٍ أن يبلغها كاذب.. بل والله لا يبلغها إلا نبيٌّ صادقٌ كريم، مؤيدٌ من ربه ليكون قدوةً للعالمين.. وكأنَّ الله جلت قدرته يقولُ

للعالمين، هذا رسولي إليكم، وتلك تفاصيل حياتي من أولها إلى آخرها، كُلُّهَا مَكْشُوفَةٌ أَمَامَكُمْ، فافحصوها جيداً، ودققوا فيها ملياً، فهل ترون من خلل أو زلل، هل كذب مرةً أو خان، هل ظلم أيَّ إنسان، هل قطع رحماً، هل استقبل صنماً..

ولا شكَّ أنَّ مَنْ كانت أخلاقه في الذُّرَّةِ، ثمَّ يداومُ على تلك الأخلاقِ والشِّمائلِ النبيلةِ مع الجميع سواءً بسواءٍ، والأعداء قبل الأصدقاء، ثم يبقى ثابتاً مستمراً على تلك الخصال، مهما تقلَّبت به الدنيا أو تغيرت عليه الأحوال، فلا يمكنُ أن يكونَ هو ذاتَ الشخصِ الذي يُخادعُ النَّاسَ ويدَّعي النبوةَ كذباً..

ومن لم يقنعه هذا، فلن يقنعهُ برهان، ولن يهديه بيان.. وإنَّ الذين يمارون فيه لفي ضلالٍ مبين..

﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾

[يونس: ٦٩]..



الدليل الثاني من أدلة صدقِ ﷺ: صبره وثباته..

(فلنتأمل المشهَدَ جيداً).. فمحمَّدٌ ﷺ، حين اكتمل عقله وبلغ أربعين سنة، خرجَ على قومه فجأةً، وأعلنها بينهم مُدَوِّيةً: (إني رسولُ اللهِ إليكم).. فيسخرُ منه الجميع، وينقلبُ عليه القريبُ قبلَ البعيد، ويتنادونَ لمعاداته، ويتداعونَ لتكذيبه وتحذيرِ النَّاسِ منه، ويُطْلِقُونَ عليه (وهو ذو النَّفْسِ الْأَبِيَّةِ) ألقاباً مُنْفَرَةً كريهةً، تُنافي تماماً ما عُرِفَ عنه من أخلاقٍ وطباعٍ طوالَ أربعين سنة، ثم يتكالبونَ عليه بكلِّ ما في وسعِهِم من عداوةٍ شرسة، وإيذاءٍ جسديٍّ شديد، ومقاطعةٍ طويلةٍ قاسية، وحروبٍ نفسيةٍ عنيفة، وأصنافٍ أُخرى من الإيذاءِ كثيرةٍ مؤلمة.. فهل سيتحملُ ويصبر، أم ينهارُ من كثرةِ المعارضة، وشدةِ الأذى، وقسوةِ المخالفين وعنفهم.. إننا أمامَ نوعٍ من الصبر والثباتِ عجيبٍ ولا مثيلَ له أبداً، فقد قالوا عنه كُذَّابٌ، وقالوا عنه: ساحرٌ، وقالوا عنه: كاهنٌ، وقالوا عنه: شاعرٌ، وقالوا عنه: أتر، وقالوا عنه: مذمم، وقالوا عنه: مجنونٌ، وما تركوا سُخريةً ولا لقباً مُنْفَرًا إلا ورموه به، ولا أسلوباً مؤذياً إلا جربوه معه، ولا حرباً نفسيةً إعلاميةً (قذرةً) إلا مارسوها ضده.. كُلُّ ذلك وهو ثابتٌ صابرٌ..

هجاهُ شعراؤهم، وهاجمهُ خطباؤهم، فهمزوه ولمزوه، وشانوه وعابوه، ونفروا الناس عنه، فثبت وصبر.. عذبوا أتباعه أشدَّ العذابِ، وآذوه فيهم أيما إيذاءً، فثبت وصبر، وأمرهم بالصبر والثبات.. حبسوا قرابته (بني هاشم) في الشَّعبِ وقاطعوهم وجَّعوهم ثلاثَ سنواتٍ حتى أكلوا أوراقَ الشَّجرِ فثبت وصبر.. وضعوا على ظهره وهو ساجدٌ سلا الناقةِ فصبر.. خنقوه بردائه حتى جحظت عيناهُ فصبر.. طاردهُ الصبيانُ والسُّفهاءُ ورموه بالحجارة وبأقذع الكلامِ فثبت وصبر.. عرَّضَ نفسهُ على القبائلِ قبيلةً بعد قبيلة، وكلَّهم قابله أسوأَ مقابلةٍ، وردُّوا عليه بأقبحِ الردودِ وبأبشعِ الكلامِ، فثبت وصبر.. حاصروا بيتهُ بأكثرَ من عشرين رجلاً مسلحينَ بسيوفٍ مسمومةٍ فثبت وصبر.. أخرجوه من مكةَ (أحبَّ الديارِ إليه) كارهاً فصبر.. طاردوه ووضعوا لمن يأتي برأسه (حيًّا أو ميتًا) مائةَ ناقةٍ فثبت وصبر.. جمعوا له الجيوشَ الضخمةَ وحاربوه حربًا لا هوادةَ فيها، فثبت وصبر.. شجُّوا رأسه يومَ أُحدٍ، وكسروا رُباعيته، وقتلوا عمَّه وخوَصَّ أصحابه، فثبت وصبر.. تكالبَ عليه عشرةُ الآلافِ مُقاتِلٍ من كلِّ أطرافِ الجزيرة، وتوحدوا لحربه يومَ الخندقِ، فثبت وصبر.. حاولوا اغتياله عدةَ مراتٍ ووضعوا له السمَّ في الطعامِ، فثبت

وصبر.. اتهموه في عرضه الشريف، وافترخوا على زوجته الطاهرة بهتاناً عظيماً، فثبت وصبر.. أليس هذا شيئاً عجيباً ومذهلاً ولا مثيلاً له.. سنواتٌ طويلةٌ من الصبر والثبات والمجاهدة، تجاوزت العشرين عاماً، كان من الممكن جداً أن يُقتل في أي لحظةٍ منها.. فمن أينَ له كُلُّ هذا الصبر والثبات.. وما الذي يجعله يتحمل كل هذه الآلام والمشاق والمعاناة؟.. وهل يُعقل أن يكون ذلك كله في سبيل جاهٍ أو رياسةٍ أو أيِّ هدفٍ دُنْيوي كان؟..

والله لو كان كاذباً، لتراجع أمام صنوف الأذى والعذاب، ولو أراد مُلكاً أو مالاً، لقبل ما عرضه عليه من المال والنساء والسلطة، مقابل أن يسكت أو يُهادن..

لكنه قال قولته الخالدة لعمه: «والله يا عمّ، لا أترك هذا الأمر حتى يُتمّه الله أو أهلك دونه».. فأبى صبر هذا؟.. وأبى ثبات؟.. والله لا يكون هذا إلا عن يقينٍ لا يتزعزع، وإيمانٍ لا يتزلزل، ووحىٍ من السماء لا يشكُّ فيه لحظة..

ووالله إنَّ هذا الثبات المدهش، والصبر العجيب، والعزم والتصميم المذهل الذي استمر به ﷺ حتى أدى رسالته كاملةً، وبلغ البلاغ المبين، لهو أصدق برهانٍ على صدقه المطلق في دعوته..

وأنه لا يمكن أن يكون إلا عن عقيدة راسخة، وإيمان قوي، ورسالة
كُلِّفَ بتبليغها، فهو لا يتنازل عنها ولو لقي في سبيل ذلك حتفه..
ووالله لو كان في نفسه أدنى قدر من الشك أو التردد، لما استطاع أبداً
أن يصمد ذلك الصمود الأسطوري، ولأكثر من عشرين عاماً
متواصلة.. وصدق الله: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا
إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَأْخُذُوكَ خَلِيلاً ۖ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّرْنَا لَكَ
لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً ۖ﴾ [الإسراء: ٧٣-٧٤]..



الدليل الثالث: شِدَّةُ محبةِ الصحابةِ له ﷺ..

لو ذهبنا نُفَتِّشُ في تاريخِ العلاقاتِ البشريةِ كلها، فلن نجدَ أبداً أنَّ أناساً أحبوا رجلاً حباً استولى على شِغافِ قلوبهم، ومَلَكَ عليهم كلَّ عقولهم وأرواحهم، حتى قدّموه على أنفسهم وأهلهم وأموالهم، مثلما فعلَ الصحابةُ رضوانُ الله عليهم مع النبي ﷺ.. وكان ذلك واضحاً ومشترَكاً لدى الجميع، رجالاً ونساءً، صغاراً وكباراً.. حتى إنَّ عليّاً عليه السلام حين سُئِلَ: كيفَ كان حُبكم لرسول الله ﷺ؟ قال: «كان والله أحبَّ إلينا من أموالنا وأولادنا وأبنائنا وأمهاتنا ومن الماء الباردِ على الظمأ».. وقال عمرو بن العاص: «والله ما كان أحدٌ أحبَّ إليَّ من رسول الله ﷺ ولا أجَلُّ في عيني منه، وما كنتُ أطيقُ أن أُملاً عينيَّ منه إجلالاً له، ولو سُئِلْتُ أن أصفهُ ما أطقْتُ، لأنِّي لم أكن أُملاً عينيَّ منه»..

ثم إنَّ أولئك الذين آمنوا به وصدقوه، لم ينهروا به إلا بعدَ معاشتهم له، ولم يتعلقوا به إلا بعدَ رؤيتهم لكَماله الأخلاقي عن قرب، وقد جرت العادةُ أنَّ العكسَ هو ما يحدث، لأنَّ القربَ من الأشخاص العاديين يكشفُ عيوباً كانت خافية، بينما نجدُ في حالة

الرسول ﷺ أَنَّ الْحُبَّ الْكَبِيرَ وَالتَّعَلُّقَ الْعَظِيمَ بِشَخْصِيَّتِهِ لَمْ يَظْهَرْ إِلَّا بَعْدَ مَعَايِشَتِهِ وَالْقُرْبِ مِنْهُ ﷺ.. يَجْسُدُ ذَلِكَ قَوْلُ ثَمَامَةَ بْنِ أَثَالٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عِنْدَمَا أَسْلَمَ: «وَاللَّهِ مَا كَانَ عَلَى الْأَرْضِ وَجْهٌ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ وَجْهِكَ، فَقَدْ أَصْبَحَ وَجْهُكَ أَحَبَّ الْوُجُوهِ كُلِّهَا إِلَيَّ»..

وقد ترجم الصحابة تلك المحبة العجيبة عملياً، فقد بذلوا أرواحهم ودماءهم وأموالهم رخيصةً في سبيل الله وطاعةً لرسول الله ﷺ وقالوا له: «يا رسول الله، هذه أموالنا بين يديك، خذ منها ما شئت ودع منها ما شئت، وما أخذته منها كان أحبَّ إلينا مما تركته، وهذه أرواحنا بين يديك، فامض بنا حيث أمرك الله، فوالله لو استعرضت بنا البحر لخضناه معك ما تخلف منا أحد»..

ثُمَّ إِنَّ مَظَاهِرَ هَذِهِ الْمَحَبَةِ الْعَجِيبَةِ كَانَتْ لَا فِتْنَةَ لِنَظَرِ الْأَعْدَاءِ قَبْلَ الْأَصْدِقَاءِ، يَقُولُ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَبْلَ إِسْلَامِهِ: «وَاللَّهِ لَقَدْ وَفَدَتْ عَلَى الْمَلُوكِ، وَوَفَدَتْ عَلَى قَيْصَرَ وَكُسْرَى وَالنَّجَاشِيِّ، وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ مَلَكًا قَطُّ يَعْظُمُهُ أَصْحَابُهُ، مَا يَعْظُمُ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ مُحَمَّدًا».. وَكَذَلِكَ قَالَ أَبُو سَفْيَانَ رَضِيَ اللَّهُ قَبْلَ إِسْلَامِهِ: «مَا رَأَيْتُ مِنَ النَّاسِ أَحَدًا يُحِبُّ أَحَدًا، كَحُبِّ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ مُحَمَّدًا»..

والسيرة الصحيحة مليئة بمئات الشواهد على ذلك.. خذ على سبيل المثال ما فعله أبو بكر الصديق رضي الله عنه أثناء الهجرة، ثم تبرعه بكل ماله، وحين يُسأل ماذا تركت لأولادك؟ يقول: تركت لهم الله ورسوله، والفاروق رضي الله عنه يقول: والله لأنت أحب إلي من أهلي ونفسي يا رسول الله، وثوبان رضي الله عنه يجلس في بيته فلا يطيق صبراً حتى يأتيه فينظر إليه، وخبيب بن عدي رضي الله عنه يقول عند قتله: لو أعلم أن محمداً صلى الله عليه وسلم تُصيبه شوكة لفديته بنفسي.. ودفاع الصحابة عنه في يوم أحد معروف مشهور.. فقد قُتل دونه عدد كبير من الصحابة، وفقد طلحة بن عبيد الله يده دفاعاً عنه، وترس أبو دجانة عليه بنفسه، فيقع النبل في ظهره، وهو منحني عليه حتى كثر فيه النبل.. وباشرت أم عمارة المازنية القتال والذب عنه بالسيف والقوس؛ حتى أثختها الجراح.. وبُعيد انتهاء المعركة قيل لامرأة من الأنصار احتسبي أباك وابنك وزوجك وأخاك فقد قتلوا جميعاً.. قالت: وما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا: هو سالم بحمد الله، قالت: حتى أراه، فلما رآته قالت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لا أبالي إذا سلمت.. وغير ذلك من المواقف كثير جداً..

والعقلُ يجزمُ أنَّ محبةَ بهذا المستوى المدهش، لم تكن لتحصُلَ
إلا ليقينهم التَّامَّ بصدقه وصحة ما يدعو إليه، ووضوح ما رأوه من
دلائل نبوته، ولحسن أخلاقه، وروعة تعامله ﷺ.. فهي بهذا من
أقوى الأدلة على صدقه وصحة دعوته ﷺ.. ولو كان كاذباً
- حاشاه - ما اجتمعت عليه قلوب أولئك الصفوة، ولا منحوه تلك
المحبة العجيبة، ولما قدّموه على كل محبوب.. وصدق الله: ﴿لَقَدْ
جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ
عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]..



الدليل الرابع: إعلانة المبكر لعالمية الرسالة..

لقد كان العرب قبل البعثة المحمدية قبائل متفرقة، لا سلطة موحدة تجمعهم، وما لهم من قوة تُذكرُ بين سائر الأمم، بل كانوا على هامش التاريخ، تمزقهم الصراعات الداخلية، وتتحكم فيهم مطامعُ الإمبراطوريات الكبرى، فارسُ من جهة، والروم من الجهة الأخرى، لا يلتفت إليهم أحدٌ باهتمام، ولا يحسبُ لهم أحدٌ أيَّ حساب، وفي وسط هذا الضعف والتمزق، وبينما النبي ﷺ ما يزال في أول دعوته، لا يملك جيشاً، ولا دولةً، ولا قوةً ظاهرةً، وأصحابه يُعذَّبون أمام عينيه، ويُطارَدُ هو نفسه ويُحاصرُ في الشعب، ولا يستطيع دفعَ الضرِّ عن أقرب الناس إليه، في هذا السياق المليء بالضيق والاضطهاد، يُعلن بكل وضوح وثبات، أنه رسول الله إلى الناس كافة.. فهو ليس مرسلاً لقريشٍ وحدها، ولا لسائر القبائل العربية فحسب، بل ولمن وراءهم من الأمم جميعاً، بمن فيهم فارس والروم، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]..

ولم يكن هذا الإعلان المبكر مجردَ دعوى نظرية، أو دعاية محلية.. فما إن هدأت الجبهة الداخلية، بعد صلحه مع قريش في

الحديبية، حتى قامَ بالفعل بمراسلة قيصر الروم، وكسرى فارس، وغيرهم من زعماء الدنيا وأباطرتها في زمانه، يدعوهم إلى الإسلام، ويحدثهم من موقع القوة والندية.. وهو لا يزال في قلة قليلة من أتباعه، وفي وضع اقتصادي صعب للغاية.. فيبعثُ إلى عظيم الروم قائلاً: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ، سَلَامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى، أَمَّا بَعْدُ: فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدَعَايَةِ الْإِسْلَامِ، أَسْلِمَ تَسْلَمَ، أَسْلِمَ يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الْأَرِيسِيِّينَ».. ويبعثُ إلى كسرى ملك فارس، فيقول: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى كِسْرَى عَظِيمِ فَارِسَ، أَسْلِمَ تَسْلَمَ، فَإِنْ أَبَيْتَ فَعَلَيْكَ إِثْمُ الْمَجُوسِ»..

إنها ليست رسائل عادية، وإنما إعلانٌ صريحٌ لعالمية الرسالة، وفي وقتٍ مبكر، وفي وضعٍ لا مجال فيه للمقارنة.. فكيف لرجل ليس لديه من أسباب القوة شيء، أن يخاطبَ من يملك نصف الأرض، قائلاً له: أَسْلِمَ تَسْلَمَ، فَإِنْ أَبَيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ أَتْبَاعِكَ..

حَقُّ وَاللَّهِ للعقل أن يقفَ مندهشاً أمامَ هذا الخطاب الجريء، وأن يتساءل: أليسَ من العقل والمنطق أن يكتفي بدعوة من حوله، أو على الأقل أن يقتصرَ على شبه الجزيرة العربية؟..

أليس من مقتضى الفطنة البشرية أن يكون الخطابُ في مثل هذا الموقفِ دبلوماسياً، يفيضُ بعبارات التقدير والمداراة، علَّه يصلُ إلى هدفه بطريقةٍ آمنة..

ما الذي يدفعُ رجلاً لا يملكُ من أسباب القوة شيئاً، أن يخاطبَ أعظمَ ملوك الأرضِ في زمانه، بأسلوب الندِّ للندِّ، وأن يبدأ باسمه قبل أسمائهم، وأن يحدثهم بكل ثقةٍ و يقين عن سيادة دينه للعالم كله، وأن يخاطبهم بصيغة الأمر: أسلم تسلم، ثم يحذرهم وينذرهم: فإن أبيت فإن أبيت فإن عليك

لماذا يُغامرُ بمخاطبة أقوى ملوك الأرض، ويستفزهم بتلك الدعوات وذلك الأسلوب الجريء، والذي سيعتبرونه تحدياً لهم، ومُنازعةً لسلطانهم.. فإن كان ولا بدَّ من مخاطبتهم بتلك الطريقة، فلينتظر حتى يعلو أمره، ويكثر أتباعه، ويقوى سلطانه..

إننا أمامَ أحدِ رجلين: فإمّا أنه أحمقٌ مجنون، لا يعي عواقبَ ما يقومُ به (وحاشاه)، وإمّا أن يكونَ رسولاً صادقاً، مؤيداً من ربه، يرى بنور اليقين ما لا يراه غيره، ولذا فهو على ثقةٍ مُتناهية بأن الله معه، وأن ما وعده ربه سيتحقق لا محالة، وأن رسالته ستبلغُ الآفاق..

فإذا كان الاحتمال الأول لا يتوافق مع ما يتصف به الرسول ﷺ من ذكاءٍ ورجاحةٍ عقلٍ وحُسنٍ تصرفٍ، فلم يَتَبَقَّ إلا الاحتمال الثاني: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨]..

وحين تمضي السنوات، ويموتُ صاحبُ الرسالة ﷺ، فإذا بالأقذار تسوقُ أصحابه الكرام، الذين كانوا بالأُمس قليلاً مستضعفين، ليكتسحوا في وقتٍ واحدٍ مملكتي فارس والروم، فيهزموا أساطيلهم، ويقضوا على سلطانهم، ويسيطروا على كامل بلدانهم، وليُعلوا فيها كلمة لا إله إلا الله، فتتحقق نبوءته ﷺ كما أخبر تماماً، وكأنما كان ﷺ يرى ذلك بنفسه رأي العين..

نعم لقد تحول ذلك الإعلان المبكر الذي سبق وأن أعلنه النبي ﷺ في أيامه الأولى، تحول إلى واقعٍ مدوٍ يملأ الأسماع والأبصار..

هنا يقفُ العقلُ السليم ليقول: هذه ليست حماسةً بشر، ولا مغامرةً إنسانٍ طموح.. هذا صوتُ نبيٍّ واثقٍ من أمره، مطمئنٌ إلى نصر ربه، مُوقنٌ أنَّ الرسالة التي يحملها قدرٌ لا يُردُّ، ووعدٌ لا يتخلف.. ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾

[المجادلة: ٢١]..



الدليل الخامس: زهده وصموده أمام الإغراءات..

لا شك أن كل من يسعى خلف متاع الدنيا ونعيمها.. لا يمكن أن يطول صموده أمام إغراءاتها متى ما عُرِضت عليه بقوة.. لكننا أمام شخصٍ مختلفٍ كلياً.. فلقد عُرِضَ عليه المال حتى يكون هو الأغنى في بني قومه، فلم يقبل.. وعُرِضَ عليه الملك والشرف حتى لا يُقْطَعَ أمرٌ دونه، فلم يقبل.. وعُرِضَ عليه أن يُزَوَّجَ بأجمل النساء، وبالعدد الذي يشاء، فلم يقبل.. ووالله إن هذا ليس بالهين، فإن ما عُرِضَ عليه لم يكن شيئاً عادياً، بل كان ذروة ما تشوفُ إليه النفوس البشرية؛ فالمال محبوبُ الجميع، والسلطان منصبٌ وقوة، والشهوة تسلبُ العقول، وحيث إنهم لم يحققوا من خلال عرضهم ما يريدون، فقد راحوا يقدمون له التنازلات.. فقالوا له: يا محمد، هلمَّ لنعبدَ إلهك عاماً، وتعبُدَ آلهتنا عاماً، وبالطبع فقد رفض ولم يقبل..

ثم إن من يطالعُ سيرة النبي ﷺ ويتأملها، يعلم أنه كان أزهَدَ الناسِ في الدنيا، وكان أبعدَهم عن بهرجها الزائف، وعن متاعها الفاني، كما يعلم من سيرته أن أحواله وأمره كُلَّها كانت مكشوفةً للجميع.. وكان من السهل على أي شخصٍ أن يراه في كل مكانٍ يذهبُ إليه، في سفره وإقامته، وفي السوق والمسجد، وفي بيته وبين

أصحابه المقربين، وأمام عوام الناس.. وأمام الضيوف وكبار الزوار.. وأنه كان يسكن في غرفة من الطين متواضعة، دانية السقف، قليلة الأثاث، وكان كثيرًا ما يبيت طاوياً من الجوع، حتى إنه لا يجد الدَّقْلَ (التمر الرديء) ليأكله، وعاش حياته يجوع يوماً ويشبع يوماً، وكان يربطُ على بطنه الحجرَ من الجوع، وربما مرَّ عليه الشهرُ والشهرانِ والثلاثة دون أن يوقدَ في بيته ناراً للطبخ، بل ولم يشبع من خبز الشعيرِ حتى مات ﷺ، وكان يوزعُ كلَّ مالٍ يأتيه على فقراء المسلمين، ولم يترك بعده ميراثاً إلا بغلةً وسلاحاً، وأرضاً تركها لابن السبيل.. وحتى عندما انتصر ودانت له الجزيرة كلها، وفُتحت عليه الغنائم، وجاءته الأموالُ أرتالاً، فإذا هو هو، لا يزدادُ إلا زهداً وورعاً، فيوزعُ الغنائمَ الهائلةَ على الناس، ولا يُبقي منها شيئاً، لا لنفسه ولا لورثته، فلم يبن القصور الضخمة، ولم يركب المراكب الفخمة، ولم يحي حياة الملوك والزمعاء.. وحتى إنه حينَ يلقي ربه، يلقاهُ وقد أثرَ الحصارُ في جنبه، ودِرْعُهُ مرهُونةٌ عند يهوديٍّ في كومةٍ من شعير، هكذا عاش ﷺ حياته كلها، وإلى اللحظة الأخيرة، لم يتغيَّر فيه شيء..

ولعقل أن يتساءل: أنى لشخصٍ ما أن يدَّعي النبوةَ كذباً، وأن

يعرّض نفسه لأشدّ أنواع المخاطر والمهالك، وأن يتحمّل في سبيل ذلك ما لا يحتمله بشر، ثم يظلّ طوال عُمره زاهدًا في الدنيا مُعرّضًا عن زخارفها، حارمًا نفسه من أبسط متعتها.. فلم الكذب إذن؟.. ولم كل هذا التعب والحرمان الطويل؟..

إنّ الكاذب مهما عظم هدفه واشتدّ طمعه، فلن يحرم نفسه كلّ هذا الحرمان، ولن يُعرّض حياته للخطر والتهلكة..

فإن قال قائل: إنما كان يبحث عن التعظيم والرئاسة وقد حصل عليها.. فالجواب: إنه ﷺ كان أبعد الناس عن ذلك، وكان ينهى أصحابه قائلًا لا تطروني، إنما أنا عبدٌ فقولوا عبد الله ورسوله.. وإذا نظرت في سيرته إلى نهايتها، فلن تجد أنه قد شيّد قصرًا يمارس فيه مظاهر السلطة والعظمة، أو أنه اتخذ مجلسًا خاصًا بذلك على عادة أهل الرئاسة والزعامة، ولا كان يسمح للرجال أن يقفوا عند رأسه وهو جالس على الطريقة المعتادة عند الملوك وأهل الإمارة، بل لم يكن يتميز عن جلسائه بأيّ مظهر من مظاهر التميز، حتى إنّ الغريب إذا دخل عليه مجلسه، لا يعرفه حتى يسأل: أيكم محمد؟!، وكان ﷺ ينهى أصحابه عن القيام له إذا دخل عليهم، وكان يشتري حاجاته بنفسه، ويساعد أهل بيته في مهنتهم، وكانت الجارية تأخذ

بيده وتذهبُ به ليساعدها في بعض المهام التي طُلِبَ منها تنفيذُها.. ومعاذُ بن جبلٍ رحمتهُ الله حين رأى الناس في الشام يسجدون لملوكهم عند الدخولِ عليهم.. أراد أن يفعلَ مثل ذلك للنبي صلَّى الله عليه وآله وسلم، فنهاه عن ذلك، إلى غير ذلك من عشرات التصرفات والأفعال التي تقطعُ ببُعد صاحبها عن حُبِّ الجاه والسلطنة، وعدمِ اكترائه بأيِّ مظهرٍ من مظاهرها، فضلاً عن أن يكذبَ ويدَّعي النبوةَ من أجلها..

فالعاقلُ المنصفُ يجزمُ باستحالة هذا، وإلا كيف تكونُ حياته كلها من أولها لآخرها زُهدًا منقطعَ النظر، وصبراً على شظف العيشِ عجيباً، وتحملاً للأذى ليسَ له مثيل، وثباتاً على ما يدعو إليه لا يتزحزحُ عنه ولا يميل، هذا والله لا يكونُ إلا من رجلٍ صادق.. والله لو كانَ محمدٌ صلَّى الله عليه وآله وسلم كاذباً وحاشاه، لما استطاعَ أن يرفضَ كلَّ تلك العروض والإغراءات القوية.. لكنه كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنَّ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [سبأ: ٤٧]..



الدليل السادس: توازن شخصيته ﷺ وتكاملها..

المقصودُ بتوازن الشخصية هو اعتدال الاهتمام بكافة جوانب الحياة وأدوارها المختلفة على حدٍّ سواء، بحيث لا يكون الاهتمام بجانب سبباً في إهمال بعض الجوانب الأخرى..

ومن يدرس سيرة النبي ﷺ يرى أنه أُمَامَ إنسان ولدَ تحت النور، ويلاحظُ أنَّ أدقَ تفاصيل حياته مُنذُ ولادته وإلى وفاته، كانت كلها مكشوفةً لا يخفى منها شيء، وأنه طوال حياته لم يُعرف عنه إلا النُبْلُ والخُلُقُ الكريم، والطُهرُ والعفاف، والصدق والأمانة، والتعاملُ الحسنُ الجميل، حتى لقبه قومه بالصادق الأمين..

والمُتأملُ في شخصية الرسول ﷺ، يرى كيف تجسدت فيه كلُّ أدوار الحياة بشكل مُتكامل ومتوازن، ودون نقصٍ أو خلل، فهو ﷺ العابدُ الذي لا يفتُرُ لسانه عن ذكر الله.. القائمُ المصلي حتى تتورم قدماه.. فإذا رأيته في الحروب، وجدته قائداً مُلهماً عبقرياً، ينظمُ الجيشَ ويُديرُ الأمورَ بكل حنكة وكفاءة، وفي ساحات القتالِ تراه فارساً شجاعاً ما من أحدٍ أقربُ للعدو منه.. ثم هو في الجانب السياسي، زعيمٌ فذٌّ لا يُبارى، يؤسسُ الدولةَ ويُديرها بكل براعةٍ

وجدارة.. وفي الجانب التشريعي، تراه قاضياً مُنصفاً، أحكامه في غاية العدل والنزاهة.. وفي الجانب الاجتماعي، تراه زوجاً محباً لزوجاته، وأباً في غاية الحنان على بُنياته، وشخصاً وُصُولاً لأرحامه وذوي قراته.. وجاراً ودوداً مُحسناً لجيرانه.. وفي الجانب الأخلاقي، تراه النموذج الأرقى في التعامل الحسن مع جميع الناس.. وفي الجانب التربوي، تراه المعلم المثالي في تعليمه، والمربي الشفيق النَّاصِح لطلابه، وفي الجانب الدَّعوي، فهو الدَّاعيةُ الحَكيم، والخطيبُ المفوه، والواعظُ البليغ.. وهكذا كلما تأملت جانباً من جوانب شخصيته المتوازنة المتكاملة، وجدته على أكمل وجه..

بينما الناظر في الطبائع الإنسانية يدرك أن البشرية عبر تاريخها الطويل تقفُ شاهدةً على أن من يتفوق في بعض الجوانب يضعفُ بالضرورة في الجوانب الأخرى.. فالقائد العسكري الصارم، كثيراً ما يكون جافاً في بيته، والمربي الرقيق غالباً ما يفشل في الإدارة، والعبقري المفكر قد لا يحسنُ التواصل مع الآخرين.. وهكذا فالإنسانُ مهما بلغ من التميز فإن تميزه لا يكتملُ من كل الجوانب، وكيف يمكنُ لطاقةٍ بشريةٍ محدودةٍ أن تتسعَ لكل الأضدادِ المتناظرة: الحكمة مع الحزم، والرفقة مع القوة، والحزم مع اللين،

فإذا وجدَ من يجمعُ هذه المتناقضات كلها في نسقٍ واحدٍ متوازن، دون ميل ولا اضطراب.. فهنا يتوقفُ العقلُ متسائلًا: من أين جاء هذا الاتساقُ العجيب؟.. لا شك أنه اصطفاءُ ربانيٍّ حكيم، وتأيدٌ إلهيٌّ لهذا النبيِّ الكريم، حتى يؤدي رسالتهُ على الوجه الأكمل..

ثم إنَّ كلَّ من كانَ له أدنى معرفةٍ بالسلوك الإنساني والنَّفسي وأبعاده.. يُدركُ كيفَ كانَ ﷺ يتمتعُ بنفسيةٍ سويةٍ مثالية، وتوازنٍ سلوكيٍّ مُنتظم، وشخصية متكاملة، فقد كان مُتوازنًا بين ما يقولُ وما يفعل، وما أمرَ بشيءٍ إلا ويكونُ هو أكثرَ الناسِ تطبيقًا له، ولا نهى عن شيءٍ إلا كان هو أبعدَ الناسِ عنه.. وكان مُتوازنًا بين الحزم واللين، فكان مُنطلقَ الوجه، دائمَ البشرِ والابتسامَةِ، ما ضربَ أحدًا بيده إلا أن يُجاهدَ في سبيل الله، ولا يغضبُ إلا إذا انتهكت حُرُماتُ الله، وكان مُتوازنًا في جدِّه وهزلِهِ، فكان لا يقولُ إلا الصدق، ولا يتكلمُ إلا بالحقِّ، حتى لو كان مازحًا، وكان مُتوازنًا في أخلاقه، فلا يغلبُ غَضَبُهُ حِلْمَهُ، ولا قُوَّتُهُ عَفْوَه، ولا حزمُهُ رِفْقَهُ، ولا عدْلُهُ رحمته، وكان مُتوازنًا في عباداته، يصومُ ويُفطر، ويُصلي وينام، كما جاء في الحديث الصحيح: «إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ».. وكان ﷺ قبل

البعثة وبعدها يُمثَّل في شخصيته: أسمى مثال لكمال الإنسان الخَلقي والخُلقي والعقلي والنَّفسي، وكُلُّ بني قومه كانوا يُقرون له ﷺ برجاحة عقله، وكمال رجولته، وعلو مكانته، وشرف نسبه، وطيب معدنه، وروعة تعامله، ولين جانبه، وحُسن خلقه، وجمال منطقته، واستقرار نفسيته، وتوازن حياته، وتكامل شخصيته.. فإذا جاء من يقول إنَّ هذا كله ليس اصطفاءً ربانيًّا، وإنَّ الله لم يهيئه لهذا الكمال الفريد، وزعم أن ذلك محض عبقرية فذة، أو نتاج بيئة تربوية معينة، فليات إذن بنظير مثله، بلغ هذا المستوى من الاعتدال والكمال في جميع الميادين، وعاش حياته كلها بلا اضطراب ولا انحراف ولا خلل.. ووالله لن يجد مهما فتش وبحث..

لأن هذا النِّسق المتكامل لا يكفيه الذكاء، ولا تمنحه البيئة، ولا بينه التعليم، وإنما هو أثر الوحي، وعلامة النبوة، وختم الاصطفاء.. ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ۝ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى ۝﴾ [النجم: ٥-٦].. ومن هنا كان رسول الله ﷺ هو الأسوة الكاملة، والنموذج الأعلى، الذي جعله الله قدوة لجميع المسلمين: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]..



الدليل السابع: تبثله وكثرة عبادته لربه جلَّ وعلا..

إن من أعجب ما يُستدلُّ به على صدق الرسول ﷺ أن الله لم يجعله مشرعاً للدين فقط، بل جعله صورةً مجسدةً للشرعة.. فمحافظة النبي ﷺ الشديدة على أداء العبادات والقربات لم تكن مجرد أداءٍ لواجب، ولا استجابةً لأمرٍ إلهي فحسب، بل كانت تجسيداً حياً لمهمته في تزكية النفوس، وتعليم الدين، كما قال تعالى:

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].. فكانت حياته ﷺ صورةً عمليةً لتوجيهات الوحي، كأنما هو قرآنٌ يمشي على الأرض، وليُغلق الباب على كلِّ مقصرٍ يتعللُ بأنَّ العبادات شاقةٌ ولا يمكنُ الاستمرارُ عليها، فجاءت حياته ﷺ لتقول: هذا هو الإنسان كما يريدُه الله تعالى.. ومع أنه ﷺ عاش في قمة الانشغال: يؤسس دولةً، ويربي أمةً، ويدير أمور الناس، ويواجه أعداءً متربصين في الداخل والخارج، ويتحملُ الكثير من المسؤوليات الجسيمة، إلا أنه كان أكثر الناس عبادةً لربه جلَّ وعلا..

ومما يلفتُ النظرَ أنَّ كثرةَ عبادته ﷺ لم تكن مجردَ تعلقٍ روحي

منفصلٍ عن عمله ودعوته، بل كانت العبادة أعظم معينٍ له على القيام بمهامه الدعوية والدينية.. وهذا ما بينه الله تعالى بقوله: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ٤٥]، فالصلاة ليست مجرد شعيرة، بل مصدر طاقةٍ للثبات، وقوةً على مواجهة الشدائد والملمات.. وحتى حين يضيق صدره بما يلقاه من الإعراض والأذى، كان يفرغ للصلاة، تأمل: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ (١٧) ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٩٧-٩٨]، وقال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ [طه: ١٣٠]..

ولقد كانت محافظة النبي ﷺ الشديدة على أداء جميع العبادات والقربات، سمة ظاهرة جدًا، ثم إنَّ كلَّ الصلوات لا تؤدي إلا في المسجد جماعةً، بالإضافة إلى المحافظة على النوافل القبليّة والبعديّة، وقيام الليل قيامًا طويلًا، حتى إنه ربما قرأ في الركعة الواحدة بالبقرة والنساء وآل عمران، يقرأ مترسلاً، إذا مرّ بآية رحمة سأل، وإذا مرّ بآية عذاب استعاذ، وإذا مرّ بآية تسبيح سبح.. ثم مواصلة للصوم يومين أو ثلاثة، يصوم حتى يُقال لا يفطر، ويفطر حتى يُقال لا يصوم، فيصوم شعبان كله، ومحرمًا كله، ويصوم من

كل شهرٍ ثلاثة أيام، ويصومُ الاثنين والخميس.. ثمَّ منظومةٌ كبيرةٌ من الأذكار التي كان يُحافظُ عليها على مدار اليوم واللييلة، فعندَ النوم والاستيقاظِ أذكار، وعندَ الأكلِ والفراغِ منه أذكار، وللصباحِ أذكار، وللمساءِ أذكار، وعندَ دخول البيت أو الخروجِ منه، وعندَ دخول المسجدِ أو الخروجِ منه، وعندَ دخولِ الخلاء أو الخروجِ منه، وعندَ ركوبِ الدابة، وعندَ السَّفرِ أو الرجوعِ منه، وعندَ ارتداءِ الملابسِ أو خلعِها، وهكذا فكلُّ نشاطٍ من أنشطة الحياة له ذكرٌ، حتى أخصَّ خصوصياتِ الإنسانِ وهو الجِماعُ أيضًا له ذكرٌ.. تقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: «كان يُعَدُّ له في المجلس الواحد أكثر من سبعين استغفارًا»، ويقول: «يا أيها الناس توبوا إلى الله، فإني أتوب إليه في اليوم مئة مرة».. وكان له وردٌ من القرآن لا يتركه..

ثمَّ انظر إلى حاله في الخلوة: فلو كانت العبادة مجردَ مظهر اجتماعي لسقطَ القناعُ في الليل، حيث لا يراه أحد.. ومعلومٌ أنَّ الإنسانَ إذا خلا بنفسه، فإنه يكونُ حينها أبعدَ ما يكونُ عن الرياء والتصنع.. وهناك يتمايزُ الصادقُ من المدَّعي، وهناك كان محمدٌ صلى الله عليه وسلم أعبدَ الناس لربه، وأصدقهم مناجاة، وأشدَّهم تعلقًا بمولاه جلَّ في علاه.. ولو كان صلى الله عليه وسلم مفترًا كما يزعمُ الزاعمون وحاشاه، لكان

أَوَّلَ من يتركُ العبادةَ في خلوته.. لكنه على العكس من ذلك تمامًا:
ففي صلاة الليل كان بكاءً وضراعةً، وفي الخلوة مُناجاةً
ومناشدته.. يقول الصحابي عبدالله بن الشَّخِير رحمته الله: «أَتَيْتُ النَّبِيَّ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يُصلي، ولجوفه أزيزٌ كأزيزِ المرجلِ من البكاء»..

فهل من تتورمُ قدماءُ من طول القيام، وتبتلُ لحيتهُ ومكانُ
سجوده من كثرة دموعه، ويُسمعُ لصدره أزيزٌ كأزيزِ المرجلِ من
البكاء.. هل يحتاجُ بعد هذا إلى برهانٍ يثبت صدقه؟.. أم أنَّ الحالَ
أبلغُ من أيِّ مقالٍ؟..

وهل يُعقلُ أن تكونَ هذه الطاعاتُ الكثيرة، والعباداتُ
المتواصلةُ من رجلٍ كاذبٍ؟..

إنَّ العقلَ والمنطقَ يرفضُ ذلك بشدة، وما من مبررٍ منطقي
مقبولٍ إلا أن تكونَ مهمتهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هي أن يصلَّ النَّاسَ بخالقهم، وأن
يُعبدَهم لربهم، وأن يزكيَ أخلاقهم، ويرتقيَ بسلوكياتهم، وأن يكونَ
هو القدوةَ الحسنةَ لهم في كلِّ ذلك.. وأن تكونَ العبادةُ عونًا له على
أداء مهامهِ الدعوية، وواجباتهِ الاجتماعية، وأن يكونَ هو كما قال
عن نفسه: «أفلا أكون عبداً شكوراً»..

ولا شك أنَّ أيَّ منهجٍ تربويٍّ لن يكونَ له أثرٌ حَقِيقِيٌّ، إلا بوجودِ نماذجٍ بشريةٍ (قُدوات) تُثَبِّتُ مِصْدَاقِيَّةَ المَنهجِ وجدارته، وتظهرُ محاسنه وتؤكدُ واقِعِيَّته.. ولا شكَّ أنَّ القُدوةَ الحسنَةَ يبلغُ بلسانِ حالِه ما لا يبلغُه بلسانِ مقالِه.. فهو يَعكُسُ تصوُّراً واضحاً، وتجسيدا صادقاً للمنهج الذي يدعو إليه، ويتركُ انطباعاً حسناً يؤثرُ في الآخرين ويُغريهم بالتعرُّفِ عليه.. ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]..



الدليل الثامن: فصاحته وحسن بيانه ﷺ..

فمن المتقرر عند أهل اللغة والبيان أن البلاغة والفصاحة لا تُكتسب من فراغ، ولا يبلغ أحدٌ غايتها إلا بعد ممارساتٍ لغويةٍ طويلة، وكدٍّ في الإنشاء والصياغة كبير، وتلمذٍ على أيدي أهل اللغة وأساليبهم.. وبعد رصيدٍ قرائي ضخيم يورثُ صاحبه مخزونًا ثقافيًا كافيًا، لكن الرسول ﷺ نشأ أُمِّيًّا في أُمَّةٍ أُمِّيَّة، لم يقرأ كتابًا، ولم يكتب حرفًا، ولم يحضر درسًا، ولم يجالس شيخًا، ولم يتردد على ديوان، ومع ذلك فقد بلغ قمة الفصاحة، وذروة البيان، حتى شهد له القاصي والداني أنه أفصحُ الناسِ لسانًا، وأحسنُهم بيانًا، وأبلغُهم كلامًا، وأقواهم تأثيرًا.. فكان إذا تكلم أخذ بالألباب، وإذا خطبَ تحركت له القلوب، وإذا وعظ خضع له السامعون، يأسرُ بكلماته العقولَ قبل القلوب.. قد أوتي من تمام الإقناع مع جمال المبنى، وعمق المعنى، وقوة المغزى، ما لم يؤت غيره.. واختصر له الكلام اختصارًا حتى صار كلامه مَثَلًا يُحتجُّ به، ويُحفظ بالرواية والسند، ويُشرح بالمطولات، وتُستخرج منه الفوائد والعظات.. ويُدرّس في المعاهد والجامعات، وتُبنى عليها قواعد الإدارة والقيادة والتربية وتطوير الذات..

فأني لرجل أمي لا يقرأ ولا يكتب، في أمة أمية لا تقرأ ولا تكتب، ثم يأتي بكلام يعجز عنه فحول البلغاء، ويؤزري بكبار الحكماء والأدباء.. لا شك أن هذا لم يأت من كسب ذاتي، ولا من تعليم بشري، وإنما هو هبة من الله، وتأييد رباني له ليلبغ رسالة ربه واضحة مقنعة، أسرة مؤثرة.. ففي صحيح مسلم، قال عليه الصلاة والسلام: «نصرت بالرغب وأوتيت جوامع الكلم»..

ولقد وصفه علي بن أبي طالب عليه السلام فقال: «كان إذا تكلم تلاًّ كأن نوراً يخرج من بين ثناياه».. وقال أبو هريرة رضي الله عنه: «ما رأيت أحداً أسرع في كلام ولا أفصح من رسول الله صلى الله عليه وسلم».. وقال البراء بن عازب رضي الله عنه: «ما رأيت أحداً أحسن حديثاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم».. وقال بعض الصحابة عن خطبه وكلامه: «ما رأينا قبله ولا بعده مثله في فصاحته وبلاغته».. وقال التابعي الجليل الحسن البصري رحمه الله: «كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا تكلم خشعت له القلوب، وذرفت منه العيون، وأصغت له الأسماع، كأنه ينطق عن رب العزة».. وقال الامام ابن القيم رحمه الله: «كان صلى الله عليه وسلم أفصح خلق الله، وأعذبهم كلاماً، وأسرعهم أداءً، وأبلغهم معنى، كان إذا تكلم، تكلم بكلام مفصل مبين، لا يملأه سامع، ولا يعجز عن حفظه حافظ».. وقال الحافظ

الذهبي في سير أعلام النبلاء: «فلو لم يكن للنبي ﷺ من المعجزات إلا فصاحة لسانه، وبلاغة بيانه، لكفى ذلك في إثبات نبوته، كيف وقد أُوتِيَ جوامع الكلم».. وقد سُئِلَ الجاحظُ مرةً: ما أعجب ما وجدت في كلام النبي ﷺ؟.. فقال: كلامه يجمع بين ثلاث: البيان، والحكمة، والتأثير.. وما اجتمعن في كلام بشرٍ غيره.. وقال أحدُ الأعراب الذين سمعوا حديثه ﷺ: «ما هذا بكلام كهنة، ولا بقول سحرة، ولا بسجع شعراء.. هذا كلامٌ فوق كلام البشر»..

ولقد جاء في حديثٍ صحيح، قوله عليه الصلاة والسلام: «إنَّ من البيانِ سحراً، وإنَّ من الشُّعْرِ حِكْماً»، وما من بيانٍ ينطبق عليه هذا الوصف أولى من بيانه هو عليه الصلاة والسلام، فإنَّ كلَّ عبارةٍ ينطقُ بها ﷺ تحملُ في طياتها كنوزاً من المعاني الغزيرة، وتختصرُ صفحاتٍ طويلةً من الحكمة والبصيرة.. كقوله ﷺ: «الدينُ النصيحة».. «تهادوا تحابوا».. «إنما الأعمال بالنيات».. «المرءُ على دين خليله».. «كما تدين تُدان».. «قل آمنتُ بالله ثم استقم».. «لا ضررَ ولا ضرارَ».. «احفظ الله يحفظك».. «المسلمُ من سلمَ المسلمون من لسانه ويده».. «الدينُ المعاملة».. «الدالُّ على الخير كفاعله».. «دع ما يُريبك إلى ما لا يُريبك».. «من حُسن إسلام المرءِ

تركه ما لا يعنيه».. «اتقِ الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن».. وغيرها كثير.. عبارات موجزة بليغة، لا تتجاوز في كل مرة سطرًا أو نصف سطر!.. لكنها توازي موسوعة تربوية كاملة.. وهذا يدلُّ على قوَّة بيانه، وتأيد السماء له ﷺ..

بل إنك لتجد في كلامه تناسقًا عجيبًا بين المبنى والمعنى، واللفظ والسياق، والأسلوب والمقصد، مما لا يصدر عن بشرٍ عادي، ولا يتأتى لإنسانٍ يفكرُ بنفسه أو يفتعلُ البلاغة افتعالًا.. وقد علّق الجاحظ وهو من أعظم أدباء العرب بقوله: «لو لم يكن لمحمد ﷺ معجزةٌ إلا كلامه، لكان في ذلك آيةٌ على أنه نبيٌّ»..

حتى المستشرقون المنصفون وقفوا مذهوشين أمام بلاغته، فهذا المستشرق «مارسيل بوازار» يقول: «كان محمدٌ خطيبًا مفوّهًا يأسرُ القلوبَ ببيانه.. ولم يكن أحدٌ من العرب يُضاهيه في فصاحة اللسان، وروعة البيان».. وقال المستشرق الألماني، يوهان فولفغانغ غوته: «محمدٌ خطيبٌ عبقرى، لا يستطيعُ إنكارَ فصاحته إلا جاحد، كلامه يترك أثرًا في النفوس لا تمحوهُ السنون».. وقال المستشرق توماس كارلايل (الكاتب الإنجليزي الكبير، والحائز على وسام الاستحقاق الملكي): «كان محمدٌ يتكلمُ بكلماتٍ قليلة، لكنها تنفذُ إلى

القلوب، وكانت كلماته نارا تُذيبُ الأغلال، ونورا يبددُ الظلمات، رجلٌ لا يُجارى في عزمته ولا يُبارى في منطقته.. وأمّا المفكرُ الفرنسي لامارتين فقال: «إنّ فصاحةَ محمدٍ كانت خارقة، وتأثيره البياني كان فوق الوصف، لا يستطيعُ أحدٌ أن يستمعَ إليه دون أن يتأثر قلبه، لقد كان ﷺ نبياً وخطيباً ومُصلحاً وإنساناً عظيماً بكل معنى الكلمة».. وأمّا الدكتور مايكل هارت (صاحب كتاب «الخالدون مئة») فقال: «لقد اخترتُ محمداً ﷺ أولَ هؤلاء المئة لأنه الوحيد الذي نجح نجاحاً مُدهشاً على المستويين: الديني والدنيوي، وهو الذي ألهم أتباعه بكلامه وسيرته وأخلاقه».. وقال أستاذ الدراسات الإسلامية بجامعة إدنبرة: مونتغمري وات: «من الجليّ أنّ بلاغة النبي ﷺ وفصاحته البديعة كانت من أعظم أسباب تأثيره، وقدرته على جذب الأتباع والإقناع برسالته، وهذا لا يكونُ إلا لعظيم البيان».. وقالت الفيلسوفة البريطانية آن بيزيت: «من المستحيل لأيّ شخصٍ يدرس حياة محمدٍ ﷺ بإنصاف، ويعرف كيف عاش وما الذي علّمه الناس، ألا يشعر بالاجلال لهذا النبيّ الفصيح المعبر عن أعظم القيم، مهما اختلفت العقيدة».. والمفكر الفرنسي ليوبولد فايس (الذي أسلم لاحقاً وسمّي «محمد أسد»): قال: «كلماتُ

محمدٍ كانت أقوى من السيف، لأنها حرّكت القلوب قبل أن تغير
الوقائع، وكان منطقهُ جاذبًا من غير تكلفٍ، عميقًا بلا غموض، وهذه
سمةٌ لا تكونُ إلا لأنبياء الحقّ..

وغيرهم من الكتاب والمفكرين كثير..

فكلُّ هذه الشهاداتِ المتضافرة تؤكدُ أنَّ فصاحتَهُ وبيانهُ ﷺ كان
مُعجزةً نبوية، ووسيلةً ربانيةً لإيصال الرسالة.. وأنه ﷺ كما قال
تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣-٤].



الدليل التاسع: تجرده وثقته المطلقة بمن أرسله..

المتأمل في سيرة النبي ﷺ يلحظ أن جميع تحركاته الدعوية والإصلاحية كانت نابعة من يقين جازم بأنه رسول مؤتمن على رسالة الله، وأنه لا يتصرف من نفسه ولا لنفسه، وإنما يبلغ ما أمر بتبليغه.. وأنه كان يستمد قوته من شعوره بأنه مأمور من السماء، وبأنه يأوي إلى ركن شديد قادر على حمايته ونصرتِه وتأييده حتى يؤدي مهمته على الوجه المطلوب.. ولذلك كان يبلغ كل ما أمر به دون أدنى تردد، ولو خالف ذلك ما تهواه النفس.. ومن تأمل مواقفه رأى ﷺ رأى دلائل ذلك التجرد ظاهرة في كل خطوة من خطواته.. تأمل: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧].. وكثيرة هي الشواهد والأحداث الدالة على ذلك ومنها:-

حين مات عمه أبو طالب على الكفر، وقد كان ينصره ويدافع عنه، فحزن عليه حزناً شديداً وقال: «أستغفرن لك ما لم أنه عنك».. فنزل قوله تعالى: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣].. فلو كان ذا مشروع شخصي، لمال مع

العاطفة، لكنه ﷺ خضع لأمر ربه دون تردد..

والموقف الثاني: حين دخل عليه سادة قريش يطلبون منه مجلساً خاصاً بلا فقراء، حفاظاً على مكانتهم، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَقْرُؤُا الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام: ٥٢].. فاستمر ﷺ يجلس مع بلال وصهيب وابن مسعود وأمثالهم، ولم يستجب لطلب السادة.. ولو كان يسعى لبناء مجد دنيوي، لما ضحى بتأييد زعماء قومه من أجل فقراء مستضعفين، ولكنه كان يبلغ رسالة تؤسس مبدأ المساواة، وتكرّم الإنسان من حيث هو إنسان..

والموقف الثالث: بعد معركة حُنين، وحصول المسلمين على غنائم هائلة، فقد أعطى ﷺ المؤلفة قلوبهم من الغنائم، وترك الأنصار، فوجد بعضهم في نفسه، فجمعهم ﷺ وخطب فيهم قائلاً: «يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ! أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضَلَالًا فَهَدَاكُمْ اللَّهُ بِي، وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمُ اللَّهُ بِي، وَكُنْتُمْ عَالَةً فَأَغْنَاكُمْ اللَّهُ بِي؟. أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ، وَتَذْهَبُونَ بِالنَّبِيِّ إِلَى رِحَالِكُمْ؟. لَوْ لَا الْهَجْرَةُ لَكُنْتُ أَمْرًا مِنَ الْأَنْصَارِ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ وَادِيًا وَشِعْبًا لَسَلَكْتُ وَادِي الْأَنْصَارِ وَشِعْبَهَا، الْأَنْصَارُ شِعَارٌ، وَالنَّاسُ دِثَارٌ»..

وهكذا فرجل يُدير دولة، ثم يحرم أقرب الناس إليه من العطاء،

لا لشيءٍ إلا لأنه يتبع أمر الله، ثم يُخاطبهم بخطابٍ وجدانيٍّ إيمانيٍّ لا بخطابٍ سياسيٍّ.. خطابٍ نبويٍّ يربي النفوس، لا قائدٍ يسعى لتثبيت حكمه.. فهذا لا يفعله إلا شخصٌ متجردٌ من ذاته، لا يطلبُ رضاهم لنفسه، وإنما لربه جلَّ وعَلا..

ومن نظرَ في التشريعات التي جاء بها ﷺ، فسيرى وجهًا آخر من وجوه تجرده؛ ودليلاً جديداً على صدقه؛ وسيزداد يقيناً بأنَّ هذه التشريعات لا يمكن أن تصدر من كاذبٍ مدَّعٍ للنبوة.. فالكاذبُ الذي يسعى لكسب تأييد الناس لا بدَّ أن تكون تشريعاته سهلةً ميسرةً حتى لا ينفروا منه..

وإلا فما مصلحةُ الكذابِ المدَّعي أن يُلزم أتباعه بأوامرٍ وتشريعاتٍ تتوغل في كل شؤون حياتهم، وفيها الكثير من الجهد والمشقة، وتقييد الحريات، وكبح الشهوات، والقيام بالكثير من الفرائض والواجبات.. هذا ليس من العقل والمنطق في شيء..

ما مصلحةُ المدَّعي الكذاب أن يمنع الناس من شرب ما يعشقون.. ألم تكن الخمرُ عادةً محبوبةً ومتأصلةً في حياتهم، شبَّ عليها الصغير، وهرم فيها الكبير، فلماذا حرَّمها عليهم، وعدَّها من أكبر الكبائر.. ولماذا شدَّد عليهم في الربا وهو من أوسع أبواب

المكاسب عندهم، ولماذا منع الرجال من لبس الذهب والحديد.. ولماذا نهى عن بيع السلع قبل حيازتها، وعن بيع الثمار قبل نضوجها، وعن بيع ما لا يملك الإنسان، وغيرها من المعاملات الكثيرة.. وما الذي يحمّله على محاربة العنصرية والفخر بالأحساب والأنساب، مع أنه ليس في حاجة إلى شيء من ذلك.. فهو أشرف العرب نسباً، وأرفعهم مكانة.. وقد خسر بذلك تأييد الكثير من عليّة القوم الذين لم يُناسبهم أن يتساووا مع العبيد والضعفاء.. وما الذي يجعل مُدعيًا للنبوّة يضيّق الخناق على أتباعه، فيُلزِمهم بالاعتقاد على أربع زوجات، وقد كانوا يتزوجون قبله بالعدد الذي يشاءون.. ولماذا يُلزم النساء بالحجاب، ويحرّم على الرجال مصافحة الأجنبية، والخلوة بهن، والدخول عليهن بلا محرّم.. وما فائدته من تحريم إتيان الزوجة في الدبر أو في قتي الحيض.. وما مصلحته من تشريع الصوم شهراً كاملاً، وأن يصلي الرجال في المسجد خمس مرات يومياً.. وما هو المبرر المنطقي والعقلي لرجل كاذب أن يأمر أتباعه بأداء الصلاة حتى في شدة القتال، والذي ربما يُهزم جيشه بسببها. أليس من المنطقي أن يأمرهم بالتفرغ للقتال، ثم يقضوا ما فاتهم بعد ذلك..

فما حاجة الكذاب المدّعي أن يُحمّل أتباعه كلّ هذا العناء.. إذا

لم يكن فعلاً مأموراً من السماء؟..

أليس من المفترض إن كان مُدعيًا للنبوة أن تتمركز شريعته حول إحكام سيطرته على الأمور، وعدم التدخل في شئونهم الخاصة إلا بالقدر الذي يدعم سيطرته عليهم، وإخضاعهم له، وما عدا ذلك؛ فالأولى أن يتركه للناس تأليفاً لقلوبهم، وكسباً لتعاطفهم، طالما أن ذلك لا يؤثر سلباً على سلطته ومصالحته..

ثم انظر إلى تجرده وابتعاده عن مظاهر السلطة: فهو لم يعمل على تكريس امتيازاته، ولا على توريث الحكم لأهل بيته، ولا على حيازة الأموال والثروات لأقربائه.. فعلى الرغم من حبه الكبير لابنته فاطمة وزوجها عليٍّ عليه السلام، فإنه لم يُورث لهم النبوة، ولم يضع تشريعاً يضمن استمرار السلطة فيهم من بعده، وإنما مات ﷺ وترك أمر الأمة شورى، وقال: «نحن معاشر الأنبياء لا نُورث، ما تركناه صدقه».. فهل يفعل هذا من يسعى إلى ملكٍ أو دنيا؟!..

إنما هو نبيٌّ متجردٌ من ذاته، همه أن يبلغ رسالة ربه على الوجه المطلوب.. ولو ذهبنا نتأمل مواقف حياة الرسول ﷺ موقفاً بعد موقف، فسنجد أنه كان دائماً ثابت القلب، مطمئن النفس، واثق الخطى، تصرفاته وردود أفعاله كلها نابعة من يقينٍ راسخٍ بأن الله

حافظه ومؤيده، ومعينه وناصره.. وسنجدُ أيضًا أنه ﷺ ما كان يسعى لمصلحة شخصية، وإنما كان يتحركُ على هديٍّ من الوحي، ليبلغ ما أُمر بتبليغه، لا يطلبُ جزاءً ولا شكورًا، وإنما يرجو وجه الله وحده.. وصدق الله: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنَّ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [سبأ: ٤٧]..



الدليل العاشر: استحالة استمرار الكذب..

إِنَّ مِنَ الْبَدِيهِيِّ الْبَيِّنِ أَنَّ كُلَّ مَنْ يَدَّعِي أَمْرًا (عَظِيمًا) وَيَسْتَمِرُّ عَلَيْهِ زَمَنًا طَوِيلًا، فَلَا بَدَّ أَنْ يَظْهَرَ صِدْقُهُ مِنْ كَذِبِهِ، وَعَلَى رَأْسِ ذَلِكَ مَدْعِي النَّبُوءَةِ، فَهُوَ إِمَّا أَنْ يَكُونَ: أَصْدَقَ النَّاسِ وَأَفْضَلَهُمْ، (لَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي اخْتَارَهُ)، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ أَكْذَبَ النَّاسِ وَأَفْجَرَهُمْ؛ (لَأَنَّ الْكَذِبَ عَلَى اللَّهِ هُوَ الْأَسْوَأُ)، وَكِلَاهُمَا يَسْتَحِيلُ أَنْ يَلْتَبَسَ أَمْرُهُ عَلَى أَحَدٍ.. وَكَيْفَ يَلْتَبَسُ أَفْضَلُ الْخَلْقِ بِأَسْوَأِهِمْ، وَكَيْفَ لَا يَسْهُلُ تَمْيِيزُ أَصْدَقِ النَّاسِ مِنْ أَكْذِبِهِمْ، خُصُوصًا مَعَ انْتِشَارِ الْأَمْرِ، وَامْتِدَادِ الْفَتْرَةِ، وَضَخَامَةِ الْحَدَثِ، وَتَنَوُّعِ الْوَقَائِعِ، وَكَثْرَةِ التَّحْدِيَّاتِ.. وَمَا مِنْ عَاقِلٍ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُصَدِّقَ أَنَّ شَخْصًا يَكْذِبُ عَلَى اللَّهِ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَهُوَ فِي نَفْسِ الْوَقْتِ مُلْتَزِمٌ بِأَعْلَى مَعَايِيرِ الصِّدْقِ طَوَالَ حَيَاتِهِ، وَفِي كُلِّ شَأْنِهِ وَأَحْوَالِهِ، وَمَعَ جَمِيعِ النَّاسِ.. وَهُوَ مِنْ يُلْقَبُ بَيْنَ قَوْمِهِ بِالصَّادِقِ الْأَمِينِ، وَهُوَ مَنْ يَشْهَدُ لَهُ الْقَاصِي وَالِدَّانِي أَنَّهُ مَا كَذَبَ قَطُّ، بَلْ كَانَ يَحَارِبُ الْكَذِبَ حَرْبًا لَا هَوَادَةَ فِيهَا، وَيَشْنَعُ عَلَى الْكَاذِبِينَ، وَيَصِفُهُمْ بِأَشْنَعِ الصِّفَاتِ، وَيَعِدُّهُمْ مِنَ الْمُنَافِقِينَ، وَيَنْفَرُ مِنَ الْكَذِبِ وَلَوْ كَانَ مِزَاحًا.. وَهُوَ فِي نَفْسِ الْوَقْتِ مَنْ كَانَتِ الْعَيُونُ تَرَصُّدُهُ وَتَحْفَظُ كُلَّ حَرَكَاتِهِ وَكَلِمَاتِهِ، حَتَّى إِنَّ مَا حُفِظَ وَسُجِّلَ مِنْ تَفَاصِيلِ حَيَاتِهِ،

وأقواله وأفعاله، لم يحصل لأيٍّ أحدٍ غيره، لا من قبله ولا من بعده..

وإنه لأمرٌ لا يقبله عقلٌ ولا منطق، أن يكون إنسانٌ شديد الأنفة من الكذب إلى الدرجة التي سبقَ بيانها، حتى إذا اكتملَ عقله، وبلغ أربعين سنةً، تحولَ فجأةً إلى أكبر كذابٍ، لا يكذبُ على الناس فقط، بل وعلى ربِّ العالمين، هذا مُحالٌ ولا يكون أبداً..

ثم إنَّ مما لا شكَّ فيه، أنَّ أيَّ مدَّعٍ كذابٍ، مهما بلغَ من الفطنة والذكاء، ومهما تحرَّزَ في العلن والخفاء، فلا بدَّ أن يقعَ في التناقض والأخطاء.. ولا بدَّ أن تظهرَ عليه أماراتُ الكذبِ والافتراء.. خصوصاً مع امتدادِ الوقتِ، وكثرةِ الوقائع، وقوةِ التَّحديّات..

ومن سنة الله وعنايته بعباده، ألاَّ يدعَ كذاباً دعيّاً يتكلَّم باسمه، ويعيْثُ في الأرضِ فساداً، دون أن يفضَحَ أمره، ويَهْتِكَ سِتره، ويكشفَ عَواره.. حدثَ ذلك مع القادياني الكذاب، ومع مُسيلمة الكذاب، ومع الميرزا الكذاب، ومع سائر الكذابين وما أكثرهم، فجميعهم وقعوا فيما لا يُحصى من التناقضات الواضحة، والأكاذيب المكشوفة..

فلو أننا أمام رجلٍ دَعِيٍّ كَذَّابٍ، يُدْلِسُ على الناس ويحتال،
 ويزعمُ أنه رسولٌ من عند الله وهو ليس كذلك.. فما أسهل أن
 ينكشف أمره، وينجلي كذبه، ويُفصح تحايله.. أمّا محمدٌ ﷺ فرغم
 أنه تكلمَ بآلاف الآياتِ القرآنيةِ الموثقة، وبعشرات الآلافِ من
 الأحاديثِ المحفوظةِ بالسند، والتي تتكلمُ في كلِّ شأنٍ من شئونِ
 الحياة، وعن الدارِ الآخرة، وعن الجنةِ والنار، وأخبارِ الأممِ السابقة،
 وعن أمورِ المستقبل.. ومع كلِّ ذلك، ومع مرورِ الوقتِ الطَّويل،
 ومع حرصِ الأعداءِ الشَّديد، وتفتيشهم الدَّقِيقِ عن الأخطاءِ
 والزلات، فلم يجد أحدٌ منهم كذبةً واحدة، ولم يقعوا على اختلافٍ
 واحد.. ووالله لو كان محمدٌ كَذَّابًا دَعِيًّا (وحاشاه) لما استطاعَ أن
 يحبُّكَ ذلك كُلُّه، ولانكشفَ أمره بكلِّ سهولةٍ.. لكنه كما قال الله
 تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣-٤]..



الدليل الحادي عشر: أجوبته الإعجازية

أن يكون الإنسان سريعَ البديهة، حاضرَ الجواب، ذكي الرد، فهذا وحده ليس إعجازاً، ولا يجعلُ من المتحدث معصوماً عن الزلل، ولا يؤهلهُ لأن يكون متفرداً بالتمييز.. فكثير من مفكري البشر وقادة الحوار والسياسة قادرون على الرد الذكي والسريع، لكنهم غالباً ما يلجؤون إلى المراوغة والمناورة، ولا يُستغرب وقوعهم في الخطأ أو الإحراج أمام الملاء وتحت أعين الكمرات.. لكن حين تأتي الإجابات فوريةً متقنة، بلا ترددٍ ولا تلعثم، محكمةً البيان، دقيقةً المعنى، محققةً للمراد، شاملةً للغايات التربوية والتشريعية والإقناعية في آنٍ واحد. وكلُّ جوابٍ منها يحملُ إعجازاً متكاملًا (لغويًا وفكريًا ونفسيًا وتربويًا واجتماعيًا)، ومتسقًا مع كل جوابٍ سبقه، متماسكًا عبر الأيام والسنين، وكأنه نورٌ يفيضُ ليكشفَ الحقَّ ويهدي القلوب، فهذا لا يتأتى إلا لمن عصمه الله من الخطأ، وأيدهُ بروحٍ منه.. وهنا يظهرُ الفارقُ الجوهرى: إنه ليس مجردَ سرعةٍ بديهيةٍ أو ذكاءٍ حاضر، وإنما اتصالٌ مباشرٌ بالحقائق، وبلاغَةٌ في البيان، ودقةٌ في التشريع، وسعةٌ في العلم، واستقامةٌ في الجواب، وتناسقٌ كاملٌ مع كل ما قاله من إجاباتٍ سابقة، فتتجلى الإجاباتُ

كمعجزاتٍ قائمةٍ بذاتها، وشهاداتٍ صريحةٍ على صدقٍ وحقانيةٍ من يقفُ وراءَ هذه الأجوبة..

إنه بابٌ فريدٌ من أعظم ما يُبرهنُ على صدق النبي ﷺ.. ثم إنَّ هذا الوجهَ العجيبَ من الإعجازِ يكادُ يكونُ حاضراً في كل يومٍ من أيام النبوة، وفي كلِّ مجلسٍ من مجالس التعليمِ والمواجهة، وفي كل موقفٍ من مواقف الحكمِ والدعوة، والمواقفِ العارضة، ومجادلاتِ الخصومِ الماكرة، مما يجعلُ هذا البابَ فريداً في اتساعه، وكثرة أمثله، وتنوعِ أحواله، بحيث لو جُمعت أجوبةُ النبي ﷺ لكانت مُعجزةً لغويةً وعقليةً ونفسيةً وتربويةً واجتماعيةً متكاملة، تدلُّ وحدها على أنه لا ينطقُ عن الهوى، إن هو إلا وحيُّ يوحى..

والعجيبُ أنَّ النبي ﷺ لم يكن يتلقى الأسئلةَ من أصحابه المؤمنينَ فقط؛ بل كان اليهودُ يختبرونه، والمنافقونَ يتربصونَ به، والمشركونَ يتحدّونه، والأعرابُ يسألونه بلا مقدمات، والنساءُ يستوقفنه في الطرقات، والوفودُ تداهمه في المجالس والملتقيات، والناسُ يأتونه من كل الجهات، ويسألونه في كل المجالات، وما عُرِفَ عنه ﷺ أنه منعَ أحداً عن سؤال، ولا أنه اعتذرَ عن جواب، ولا أخذَ على غرّة، ولا وُجدَ له تناقضٌ ولا اضطراب، مع أنَّ الأسئلةَ

غالبًا ما تأتي فجائيةً، لم يسبقها إعلامٌ ولا إعداد، إلا أنَّ الإجاباتِ دائماً ما تأتي سريعةً مُحكمةً، وبلا ترددٍ، وكأنَّ هناك من يُجري الحقَّ على لسانه.. وفي كل مرةٍ يكون الجواب جامعاً للمعنى، محققاً للمراد، مربِّياً للنفوس، حتى إنك لترى الجوابَ الواحدَ منه يُغني عن كتاب، ويفتحُ للهداية عدةَ أبواب، ولو كان هذا من عند غيرِ الله لما استقام، ولما بان فيه هذا الإعجاز.. ثمَّ إنَّ المتأملَ في إجاباته عليه الصلاة والسلام، يمكنه أن يُصنّفها لعدة أقسام..

❖ **فمنها:** أجوبةٌ غيبيةٌ لا سبيلَ لأحدٍ أن يعرفها إلا عن طريق الوحي، كإخباره بقصة أصحابِ الكهف، وإخباره عن ذي القرنين، وبسطه لحقائق الساعةِ والنفخِ والصورِ والبعثِ والجزاء، وكل ذلك بإحكامٍ وتفصيلٍ لم يكن عند العربِ منه شيء، ولم يكن عند النبي ﷺ كتابٌ يقرأه، ولا عالمٌ يُخبره، بل كان كما وصفه ربه: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِّنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، فاللهُ هو الذي أفاضَ عليه من النور والحكمة ما جعله منبعاً للهداية، ومناراً للعلم، ومجيباً عن الغيوب الكبرى بجوابٍ لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه..

❖ **ومنها:** أجوبةٌ على أسئلة المشككين والمتشككين، وهي أسئلةٌ غالبًا ما تكونُ موضوعَةً للطعن والتشكيك، كما فعل اليهود حين سألوه عن أولِ أشرارِ الساعة، وأولِ طعامِ أهلِ الجنة، وعن صفة الولد، وغيرها من مسائل الغيب، وهم يظنون أنه ﷺ سيخفق ولن يتمكن من الإجابة الصحيحة، فإذا به يُجيبهم جوابًا مُفحمًا، يقلبُ الموقفَ عليهم، ويخيبُ آمالهم، وهو في نفس الوقتِ حجةٌ عليهم، وموعظةٌ لمن كان في قلبه خشيةٌ منهم، ومن ذلك ما ثبت في الصحيح أنَّ عبد الله بن سلام رحمته الله وكان من أحبار اليهود، قال: «إني سائلُهُ عن ثلاثٍ لا يعلمهنَّ إلا نبي: ما أولُ أشرارِ الساعة؟، وما أولُ طعامِ أهلِ الجنة؟، وما ينزِعُ الولدَ إلى أبيه أو إلى أمه؟»، فقال النبي ﷺ: «أما أولُ أشرارِ الساعة: فنارٌ تحشرُ الناسَ من المشرق إلى المغرب، وأما أولُ طعامِ أهلِ الجنة: فزيادةُ كبدِ الحوت، وإذا سبقَ ماءُ الرجلِ نزعَ الولد، وإذا سبقَ ماءُ المرأةِ نزعَت».. فقال عبد الله: «أشهدُ أن لا إله إلا الله، وأنتَ رسولُ الله».. فهذا الجوابُ في لحظته فتح قلبَ عبد الله للهداية، وأقامَ الحجةَ على أهلِ الغواية، وأبانَ عن صدقِ لا تُخطئهُ الفطرةُ السليمة، ولا يردُّه عاقلٌ مُنصف..

❖ **ومنها:** أجوبةٌ تعليميةٌ، وهي أكثر ما يردُّه من الأسئلة.. كقول

الأعرابي: دُلّني على عمل إذا عَمِلْتُهُ دخلتُ الجنة، وقول السائل: أيُّ الإسلام أفضل؟، وأيُّ الجهاد أفضل؟، وأيُّ النساء خير؟، ومتى تقوم الساعة؟ ... إلخ.. فكان ﷺ لا يُسأل عن شيءٍ إلا ويجيبُ الإجابة المناسبة، فإن سُئِلَ عن وصيةٍ أو نصيحةٍ أجابَ بحسبِ حالِ السائلِ وما الأُصلحُ له، وإن سُئِلَ عن عظيمٍ أجابَ بجوابٍ يليقُ بعظمته، وإن سُئِلَ عن فتوى شائكةٍ فصّلَ في الإجابة حتى يُجَلِّها، وعلى كثرة الأسئلة وتنوعها تراه في كلّ مرةٍ يضعُ الكلمةَ موضعها، ويُرتّبُ العباراتِ ويصوغها، حتى كأنَّ الجوابَ قد أُعدَّ من قبل، وهو الأُمِّي الذي ما قرأ كتابًا، ولا خطَّ بيمينه حرفًا..

❖ **ومن الإجابات:** أجوبةٌ تربويةٌ حيثُ يجعلُ من السؤال فرصةً للتعليم والتربية، وليفتحَ معها أبوابًا من الهداية والتزكية، وإن كان السؤالُ في أصله محدودًا، كجوابه لأبي ذرٍّ حينَ سألهُ قائلاً: يا رسول الله، أوصني، قال: «إذا قمتَ في صلاتك فصل صلاةَ مودعٍ، ولا تكلمْ بكلامٍ تَعْتَذِرُ منه، واجمع اليأسَ مما في أيدي الناس»، وهكذا لما سُئِلَ عن النجاة قال: «أمسك عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك»، فكلُّ جوابٍ من هذا النوع هو توجيهٌ تربويٍّ، فيه تزكيةٌ للقلب، وتقويمٌ للسلوك، وترقيةٌ للنفس، فما أعظمه من معلمٍ

وَمُرَبٍّ.. ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢]..

❖ **ومنها:** أجوبة إقناعية، غالبًا ما تُغيّر موقف السائل من مسألته، مع ما في ذلك من تعليم وتربية، ومن ذلك ما حدث مع الشاب الذي جاءه فقال: يا رسول الله، ائذن لي بالزنا، فقام القوم إليه يزجرونه، فقال: «ادنه»، فدنا منه قريبًا، فقال: «أتحبّه لأملك؟» قال: لا والله، جعلني الله فداءك، قال: «ولا الناس يحبونه لأمهاتهم»، قال: «أفتحبّه لابنتك؟» قال: لا والله يا رسول الله، قال: «ولا الناس يحبونه لبناتهم»، ثم وضع النبي ﷺ يده على صدره وقال: «اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وحصّن فرجه»، قال: فلم يكن الفتى بعد ذلك يلتفت إلى شيء من ذلك، فانظر إلى الجواب الحكيم، الذي لم يأت بالنهر ولا بالتأنيب، بل بالبيان والإقناع والدعاء، وهذا ما لا يكون إلا من نبيّ يُعلّمه ربه، ويؤيّده بوحيه، ويهديه لأقوم الطرق في مخاطبة العقول والقلوب..

فإذا تأملت في هذه الأجوبة كلها، وجدتها إجابات تنم عن إلهام وحكمة، وتناسب حال السائل كأحسن ما تكون المناسبة، وهي بهذا ليست من قبيل الذكاء الفطري، ولا التحايل اللفظي، ولا الردود

المعدّة سلفاً، بل هي دليلٌ من أدلة النبوة الصادقة، ووجهٌ من وجوه الإعجاز الخفي، الذي لا يشعرُ به إلا من فطن له، لأنه مبثوثٌ في اليوميات، متكرراً بحسب المناسبات، فإذا جُمع ونُظر إليه بعين المتأمل المُنصف، رأى فيه برهاناً ساطعاً، وإشارةً ناطقةً تقول: «إنَّ هذا ليس من صنْع البشر ولا في قدرتهم، وإنما هو تأييدٌ إلهيٌّ من فوق سبعِ سماوات»، ومن تفكّر في هذا الباب جيداً، رأى عِظَمَ شأنِ النبوة، وكم فيها من سعةِ العقل والحكمة، وأدرك أنَّ «الأجوبة الإعجازية» ليست مجرد ردودٍ عادية، بل هي أدلةٌ ذاتُ عمقٍ، ومعجزاتٌ ناطقةٌ بالحق، تضافُ إلى بقية البراهين، وما أكثرها:

﴿يَتَأْتِيَهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾

[النساء: ١٧٤].. وقال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُم بِصَآئِرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَن عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيفٍ﴾ [الأنعام: ١٠٤]..



الدليل الثاني عشر: شواهد واقعية وأحداث فجائية..

لقد تنوعت دلائل صدق النبي ﷺ وتكاثرت حتى شملت الأحداث العفوية، والوقائع الفجائية التي لم تكن في الحسبان، والتي تظهر كل إنسان على حقيقته، فهي من هذا الباب شواهد صدق لا شك فيها.. ولقد كان في حياة النبي ﷺ شواهد عرضية كثيرة، وأحداث عفوية لا حصر لها، لذا فقد اخترت منها خمسة شواهد فقط، كل منها يبين بكل وضوح صدقه التام، وشفافيته المتناهية.. وتكشف عن المعدن الصافي للرسول ﷺ كما هو..

□ الشاهد الأول: كسوف الشمس يوم وفاة إبراهيم

حدث ذلك في اليوم الذي مات فيه ولده إبراهيم، فقد انكسفت الشمس، فقال الناس: إنما كُسِفَت لموت ولده.. وكانت فرصة ثمينة ليروج النبي ﷺ لنفسه، وليعزز مكانته عند الأتباع.. وقد كان يكفي ﷺ أن يسكت عن التوضيح والبيان، ليستقر في الأذهان أن الشمس فعلاً قد انكسفت لموت ولده.. خصوصاً أن خصومه قد استغلوا هذه الفرصة فقالوا: «بئر محمد وانقطع نسله».. لكنه ﷺ لم يسكت، بل بين وقال: «إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَاتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ، لَا يُخْسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ فَادْعُوا اللَّهَ وَكَبِّرُوا

وتصدقوا وصلوا».. هكذا بادرَ ﷺ لتصحيح كل ما يُخالفُ أصولَ العقيدة التي يدعو إليها، حتى لو كان ذلك سيفوت عليه مصلحة تعزيز مكانته.. ووالله لو كانَ ﷺ كاذبًا وحاشاه، لما فاتهُ أن ينتهزَ مثل هذه الفرصة الثمينة، (وهو من هو في الذكاء والفطنة).. ولكنه كما وصفه الله تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣].

□ الشاهد الثاني: ما ظنك باثنين الله ثالثهما.

لما أجمعَ المشركون أمرهم على قتل النبي ﷺ، خرج في عزِّ الظهيرة مُهاجرًا إلى المدينة، ومعه صاحبه الصديق حميد عنه.. ودخلا إلى غار ثور، فطاردهم الكفار حتى وصلوا باب الغار، فخاف أبو بكرٍ على النبي ﷺ، وقال: «يا رسول الله، لو نظرَ أحدهم إلى موضع قدميه لأبصرنا»، فقال له النبي ﷺ بثقةٍ وطُمأنينةٍ عظيمة: «يا أبا بكرٍ، ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟»، متفقٌ عليه..

فأني لكاذبٍ يدَّعي النبوة أن يثبتَ هذا الثبات؟!.. ومن أين له هذه الثقة الخارقة، في لحظةٍ ينهارُ فيها أعظمُ الشجعان؟.. والله لو كان مُدَّعيًا للنبوة، كما يزعمُ الزاعمون، لما ثبتَ في تلك اللحظة، ولاضطربَ عقله وقلبه، ولكنه الإيمانُ الحقُّ بالله، والثقةُ التامةُ بتأييده، واليقينُ الصادقُ بنصره.. وإنه لموقفٌ واقعيٌّ يشهدُ بكلِّ

عفوية على صدقه ﷺ، وثباته وثقته التامة بمن أرسله..

□ الشاهد الثالث: «هَلُمَّ إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ»..

في معركة أُحُدٍ، وبعد أن خالفَ الرماةُ أمره ﷺ، ونزلوا عن جبلهم، انقلبت موازينُ المعركة فجأةً، وتقهقر المسلمون واضطربت صفوفهم، وأُشيعَ بينهم أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قد قُتِلَ.. في ذلك الموقفِ العاصف، حيثُ تفرَّقَ الجنود، وانفرطَ عِقدُهم، وسقطت الراية، وأوشك الأعداءُ على إحكام السيطرة، فإذا بالنبي ﷺ يُظهرُ نفسه، ويُنادي بأعلى صوته: «هَلُمَّ إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ.. هَلُمَّ إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ».. فأَيُّ نداءٍ هذا في خِصْمٍ معركةٍ قد انقلبت موازينها؟.. وأَيُّ ثباتٍ في مثل هذا الوضع؟..

إنَّه ما من قائدٍ مهما بلغَ من الشجاعة والخبرة إلا ويضطرُّ للهرب والانسحاب، حِفَاطًا على حياته وحياته من معه، لا سيما حين تَمِيلُ الكَفَّةُ بشدةٍ لصالح الخصوم، ويهربُ مُعْظَمُ أتباعه.. لكنه ﷺ لم ينسحب ولم يتراجع، ومع علمه أَنَّهُ المطلوبُ الأوَّلُ لخصومه، وأنَّ فرسانهم أقربُ إليه من كثيرٍ من أتباعه، فقد قامَ وعَرَّضَ نفسه لخطرٍ كبير، وكشَفَ عن نفسه، ونادى على أتباعه بأعلى صوته: هَلُمَّ إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ.. هَلُمَّ إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ.. بغرضٍ أن يجمعهم حوله، ويوحِّدَ

صفهم، وأن ينفي شائعة موته، وليستأنف المعركة من جديد..
أليس هذا موقفاً يدل على نبوته؟ ويشهدُ بصدق دعوته؟..

□ الشاهد الرابع: «أنا النبي لا كذب»..

في غزوة حُنين، وحينَ باغَتْ هوازنُ جموعَ المسلمين بالكمين، فوقعَ اضطرابٌ شديدٌ في صفوف جيشِ المسلمين، وانهزمَ من انهزم، ولم يثبت في الميدان إلا قلةٌ قليلةٌ مع النبي ﷺ، وكانت لحظةً حاسمةً.. فالنبي ﷺ لم يكتفِ بالثبات في وجوه الجموع الغفيرة، بل أخذَ يُنادي بصوتِ الواثقِ الشجاع: «أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب».. رواه [البخاري ومسلم].. ينادي بصوتٍ قويٍّ وهو مكشوفٌ للعدو.. فأَيُّ ثقةٍ، وأَيُّ صدقٍ، وأَيُّ ثباتٍ هذا.. يتقدم ﷺ أمام الصفوف، ويظهرُ نفسه كالمتحدي.. في لحظةٍ يفرُّ فيها الشجعان، ويصمُتُ فيها الفرسان.. ووالله لو كان كاذباً، لاضطر للانسحاب، لكنه ثبتَ لأنَّ الوحيَ معه، واللهُ ناصرُهُ، ومعينُهُ..

وإنه لموقفٌ واقعيٌّ وشاهدٌ حقٌّ عَفَوِيٌّ، يدلُّ على صدقه ﷺ، وعلى ثباته ويقينه بأنَّ الله لا يُخزيه.. ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: ٩]..

□ الشَّاهِدُ الْخَامِسُ: الْجَمْلُ الْعَاصِي

ومن الشواهد الواقعية العفوية الدالة على صدقه ﷺ قصةُ الجمَلِ العاصي، فقد ثبت في الحديث الصحيح أنَّ أهل بيتٍ من الأنصار كان لهم جملٌ يسْقُونَ عليه، فاستصعبَ عليهم ومنعهم ظهره، فشكوا حالهم إلى النبي ﷺ وقالوا: إنه كان لنا جملٌ نسني عليه وإنه استصعبَ علينا ومنعنا ظهره، وقد عطشَ الزرعُ، فقام النبي ﷺ ودخلَ الحائطَ الذي فيه الجملُ، فقالوا له: إِنَّا نخافُ عليك صولتهُ، فقال: ليسَ عليّ منه بأسٌ، فلما نظرَ الجملُ إلى رسول الله ﷺ أقبلَ نحوهُ وخرَّ ساجدًا بين يديه، فأخذَ النبي ﷺ بناصيته فكان أذلَّ ما يكونُ حتى أدخله في العمل، فلمَّا رأى أصحابه هذا المشهدَ قالوا: هذه بهيمةٌ لا تعقلُ تسجدُ لك ونحنُ نعقلُ فنحنُ أحقُّ أن نسجدَ لك، فقال: لا يصلحُ لبشرٍ أن يسجدَ لبشرٍ، ولو صلحَ لأمرتُ المرأةَ أن تسجدَ لزوجها من عظمِ حقِّه عليها..

فيا له من شاهدٍ يحملُ من دلائل النبوة ما تتقاصرُ دونه الاحتمالات، وتنقطعُ أمامه المعاذير، فها هو جملٌ هائجٌ خارجٌ عن السيطرة، يتحوّل فجأةً إلى كائنٍ ذليلٍ منقادٍ حين رأى رسول الله ﷺ، بل ويسجدُ له سجودًا لا يمكنُ تعليله بتدريبٍ أو عادة، وإنما هو

خضوعٌ فطريٌّ ألهمه الله لهذه البهيمة، ولو كان الأمر من فعل الناس أو حيلة منهم لكان النبي ﷺ أول الخائفين، لكنه تقدم إليه مطمئناً قائلاً: ليس عليّ منه بأس، ولو كان نبياً كاذباً لادّعى من ذلك السجود رفعةً لنفسه، ولكنه بادرهم بالتصحيح قائلاً: لا يصلح لبشر أن يسجد لبشر، فأحال الأمر كله إلى الله، وعظم التوحيد، وزاد صدقه بهاءً حين قابل التعظيم بالتواضع، فكانت هذه القصة برهاناً حسياً متماسكاً، على مرأى ومسمع من عددٍ كبيرٍ من الصحابة، وقد شهدوا بأن البهيمة قد سجدت..

فلئن كان الحيوان الأعجم حين تعرف عليه سجد.. فما الذي يليق بصاحب العقل حين تتضافر أمامه الأدلة تباعاً ومن كل نوع.. ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ۖ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّٰ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ [يونس: ١٠٨]..



وبعد: فيا معشر العقلاء، يا مُنصفون، رجلٌ بكلِّ هذه المواصفات الرائعة والمذهلة، رجلٌ يُعتبر بحقٍّ أنموذج الإنسانية الكاملة، ومُلتقى الأخلاق الفاضلة، وأيقونة الصدق والأمانة والإخلاص.. رجلٌ يجتمعُ فيه من الخصائص والفضائل والكمالات البشرية ما تفرقَ في غيره.. رجلٌ يُلقبه قومه بالصادق الأمين، فهو لم يكذب قطُّ، ولم يُخلف وعدًا قط، رجلٌ رآه عُقلاء قومه عن قُرب، وعاشروه سنواتٍ طويلة، فعرفوا صدقه ونبُله وكرمه، ورأوا حُسن أخلاقه، وروعة تعامله، وجميل صفاته، فآمنوا به واتبعوه، وأحبوه حُبًّا استولى على شغاف قلوبهم، وملَكَ عليهم كلَّ عُقولهم وأرواحهم، حتى قدّموه على أنفسهم وأهليهم وأموالهم، ثم ازدادوا به إيمانًا و يقينًا حين رأوا ما أظهره الله على يديه من الخوارق والمعجزات، وما لا يستطيعه أحدٌ من العالمين، ورأوا تحقُّق ما أخبرَ عنه من أمورٍ غيبيةٍ كثيرةٍ جدًّا، وأنها ستقعُ في المستقبلِ القريبِ أو البعيد، ومع كثرتها وتنوعها فلا يقعُ في الخطأ أو الكذب ولا لمرةٍ واحدة.. رجلٌ عابدٌ متبتل، يواصلُ الصيامَ لليومين والثلاثة، ويقومُ الليلَ حتى تتفطرَ قدماه، ويطلُّ السجودَ حتى يُظنَّ أنه قد قبض، وتبتلُ لحيتهُ ومكانُ سجوده من كثرة الدموع، ويُسمعُ

لصدره أزيزٌ كأزيزِ المرجل.. رجلٌ متكاملُ الصفاتِ، متوازنُ الشخصية، يُمثلُ النموذجَ الأسمى لكمالِ الإنسانِ وتوازنه، وقيامه بكلِّ أدوارِ الحياةِ على أكمل وجه.. رجلٌ لا يقرأ ولا يكتب، ثم يأتي بما أعجزَ به الأولينَ والآخرينَ، ويبلغُ القمةَ في الفصاحةِ وحُسنِ البيانِ، حتى شهدَ له القاصي والداني أنه أفصحُ الناسِ لسانًا، وأحسنُهم بيانًا، وأبلغُهم كلامًا، وأقواهم تأثيرًا.. رجلٌ من طرازِ فريدٍ، يصبرُ صبرًا لم يُسمعَ بمثله على شتى أنواعِ الأذى والمضايقاتِ، ولفترةٍ طويلةٍ من السنوات.. رجلٌ جرىَّ يُعلن عن عالمية رسالته وهو في أضعفِ حالاته، بل ويخاطبُ أقوى ملوكِ الأرضِ في زمانه خطابَ الندِّ للندِّ قائلاً: له: أَسْلِمَ تَسْلَمَ، فَإِنْ أَبَيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ أَتْبَاعِكَ.. رجلٌ صلبٌ ثابتٌ، تُعرضُ عليه الأموالُ والمناصبُ وأقوى الإغراءاتِ، فيرفضُها جميعًا من أجلِ دعوته.. رجلٌ تأتيه فُرصٌ ثمينةٌ لتعزيزِ مكانته عند أتباعه، ثم لا يستغلُّها، لأنها تُخالفُ أصولَ دعوته.. رجلٌ في غايةِ الزهدِ والتواضعِ عاشَ حياته كلها زاهدًا في الدنيا مُعرضًا عن زخارفها، حارمًا نفسه من أبسطِ مُتعتها.. يسكنُ في غرفةٍ من الطينِ متواضعة، دانيةِ السَّقْفِ، قليلةِ الأثاثِ، يمرُّ عليه الشهرُ والشهرانِ دونَ أن يوقدَ في بيته نارًا للطبخِ،

ويجوعُ حتى يربطَ الحجرَ على بطنه، ويُعطي كلَّ مالٍ يأتيه لفقراء المسلمين.. وماتَ ودرعُه مرهُونَةٌ عند يهوديٍّ في كومةٍ من شعير.. رجلٌ متجردٌ من كلِّ مطمعٍ دنيوي، يضحى في سبيلِ دعوته بكلِّ ما في يده، ويتحمَّلُ ما لا يحتملُه بشر، ويعرِّضُ نفسه لأشدِّ أنواعِ المخاطرِ والمهالكِ، ومع كلِّ ذلك فلم يخصَّ نفسه بأيِّ نوعٍ من الامتيازات الدنيوية، فلم يبنِ القصورَ الضخمة، ولم يركبِ المراكبَ الفخمة، ولم يحيِ حياةَ الملوكِ والزعماء.. ولم يورثِ الحُكمَ لأهل بيته، ولم يترك لهم ميراثًا من بعده.. ولم يمنحهم أيَّ نوعٍ من الامتيازات..

ثمَّ يزعمُ الزاعمونَ أنه يكذب، وعلى من، أعلى ربِّ العالمين؟، ألا إنَّ الذينَ يمارون فيه لفي ضلالٍ مُبينٍ.. ﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [يونس: ٦٩]..



البابُ الخامس:

توظيفُ الأدلة..

تمهيد: في الصفحات السابقة، لم أدخر وسعاً في عرض أدلة الإيمان وبراهينه، ولم أترك نوعاً مُعتبراً من أنواع الاستدلال إلا وظفته.. بدءاً بالأدلة العقلية والمنطقية، ومروراً بالأدلة العلمية والفطرية، ثم الأخلاقية والجمالية، والتاريخية واللغوية.. ثم ختمتها بأدلة إعجاز القرآن والسنة، وإثبات صدق الرسول ﷺ..

وقد حرصت أن تكون تلك الأدلة مطروحةً بلغة معتدلة، توازن بين الحُجّة والرحمة، وتُشعرُ القارئ أنه شريكٌ في رحلة البحث، لا خصمٌ في ساحة جدال..

وفي هذا الباب، سأنتقل من عرض الأدلة وتوظيفها توظيفاً مباشراً، إلى توظيفها من خلال الحوار والمناظرة، وعبر التحليل النقدي النزيه..

وبدايةً سأقدم نموذجاً لمناظرة عقلية علمية رفيعة المستوى، ثم مقالة تأملية تكشف أصل التصور الإلحادي، وتلقي نظرة عميقة

على أساسه ومكامنِ خلله.. فلعلَّ في كليهما ما يوقظُ الغافل من غفلته، وما يزيدُ المؤمنَ يقيناً على يقينه..

والمناظرة: هي نقاشٌ عقلائيٌّ نزيهٌ يدور بين مُتحدثين أو أكثر، يُعقدُ حولَ قضيةٍ خلافيةٍ مُعينة، ليقومَ كُلُّ طرفٍ من أطراف الخلافِ بتقديم حُججه وبراهينه، ويظهرَ وجه الصواب بدليله..

وللمناظرة فوائدٌ كثيرة: أبرزها أنها وسيلةٌ فعالةٌ للتعلمِ والفهمِ، وبأسلوبٍ مُقنعٍ وجذابٍ، فهي تضعُ الأفكارَ المتباينةَ في مواجهةٍ صريحة، وتدعُ البرهانَ يقولُ كلمته الأخيرة، بعيداً عن الأهواء والمظاهر والشعارات..

كما تُعدُّ المناظرةُ وسيلةً مؤثرةً لإظهار قوة الحقِّ ومتانته، وكشفِ عوارِ الباطلِ وتهافته، وفضحِ أساليب من يُؤسّسُ مواقفه على الشكِّ والخداعِ، والتدليسِ والمغالطة، ويتزيّنُ بزخرف القولِ غروراً.. ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ۗ﴾ [الأنفال: ٤٢]..

وقد اشتهر علماء المسلمين عبر العصور بقوة المناظرة، وحجّيتهم البينة، وهُدوئهم المنطقي، ومن أبرز ما يُروى في هذا

البابِ مناظرةُ الإمامِ أبي حنيفةَ رَحِمَهُ اللهُ لجماعةٍ من الملحدين الدهريين، حيث قال لهم: قد ذكروا لي أَنَّ سفينةً في البحرِ عظيمةَ الصنعِ، واسعةَ الأطرافِ، كثيرةَ المرافقِ والمصالحِ، إلا أَنَّهُ ليس بها من يُنظِّمها أو يُدبِّرُها، ولا من يسوقُها أو يحرسُها، بل هي التي تفعلُ ذلك كُلُّه، فهي التي تُسيِّرُ نفسَها بنفسِها، فتذهبُ وتجيءُ، وتخرقُ الأمواجَ وتعبُرُ المحيطاتِ، وترسو في الموانئِ، وتوصلُ الأحمالَ، تفعلُ ذلك كُلَّهُ بنفسِها، فقال الملاحدة: هذا شيءٌ مُستحيلٌ ولا يقوله عاقلٌ.. فقال الإمام: ويحكم فهذه الموجوداتِ العظيمةُ بخلقِها البديعِ، ونظامِها الدقيقِ، واتساعِها المذهلِ، وما فيها من عوالمٍ مختلفةٍ، وما اشتملت عليه من إحكامٍ وإتقانٍ عجيبٍ، هل يُعقلُ أنها تُسيِّرُ نفسَها بنفسِها، وأنه ليس لها صانعٌ عليمٌ، ولا مُدبِّرٌ حكيمٌ.. فبُهِتَ القومُ ورجعوا إلى الحقِّ..

والمناظرات كثيرةٌ ومتنوعة، إلا أن أجمل ما مرَّ بي فيما يخصُّ الإلحاد: مناظرةٌ رائعةٌ قويةٌ:

وقد جرت هذه المناظرةُ بين عالمٍ مُسلمٍ من عُلماءِ الإعجازِ العلمي، وبين عالمٍ من علماءِ الغربِ المُلحدين، انتهت بإسلامه والله الحمد..

حيثُ بدأت المناظرةُ بقول الشيخ للملحد: أنت لا تؤمنُ
بالخالقِ جَلَّ وَعَلَا فمن الذي أوجدك..

قال الملحد: أوجدتني الطبيعة..

قال الشيخ: هل تقصدُ بالطبيعة، الصدفةُ.. قال الملحد: نعم..
قال الشيخ: أليست الطبيعةُ صمَّاءَ بكماءَ عمياءَ.. ليس لها علمٌ ولا
حكمةٌ، وليس لها عقلٌ ولا تديرٌ.. قال الملحد: نعم..

قال الشيخ: فلو أخبرتك أنَّ صانعَ هذا المصباحِ الكهربائي
(وأشارَ إلى مصباحِ الغرفة)، عندهُ زجاجٌ أتصدقني؟..
قال الملحد: نعم.. وإلا كيفَ سيصنعه..

قال الشيخ: ولو قلت لك إنَّ لدى الصانعِ قُدرةً على تشكيلِ
الزُّجاجِ كما يريدُ أتصدقني.. قال الملحد: نعم..

قال الشيخ: ولو قلت لك أنَّ صانعَ هذا المصباحِ مُتَقِنٌ حَكِيمٌ،
فقد استطاعَ أن يُحَكِّمَ الغِطاءَ حولَ الزجاجِ، أتصدقني..

قال الملحد: نعم، هو كما قلت.. قال الشيخ: ولو قلتُ لك إنَّ
صانعَ المصباحِ لديه علمٌ بالكهرباءِ، أتصدقني.. قال الملحد: لا بدَّ
أن يكونَ لديه علمٌ بالكهرباءِ وإلا لما استطاعَ أن يجعله يُضيئ..

قال الشيخ: إذن فأنت ودون أن ترى صانع المصباح، تُقرُّ وتشهدُ بأنَّه يتَّصفُ بصفاتٍ كثيرةٍ: منها أن لديه زُجاجًا، وأنَّه قادرٌ على تشكيلِ الزُّجاجِ، وأنَّه مُتَقِنٌ لصنْعتهِ، وأنَّ لديه عِلْمًا مُتَقَدِّمًا بالكهرْباء.. قال الملحدُ: نعم أقرُّ بكلِّ ذلك..

قال الشيخ: كيف وأنت لم تر الصانع؟!..

فأشارَ الملحدُ إلى المصباحِ وقال: هذا صنْعُهُ أمامي..

قال الشيخ: إذن فأنت تُقرُّ بأنَّ الشَّيْءَ المصنُوعَ سواءً كان مصباحًا أو غيره يُدلُّ على بعضِ صفاتِ صانِعِهِ، فلا تُكونُ خاصِيَّةً في الشَّيْءِ المصنُوعِ إلا وعندَ الصانعِ قُدْرَةٌ أوجدَ بها تلك الخاصِيَّة.. قال الملحدُ: نعم..

قال الشيخ: فلتتحول من صنْعِ المصباحِ إلى صنْعِكَ أنت.. فهل زلت تزعمُ أنك خلقتَ صُدْفَةً، وأنَّ ذلك كان بلا عِلْمٍ ولا حِكْمَةٍ.. قال الملحدُ: نعم..

قال الشيخ: فماذا تعرفُ عن العين، وأشارَ إلى عينِهِ..

قال الملحدُ: جهازٌ يستقبلُ الضوءَ المنعكِسَ من الأجسامِ فيترجمُهُ في الدِّماغِ إلى صورٍ مُتتَابِعَةٍ..

قال الشيخُ: أي أنه لا يعملُ في الظلامِ..

قال الملحدُ: بالطبع لا يعمل.. قال الشيخُ: فأين صُنعت العين..

قال الملحدُ: في رَحِمِ الأمِّ.. قال الشيخُ: وهل في الرَّحِمِ ضوءٌ..

قال الملحدُ: لا.. قال الشيخُ: فالذي صنعَ جِهَازًا خاصًا بالضوءِ

في مكانٍ مُظلمٍ لا ضوءَ فيه، وفي وقتٍ لم يكن الجنينُ بحاجةٍ لهذا
الجهازِ عِدَّةَ أشهرٍ، هل يعلمُ بأنه سيستخدمه عندما يخرجُ للضوءِ، أم

لا يعلم.. فاضطربَ الملحدُ وتخبَّط، وقال: لا يعلم.. لأنه لو قال
يعلمُ فستنتهي خُرافةُ الطبيعةِ والصدفةِ التي لا تعلم..

قال الشيخُ: فلتكلم عن شيءٍ آخر، كم درجةُ حرارةِ الإنسانِ

الطبيعية.. قال الملحدُ: ٣٧..

قال الشيخُ: أليست هذه الدرجةُ ثابتةً لكلِّ البشرِ صيفًا وشتاءً،

وفي المناطقِ الحارةِ والباردةِ على حدٍ سواء.. قال الملحدُ: نعم..

قال الشيخُ: أليس في الجسمِ عواملٌ تُحافظُ على ثباتِ هذه

الحرارةِ دائميًا، كإفرازِ العرقِ في الحرِّ، وازديادِ الحاجةِ إلى الطعامِ في
البرد، ولذلك نُكثِرُ من شُرْبِ الماءِ صيفًا، ونأكلُ أكثرَ في الشتاءِ..

قال الملحدُ: نعم.. قال الشيخُ: فهل من أوجدَ هذا الميزانَ

الدقيقَ ليجعل حرارة الجسم ثابتةً دائماً عند تلك الدرجة، حكيمٌ أم غير حكيمٍ.. فاستمر الملحّد في عناده وقال: ليس بحكيم.. لأنّه لو قال حكيم، فسيتعارض مع عقيدته في الطبيعة والصدفة، فهي بلا علم ولا حكمة.. قال الشيخ: شيءٌ آخر: أليس هذا الجهاز الخاص بضبط حرارة الجسم دائماً عند ٣٧، قد صنّع في الرّحم.. قال الملحّد: نعم.. قال الشيخ: أليست درجة حرارة الرّحم أيضاً ثابتةً دائماً عند ٣٧.. قال الملحّد: نعم، لأنها داخل جسم الأم..

قال الشيخ: فالذي صنّع جهازاً خاصاً بضبط وتثبيت حرارة الجسم عند درجة معينة صيفاً وشتاءً، وصنعه في مكان لا تتغير فيه درجة الحرارة، وفي وقت لم يكن الجنين بحاجة لهذا الميزان عدة أشهر، هل يعلم بأنّه سيحتاجه عندما يخرج للأجواء الخارجية المتغيرة أم لا يعلم.. فاستمر الملحّد في غيه وقال: لا يعلم..

قال الشيخ: أمرٌ رابع: كم نسبة الأكسجين في الهواء..

قال الملحّد: قرابة الخمس..

قال الشيخ: فهل هذه النسبة ثابتة أم متغيرة..

قال الملحّد: بل هي ثابتة على الدوام.. قال الشيخ: فما الذي

يَضِبُّهَا هَكَذَا، رَغَمَ كَثْرَةِ اسْتِهْلَاكِ الْبَشَرِ وَالْحَيَوَانَاتِ لِلْأُكْسِجِينِ..

فَقَالَ الْمَلْحَدُ: الْنبَاتَاتُ عَمُومًا وَتَبَخَّرَ مِيَاهُ الْبِحَارِ وَالْمَحِيطَاتِ وَغَيْرَهَا مِنَ الْعَوَامِلِ.. قَالَ الشَّيْخُ: فَالَّذِي صَنَعَ هَذَا التَّوَازُنَ الْعَجِيبَ، وَجَعَلَ هَذِهِ النِّسْبَةَ ثَابِتَةً لَا تَتَغَيَّرُ فِي كُلِّ بَقَاعِ الْأَرْضِ، هَلِ الَّذِي فَعَلَ هَذَا وَقَدَّرَهُ هَذَا التَّقْدِيرَ الدَّقِيقَ الْمُتَقَنَ، حَكِيمٌ أَمْ غَيْرُ حَكِيمٍ..

قَالَ الْمَلْحَدُ: لَا، لَيْسَ بِحَكِيمٍ.. قَالَ الشَّيْخُ لِنَفْسِهِ: لَا بَدَّ مِنْ حِيلَةٍ تَكْسِرُ عِنَادَهُ.. قَالَ فَسَأَلْتُهُ: لِمَاذَا يَلْبَسُ رُودًا الْفَضَاءِ تِلْكَ الْبَدْلَةَ الْغَرِيبَةَ؟.. فَقَالَ الْمَلْحَدُ: لِحِمَايَتِهِمْ مِنْ أَضْرَارِ الْفَضَاءِ الْخَارِجِيِّ..

قَالَ الشَّيْخُ: فَهَلِ الَّذِي صَنَعَ تِلْكَ الْمَلَابِسَ عُلَمَاءُ مُتَخَصِّصُونَ أَمْ أَنْاسٌ عَادِيُونَ.. قَالَ الْمَلْحَدُ: بَلِ عُلَمَاءُ مُتَخَصِّصُونَ..

قَالَ الشَّيْخُ: لِمَاذَا؟.. قَالَ الْمَلْحَدُ: لِأَنَّهُ لَا بَدَّ أَنْ يَتَوَافَرَ فِيهَا مُوَاصِفَاتٌ خَاصَّةٌ، فَتَحْمِيهِمْ مِنَ الْحَرَارَةِ الْمُرْتَفِعَةِ، وَالْإِشْعَاعَاتِ الضَّارَّةِ، وَالضَّغْطِ الْعَالِيِّ، وَأُمُورٍ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا مُتَخَصِّصٌ.. قَالَ الشَّيْخُ: فَأَنْتَ عِنْدَمَا كُنْتَ فِي بَطْنِ أُمِّكَ، مِنْ أَيْنَ كُنْتَ تَتَنَفَّسُ وَتَأْكُلُ.. قَالَ الْمَلْحَدُ: مِنَ الْحَبْلِ السُّرِيِّ.. قَالَ الشَّيْخُ: فَتَخِيلُ أَنَّكَ عِنْدَمَا كُنْتَ فِي بَطْنِ أُمِّكَ مِثْلَ رَائِدِ الْفَضَاءِ الَّذِي زُوِّدَهُ الْعُلَمَاءُ بِتِلْكَ الْبَدْلَةِ الْخَاصَّةِ، فَهَلِ الَّذِي زُوِّدَكَ وَأَنْتَ فِي بَطْنِ أُمِّكَ بِالْجِهَازِ التَّنَفُّسِيِّ

والجهاز الهضمي، في وقتٍ لم تكن تحتاج لهذا الأجهزة، يعلم أنك ستستخدمها عندما تنطلق إلى الفضاء الخارجي أم لا يعلم، فضحك الملحد وقال: يعلم.. وهكذا استسلم أخيراً وأقرّ بأن من خلق الإنسان يتصف بالعلم..

ثم تكلم الشيخ عن عجائب تركيب العظام، وتداخلاتها المحكمة، وكيف أن كل عظمة تتصل بأختها بكل دقة وإحكام، وتكلم عن الأسنان وتناسقها وإحكامها، وتقسيمها إلى قواطع وأنياب وأضراسٍ متناسقة متكاملة، وتكلم عن الرموش، وكيف يتقوس شعرها مرةً للأعلى ومرةً للأسفل، وتكلم عن تناسق الأعضاء وتناسبها، فلا عين أكبر من عين، ولا أذن أصغر من أذن، ولا يد أطول من يد، ولا رجل أقصر من رجل، مما يدل على عظمة وقُدرة ودقة الخالق الحكيم سبحانه، ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٤]..

وبعد الفراغ من هذه المناظرة القوية، والتي كشفت كثيراً من ثغرات الإلحاد، نتابع الرحلة بمقالة تحليلية عنوانها:



الإلحاد والأساس الخرب

تَكْمُنُ خطورةُ «الملحدّين الجدد» في أنهم لبسوا لبوسَ العلم، وتزيّنوا بمساحيق العقلانية والحرية الفكرية، وادّعوا الموضوعية والمنهجية العلمية الحقّة، وهم أبعد ما يكون عن ذلك..

والمتمأل في جميع الشبهات التي يثيرونها، يجد أنه وبالرغم من تفاوتِ مضامينها، واختلاف مواضيعها، إلا أنّ هناك عنصراً مشتركاً بينها، ألا وهو: التحايل المفاهيمي، والتدليس المقصود، والمغالطة المنهجية..

فجميع شبهاتهم لا تقومُ على علمٍ محقق، ولا على برهانٍ صحيح، وإنما تُبنى على خلطٍ للمفاهيم، وتسطيحٍ للقضايا، وتوظيفٍ انتقائيٍّ لمصطلحاتٍ فلسفية أو علمية، تُستعملُ في غير سياقها، وتُحمَلُ ما لا تحتمل، وتُلَمَّعُ لتبدو «حادثة» وهي في جوهرها خواءٌ من الحقيقة..

ومع ادعائهم للموضوعية إلا أنهم يكثرون الالتفاف والمراوغة، ويعتمدون إخفاء الحقائق التي لا تناسبهم، ولا يأخذون من العلم إلا ما يوافق أهواءهم.. ويثيرون الشبهات ويُشكِّكون في المسلّمات، ويعتمدون على الجدل أكثر من البرهان، ويستغلون انبهار العوام

وإعجابهم الشخصي ببعض رموزهم، ويتسترون خلف لافتات «التنوير وحرية الفكر» وهم في الحقيقة أسرى لأهواء فكرية مُسبقة.. يُبجلون العلم إذا وافق هواهم، ويُقصونه إذا كان ضدهم، حتى ولو كان أصرح برهان.. يرفضون الغيب لأنه لا يُقاس، ثمَّ يؤمنون بأكوانٍ موازية لم يُشاهدها أحد، ولا سبيل إلى التحقق منها.. يسخرون من النبوات، ثمَّ يُمجّدون فرضياتٍ عديمةً خياليةً لا دليل عليها، فقط لأنها تقصي الإله عن المشهد..

وما من باحثٍ متجردٍ إلا ويتبين له أنَّ الخطابَ الإلحاديَّ السائدَ لا يقومُ على بحثٍ علميٍّ رصين، ولا على تفكيرٍ موضوعيٍّ متجرد، وإنما هو منظومةٌ كلاميةٌ قائمةٌ على التدليس والمغالطة، وعلى تحريف المفاهيم، وإخفاء الحقائق، وتبديل المقدمات لتفضي إلى نتائج زائفة.. وفي الأسطر القادمة سنحاول الكشف عن هشاشة هذا البنيان المتهافت، وإظهار سوء المنهج الذي يقوم عليه، وافتقاره إلى الأساس الذي يُمكن أن يصمد أمام أيِّ تحليلٍ جاد..

فلو أنك رأيتَ بيتًا مائلًا مُتهدّمًا، قد تصدّعت جُدرانُه، وانهارت أركانه، فقد تظنُّ أنَّ الخللَ في السقف أو الأعمدة فحسب، بينما العيبُ كل العيب في أساساته الهشّة الضعيفة، والتي لم تستطع

الصمودَ تحت ثقلِ البناء.. وحين تصدعت، تصدعَ المبنى كله..

هكذا هو الإلحادُ تمامًا: مذهبٌ واهٍ بُنيَ على أساسٍ خربٍ من التدليس والمغالطات، فلا عجب أن ينكشف تناقضه عند أي نقاش، وأن يظهر تهافتُه عند التأمل والتدقيق.. ويا لبلاغة القرآن: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ [النور: ٣٩]..

والحقُّ أنَّ الإلحادَ (على عكس الأديانِ تمامًا) فهو لا يملكُ كيانه معرفيًا واضحًا، ولا رؤيةً وجوديةً متماسكة.. ولا يُقدِّمُ حلولًا مُقنعة، ولا يُجيبُ عن الأسئلة الوجودية الكبرى: من أين جئنا؟ ولم نحنُ هنا؟ وما مصيرنا؟..

إنه خواءٌ روحيٌّ، وفراغٌ عقليٌّ، وموقفٌ سلبيٌّ لا يصادمُ الدينَ فقط، بل يصادمُ العقلَ والمنطق.. دليله الأكبر: إنكارُ الدليلِ وجحدُه؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤]، وقال جلَّ وعلا: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]..

إنه تسطيحٌ للفكر، وطمسٌ للفطرة، وتشويهٌ للحقائق، وهكذا هو

العقلُ بدون أنوارِ الوحي، سرعانَ ما يتيه في الظلام ويفقدُ البوصلة، فيظنُّ أنه على شيءٍ، بينما هو يتيه أكثرَ في أودية الضلال..

وهذا الكلام لا يقال جزافاً، وليس فيه مبالغة، وفي الأسطر التالية الإثباتُ لمن تجرد للحق..

فحين يطالعُ المتأمل أطروحات الملحدين، فإنَّ أولَ ما يواجهه من مغالطاتهم وتدليسهم، أنهم لا ينطلقون من برهانٍ إيجابيّ صريح، وإنما ينطلقون من رفضٍ ونفيٍ مبيّتٍ سلفاً.. وهم بهذا، قد قلبوا المنهجَ العلمي رأساً على عقب؛ فبدلاً من الابتداء بالدليل وصولاً إلى النتيجة، فإذا بهم قد انطلقوا من نتيجةٍ مبيّتةٍ سلفاً، ثم راحوا يلوونَ أعناق الأدلة ويعفسونها عفساً لتتوافق مع ما يريدون.. وهذا عكسُ ما يفعله أيُّ باحثٍ نزيهٍ مُتجرّدٍ، يمضي خلفَ البرهانِ حيثما ذهب به، ولا يُطوعُ الحقيقةَ حسبَ هواه.. فهم لا يقولون: هذا الكونُ نشأ عن كذا بدليل كذا، وإنما يبدأون من النتيجة التي يبتوها مسبقاً: (لا إله)، ثمَّ يعودون لينبؤوا فوقَ هذا النفي المبيت بنياناً مفبركاً من الأدلة المتهاففة، والمبرراتِ المتكلفَةِ التي تُلائم (بزعمهم) هذا النفي المسبق..

وهذا هو (الأساسُ الخَرِب) الذي أوقعهم في ورطة الترقيع

والتلفيق، إذ صارَ لزماً عليهم أن يختلقوا لكل ظاهرة تبريراً يتلاءم مع ذلك النفي، وهو ما ألجأهم لسلسلةٍ من المغالطات الكبرى، والتدليس المكشوف: كأزلية المادة، والفراغ الكمومي، والكون الخالق، والأكوان المتعددة، وولادة الحياة بالصدفة، ونشوء الكائنات عبر التطور الأعمى.. وجميعها ليست حقائق علمية ثابتة، وإنما هي فرضيات هشة، ومغالطات مكشوفة، وتدليسات تم تلفيقها واللجوء إليها بغرض إقصاء الخالق من المشهد، وليس لتفسير عملية الخلق تفسيراً عقلاًانياً متزناً..

تأمل في دعوى أزلية الكون عندهم.. ستجد أنها دعوى بدون دليل ولا برهان، وسترى أن الملاحظة يغالطون أنفسهم قبل غيرهم، فكلُّ الحقائق التي تُبين أن الكون نشأ من لحظة انفجار هائل قبل قرابة ١٤ مليار سنة، وأن الزمان والمكان والمادة وجميع أشكال الطاقة نشأت كلها بعد هذه اللحظة.. إلى اكتشاف «هابل» المذهل، وهو أن الكون يتمدد ويتوسع بسرعات هائلة، إلى اكتشاف الإشعاع الكوني، (وهو أثر موجود يدل على حدوث الانفجار العظيم) وكذلك انتقال الحرارة من الأسخن للأبرد، وتوالد النجوم وموتها، وغيرها من الحقائق الثابتة، التي تؤكد كلها أن للكون بدايةً محددة،

مما ينسفُ دعاوى الأزلية نسفاً نهائياً، ويؤكدُ أنَّ وراءَ هذا الوجودِ إرادةً أحدثته، وعقلاً حدَّده ونظمه، وتنسيقاً محكماً أخرجهُ من العدم إلى الوجود..

وعليه فإنَّ إصرارَ الملاحدةِ على أزلية الكونِ هي واحدةٌ من مغالطاتهم الكبرى، وتدليساتهم البيّنة، التي يُريدونَ بها الالتفافَ على سؤال: «ما مصدرُ الوجود؟».. لأنَّهم يعلمون أنَّ التسليمَ ببداية الكون، يفتحُ البابَ للسؤال الذي يهربونَ منه: «من الذي أوجدَ الكونَ وبدأه؟».. وحين يُحشَرُ الملحدُ بهذا السؤال، يراوغُ ويدلسُ بأقوالٍ وآراءٍ تتلونُ وتتبدلُ مع كلِّ اكتشافٍ جديد، وتراهم يعمدون دائماً لتغليفِ ادعاءاتهم بمصطلحاتٍ علميةٍ تفتقرُ للمصداقية، فيزعمُ بعضهم أنَّ الكونَ انبثقَ من كونٍ سابق، أو أنَّ هناك «أكواناً متعددة»، تتناسلُ تلقائياً وينبثقُ بعضها من بعض، أو أنَّ الكونَ نشأ من «لا شيء»، وكلُّ هذا تلفيقٌ وتدليسٌ بلا دليلٍ.. فالعدمُ في لغة العقلاء هو: اللا شيء، والعدمُ من الناحية المادية: هو ما لا وجودَ له، أيَّ أنه لا يحملُ أيَّ خصيصةٍ، فلا زمانَ ولا مكانَ ولا طاقةَ ولا أيَّ شيء.. فكيف يَنشأُ عنه شيء؟!.. لكنهم يموهونَ بتعريفاتٍ ومُصطلحاتٍ خادعة، فيقولون: «الفراغُ الكمومي»، «اللا شيء الفيزيائي»، «الطاقةُ

السالبة».. وكلُّ هذه أشياء موجودةٌ وليست عدماً.. ولو أنّ رجلاً عامياً زعمَ أن بيته نشأ من تلقاء نفسه، لضحكوا منه، أمّا إذا قال المُلحدُ إنّ الكونَ كله نشأ بلا مسببٍ، أو أنه نشأ من لا شيء، فكلامه صادرٌ عن عقلٍ وعلمٍ.. (فأين العقل والإنصاف)..
 فإذا ضيقَ عليهم الخناق، انتقلوا إلى مغالطةٍ أخرى، فقالوا إنّ الحياةَ وُجدت «صدفة»، وتطورت بالصدفة، وبلغت هذا التعقيدَ الشديد بالصدفة..

فإذا تأملت وتفكرت في هذه «الصدفة العمياء».. تبين لك أنّ هذه الكلمة لو حدها، كافيةٌ لهدم مذهبهم كله.. إذ كيف للصدفة أن تصنع كوناً منظماً؟.. وكيف للصدفة أن تضع القوانين التي تحكم الطاقة، والمادة، والزمن؟.. وكيف للصدفة أن تُنتج التعقيد، والدقة، والتوازن، والانضباط، والتعاون والانسجام؟.. وغيرها من خصائص الكون الكثيرة والمعقدة..

لكنها إحدى ورطاتهم ومغالطاتهم التي يضطرون إليها حينما يعجزون عن تفسير عملية الخلق.. كيف والأرقام والإحصاءات الرياضية تؤكد استحالة نشوء الحياة صدفةً، فلو أُلقيت عشر قطع نقدية على الطاولة، وخرجت كلها على نفس الوجه، وكررت ذلك

عشر مراتٍ مُتتاليةٍ، وفي كل مرةٍ يخرجُ نفسُ الوجه، لقلتَ حتمًا إنَّ هناكَ يدًا تدخّلت.. فكيف إذا اجتمعت آلاف المتغيرات الدقيقة، في ظروف بيئية دقيقة ومعقدة، لتنتج أولَ خليةٍ حيّةٍ كاملة، تعملُ بدقةٍ تفوقُ كل معاملِ البشرِ مجتمعة.. أليس هذا أكبرَ (بملايين المرات) من أن يُنسبَ إلى صدفةٍ عمياء؟.. وإنَّ من ينسبُ إلى الصدفة كل هذا الانسجام المذهل لقوانين الفيزياء والكيمياء والأحياء؟.. كمن يقول: إنَّ انفجارًا وقعَ في مطبعةٍ فنتجَ عنه: «قاموسٌ ضخْمٌ يخلو من الأخطاء».. ولذلك فالمنصفُ من الملاحظة (وما أقلهم) يتراجعُ ويعترف، كما فعل عالم الفلك البريطاني «فريد هويل» حين بهره التركيبُ المعقدُ للحياة، فقال: «إنَّ احتمالَ أن تنشأ الحياةُ عن طريق الصدفةِ يُشبهُ احتمالَ أن يضربَ إعصارٌ ساحةَ خردةٍ، فينتجَ عن ذلك طائرةٌ بوينغ عملاقة جاهزةٌ للطيران»..

أيها المتأمل: إنَّ الصدفةَ ليست قُدرةً، ولا عقلًا، ولا قانونًا، ولا سببًا، ولا قصدًا.. إنما هي غيابُ السبب.. الصدفةُ هي فعلٌ بلا قصدٍ ولا سبب.. وإلا لو كانت الصدفةُ قد صَنعت كلَّ شيءٍ (كما يزعمون)، فلم لا نراها تصنعُ شيئًا على أرض الواقع.. لمَ لا تصنعُ الصدفةُ أو الطبيعةُ بيتًا صغيرًا من تلقاء نفسها؟.. بل حتى ولو طاولةً

صغيرة.. لكن ما نراه من صنع الطبيعة إنما هو العكس من ذلك تماماً.. فلا يُنسب للطبيعة على الحقيقة سوى الهدم والتخريب.. كما هو حاصل في الزلازل والبراكين والأعاصير والفيضانات.. وبالتالي فإنَّ الكونَ إذا نُسبَ إلى الصدفة، فإنما يُنسبُ إلى العبث والفوضى، وبالتالي فلا عقل في الوجود، ولا قيمة لأيِّ برهان..

وحيث إنَّ الصدفةَ لوحدها لا تكفي، فقد تمادوا في الضلال والتدليس أكثر وقالوا إنَّ «النشوء والتطور» هو الذي خلق الكائنات!.. وقدموه بديلاً عن الخالق، ورفعوا «نظرية داروين» إلى مقام المسلمات، وألبسوها لباس العلم، وتعاملوا معها كما لو كانت يقيناً لا يتطرقُ إليه شك، وهي عند التحقيق فرضيةٌ (غيبيةٌ) مليئةٌ بالفجوات والشغرات، ولا تزالُ تُراجعُ وتناقشُ وترقَّعُ، وأكثر نتائجها التي بنوا عليها إلحادهم بلا بيِّناتٍ ولا براهين..

وهذه النظرية وإن فسرت «تغيّر الأنواع» جزئياً، إلا أنها لا تفسّر «نشوء الحياة» ابتداءً، بل ولا تشرح كيف تمَّ الخلق أصلاً، ولا كيف انطلقت الحياة من العدم، وهي تهتمُّ فقط بتطور الموجود، لا بطريقة إيجاده، ولا تملك جواباً عن أسئلة البدايات.. فكيف نشأت الحياة من مادة ميتة؟.. وكيف ظهرت أولُ خلية حية؟.. ومن أنشأ شيفرات

الحياة؟.. ومن صمّم قوانينَ الجينات؟.. ومن أودع المعلومات المشفرة داخل الحمض النووي؟.. وكيف يستطيع الـDNA أن يبنى البروتينات؟.. وأيُّ قوةٍ وجهت تلك التفاعلات الكيميائية لتكون كائنًا حيًا مدرّكًا؟..

وعلى فرض صحتها في تفسير بعض التغيّرات الحيوية المحدودة، فإنها لا تفسّر القفزات النوعية الكبرى في الكائنات، كظهور العقل الواعي، واللغة، والضمير، والمشاعر، والغرائز، والمعاني، والأخلاق، والمواهب، والفن، والوجدان.. كما أنها أعجزُ من أن تفسّر حبّ الأم لطفلها، أو وفاء الصديق لصاحبه، أو تضحية الإنسان بحياته من أجل مبدأ يؤمن به..

فهذه المشاعر العليا، لا تُفكّكُ إلى ذرات، ولا تُفسّرُ بالجينات، لأنّ فيها «معاني» لا يمكنُ اختزالها ماديًا.. وقد قال النبي ﷺ في كلمة جامعة: «كل مولودٌ يولدُ على الفطرة».. وهذه الفطرة، هي بوصلة المعاني التي فطر الله الناسَ عليها، لا تستطيعُ المادةُ أن تبرمجها، ولا أن تفسرها بأيّ تعليلٍ ماديٍّ بارد..

ولهذا ترى دعاة الإلحاد، يستخدمون جزءًا من نظرية علمية، ثم يعمّمونه على قضية فلسفية كُليّة، ويظنون أنّ «التدرج في التغير

البيولوجي» يُغني عن سؤال: من صمّم نظام الحياة أصلاً؟.. ومن جعله بهذا الإبداع المذهل؟.. وصدق الله: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ بَرَاهِينٌ أَنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [النمل: ٦٤]..

فإذا انكشف عوار تدليسهم، وظهر أساسهم الخرب.. لجأوا إلى قلب الطاولة بالأسئلة العاطفية المغلوطة، وراحوا يسألون: لماذا يُبتلى الأبرياء؟.. ولماذا يولد الأطفال معاقين؟.. ولماذا وجد الشرُّ في العالم؟.. ولماذا يُعاقبُ الله من لا يعبدّه؟.. وهي في الحقيقة أسئلة نفسية لا برهانية، تُستعمل لخلخلة القناعات لا لتفسير الحقائق..

وهم يفترضون أنّ وجود الشرّ ينفي وجود الإله، وهو استدلالٌ فاسدٌ منطقيًا، لأنّ وجود الشرّ لا ينفي وجود الإله، بل قد يكون دليلًا عليه، فلا يدرك معنى «الشرّ» إلا بوجود معيارٍ للخير، وهذا المعيار لا يمكن أن يوجد بلا خالقٍ يُفرّق بين الخير والشرّ، وبلا حقٍّ مُطلقٍ يُرجع إليه، ومن الذي يضع هذا الحقّ المطلق غير الله..

ثم إنّ صيغة السؤال: «لماذا يسمحُ الله؟»، فيها اعترافٌ ضمنّي بوجود الله تعالى، مما يهدمُ الفكرة من أساسها..

أما تفسيرُ أفعالِ الله، فهو خارجٌ عن نطاقِ القدرةِ البشرية، فالله سبحانه: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].. ومن العجب أن يُقال: «طالما أننا لا نفهمُ كلَّ شيءٍ عن الله، فلنؤمنَ بعدم وجوده».. فيا لها من سفسطةٍ بينة، وهرطقةٍ ساقطة!..

ثمَّ من الذي قالَ إنّ الإلهَ يجبُ أن يعملَ حسبَ فهمنا القاصرِ للعدل؟ ألسنا نرى الطبيبَ يستأصلُ العضو التالفَ رغمَ الألم؟ ونرى المعلمَ يُعاقبُ التلميذَ ليُهدِّبه؟ ونرى الأبَّ يمنعُ عن ابنه ما يحبُّ حفاظًا على سلامته؟.. أفلا يجوزُ أن يكونَ وراءَ البلاءِ حكمةٌ؟.. ألم يقل الله تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]، وهل كلُّ ما جهلنا حِكْمَتَهُ يُعدُّ ظلمًا؟..

إنَّ القولَ بذلكَ ضربٌ من الغرورِ المعرفي، لأنَّ العقلَ حينَ يعجزُ عن إدراكِ الغايةِ فلا يحقُّ له أن ينكرَ وجودها، كمن يرى قطعةً في جوالٍ لا يرى لها فائدة، لكنه بما تراكمَ لديه من حُسنِ ظنٍّ بالشركة الصانعةِ يوقنُ أنَّ لها فائدة، وإن غابت عنه..

ثم لو أنَّ وجودَ الشرِّ ينفي الإيمانَ، لكان على الملاحدة أن يُقدموا بديلًا عاقلًا يُفسِّرُ به خلقُ الحياة.. لكنهم لا يملكونَ إلا «الصدفة والعشوائية»، فهل هذا أرحمُ بعقل الإنسانِ من الإيمانِ بآلهِ حكيمٍ عليمٍ، لطيفٍ رحيمٍ.. ﴿سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٦]..

وربما لجئوا إلى المغالطة المشهورة: «من خلق الله؟»، وهي شبهة قديمة سقيمة، كأنهم لا يعلمون أن من صفات الإله أنه واجب الوجود، لا بداية له ولا نهاية.. وأن تلك المقولة الخاطئة تُوقِعُ في مغالطة الدور الممتنع، وفي تناقض يستحيل وجوده، فإمّا خالقٌ أو مخلوق.. وهي كمن يقول: «موجودٌ وغير موجود في وقت واحد»، أو «خطان متوازيان متقاطعان».. فالسؤال باطلٌ من أساسه، لأنَّ الله هو أصل الوجود كله، فلا يُسأل عن مبدأ وجوده..

ثم تأتي طامة التدليس الكبرى بقولهم: «لا يوجد حقٌّ مطلق، كلُّ شيءٍ نسبي».. وهي دعوى ظاهرها التحرر، وباطنها التناقض والتدليس، لأنها في حقيقتها ادعاءٌ مُطلق، فكيف يُقال: «كل شيءٍ نسبي» بعبارة قطعية؟! فهم بذلك ينحرون مذهبهم بأيديهم..

ولو قُبِلَت هذه المقولة الواهية، لانهار العقل ذاته، وسقطت قيمة العلم، لأنَّ العلم لا يُبنى إلا على الثبات والموضوعية، فهل رأيت طبيباً يقول: «الدواء يُشفي بحسب وجهة نظرك»؟ أو مهندساً يقول: «الجسر آمنٌ عندي وخطيرٌ عندك»؟!..

ولو كان كلُّ شيءٍ نسبياً فعلاً، لصارت السرقة حريةً شخصية، والقتل وجهةً نظر، ولصاعت الحقوق، وسقطت القيم، واستبيح

الظلم، وذبح العدل باسم «الرأي الآخر»! فكيف يُحاكَمُ المجرم
إِذَا؟ وعلى أيِّ أساسٍ يُحمى الضعفاء؟..

ولو أنَّ النسبية المطلقة حُكِّمَتْ، لما بقي دينٌ ولا عقلٌ ولا
عدالة، ولانتهت الحِكْمَةُ واليقينُ والقوانين، ولصارت كلُّ القضايا
الكبرى نسيباً صغيرة!..

ثمَّ أليس من التناقض السخيف أن يُنكَرَ أحدهم وجودَ اللهِ لأنه
«غير مقتنع»، ثم يرفض أن يكونَ هناك ميزانٌ صحيحٌ توزنُ به
القناعات نفسها؟!..

إنَّ العلمَ بلا مرجعيةٍ لا يساوي شيئاً، والإرادةُ بلا ميزانٍ لا تثمرُ
يقيناً.. فتأمل قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوْنُهُ﴾ [الجن: ٢٣]..
فهل هناك نسبةٌ أكبرُ من أن يكونَ الهوى هو الإله؟!..

نعم، هناك أمورٌ تحتملُ النسبيةَ في الفروع، كما قال الشافعي
رَحِمَهُ اللهُ: «رأيي صوابٌ يحتملُ الخطأ، ورأيي غيري خطأٌ يحتملُ
الصواب».. لكن هذا لا يشملُ الحقائق الثابتة التي لا تقبلُ التقديرَ
أو التأويل، كوجود الله، وثوابِ الدين، ومبادئ العدل.. فما لا
يحتملُ الخطأ والصواب، فإنَّ له نفسَ الحكم عند الجميع..

ولقد أحكم الله خلقه، وثبَّت نواميسه، فجعلَ النارَ تحرق، والماءَ

يسقي، والشمس تطلع من المشرق، والزرع لا يخرج إلا ببذر.. ومن يدعي خلاف ذلك فهو كمن يقول: «الشمس ليست هي التي تُضيئ النهار»، وقد صدق من قال:

فليس يصح في الأذهان شيءٌ: إذا احتاج النهار إلى دليل
ثم إذا انقطعت حجتهم وأفلسوا، لجأوا إلى السفسطة والتهكم؛
فمرة يسخرون، ومرة يراوغون، ومرة يقولون: «نحن لا نعلم»، ومرة
يقولون: «العلم لم يثبت هذا بعد».. لكنهم لا يقولون أبداً «نحن
أخطأنا»، لأنهم ليسوا طلاب حقيقة، بل هم عباد هوى، قال الله عن
أمثالهم: ﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ
اتَّبَعَ هَوَاهُ يَغِيْرُهُدَىٰ مِنَ اللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠]..

وهكذا يتبين أن الإلحاد لا يقوم على البرهان، وإنما يقوم على
التدليس والمغالطة، وأنه لا يملك تفسيراً مقنعاً للوجود، ولا يقدم
بديلاً أفضل من الإيمان، بل كل ما يقدمه هو شك منمق، وأسئلة
مشحونة، وتناقضات مكسوة بمصطلحات فلسفية، ﴿كَرَاهٍ بِقِيَعَةٍ
يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ [النور: ٣٩]..

ومن صور هذا السراب ومغالطاته: أنهم يزخرفون العبارات

ويُلبسونها ثوبَ الحكمةِ والفلسفة، وهي في جوهرها لا تعدو أن تكونَ عبثًا مقنَّعًا.. فانظر في حديثهم عن الشرِّ، كيف يُعفلونَ أنَّ الإقرارَ بوجود الشرِّ يقتضي الإيمانَ بميزانِ الخيرِ والشرِّ، أيَّ الإقرارَ بوجودِ معيارٍ موضوعيٍّ أعلى، لا علاقةَ له بالأذواق والآراء، وهذا ما لا يستطيعُ الإلحادُ تفسيره.. بل كيف يحكمُ الإلحادُ على شيءٍ بأنه شرٌّ مُطلقٌ، وهو لا يؤمنُ إلا بالمادة؟.. أليست الشرورُ في النهاية بحسب منطقهِ مجردَ تفاعلاتٍ كيميائيةٍ؟.. لكنهم في لحظة الشعورِ بالألم أو الظلم، يصرخون: هذا شرٌّ! وكأنهم دون أن يشعروا يعترفون أنَّ هناك شيئًا اسمه «العدلُ المطلق»، وأنَّ في الإنسان فطرةً تدركُ الحقَّ وتطلبه، وتستنكرُ الجورَ حتى لو برَّره العقلُ المجرد..

وتأمل كيف يتكئونَ على نظرية التطورِ في تفسير كلِّ شيءٍ، مع أنَّ النظريةَ نفسها باعتراف كبارِ منظِّريها لا تملكُ إجابةً عن أصلِ الحياة، ولا عن قوانينِ الجينات، ولا عن نشأة الأنظمةِ المعقدة دفعةً واحدة، ولا عن الأخلاق والمعاني، ولا عن الوعي والإدراك.. لكنهم بالتدليس يلوونَ عنقَ النظريةِ حتى يجعلوها تفسيرًا شاملًا يُزيحُ اللهَ عن المشهد.. وهذا ليس أسلوبًا علميًا، بل توظيفٌ انتقائيٌّ للعلم لهدم الإيمان.. وكذلك حين يقولون إنَّ الكونَ أزلِّي، أو أنه

نشأ من لا شيء، فهم في الحقيقة يرددون أقوالاً خالية من المعنى العقلي، بل هي تعبيرات شاعرية في ثوب علمي، لا يُقرّها منطق ولا عقل.. فالقول إنَّ «العدم أنتج شيئاً» ليس قولاً علمياً، بل هو مهزلة عقلية، لأنَّ العدم لا يملك أيَّ خصيصة، لا قدرة ولا إرادة ولا طاقة ولا زمناً، ولا أيَّ شيء على الإطلاق، فكيف يُنتج؟.. لكنهم يلجؤون إلى هذه المغالطات لأنهم لا يريدون الاعتراف بالحقيقة البسيطة الواضحة: أن وراء هذا الكون خالقاً عليمًا قديرًا..

فالإلحاد في حقيقته ليس مذهباً برهانياً، وإنما هو ركام من الشبهات، تُغلف بأسلوب فلسفي أو علمي، ولو دقت في أيَّ شبهة من شبهاتهم، لوجدتها مبنية إما على مغالطة منطقية، أو تسطيح علمي، أو حيلة لغوية، أو استغلال لمشاعر إنسانية.. فإذا تمَّ تفكيك هذه الشبه، سقط مذهبهم من أساسه، وظهر عواره وتهافته..

ولهذا فإنَّ أقصر طريق في الرد على الإلحاد: أن تكشف للمخدوعين به كيف يُصنعُ الإلحاد، وكيف تُنحتُ شبهاته، وكيف يُعادُ تسويقها بألفاظٍ براقّة، ومفاهيم مغلوطة جوفاء.. فمتى ما انكشف هذا المنهج على حقيقته، تهاوى ذلك الأسلوب الخادع، واستوى القلب على الجادة، وسكن العقل إلى الحق، وأدرك كلُّ

من له بصيرةٌ أَنْ ما يُسمى: «الإلحادًا علميًا أو فلسفيًا».. ليس إلا سنسطةٌ تختبئ خلفَ مصطلحاتٍ براقَةٍ، وتُخفي في طيّاتها عجزًا عن مواجهة الحقائق الكبرى.. فلا حُجَّةَ أَصْدُقُ من فطرة الإنسان، ولا برهانَ أَظْهَرُ من بدائع هذا الكون، ولا إيمانَ أَثْبَتَ من إيمان من جربَ الحقَّ وآمنَ به وعاشَ عليه..

وإننا بعد بيان هذه الشواهدِ كلها لعلّنا نيقينُ أَنَّ الإلحادَ ليس تيارًا عقلائيًّا كما يُسوِّقون، بل هو منظومةٌ من الأخطاءِ والتدليسِ المركب، والمغالطاتِ المكررة، تُصاغُ بعباراتٍ براقَةٍ الظاهرِ لكنها خواءُ المضمون، ووجهاتُ نظرٍ تبدو منطقيةً لكنها في الحقيقة ليست كذلك، ومقدماتٌ مزيفةٌ تُلبَّسُ بلباسِ «العلم» زورًا، وما بُني على باطل، فهو باطلٌ، ومن خالطَ أصله زيفٌ وكذب، فلن يثمرَ فرعُه صدقًا ولا حقًا، كما قيل قديمًا: «إنك لا تجني من الشوك العنب»، وهذا هو حال الإلحاد: ركامٌ من دخان، وفقايعُ صابون، يُخدعُ به من لم يتأملهُ جيدًا، ويُفتنُّ به من لم يُحصِّن قلبه بالحق، لكنَّ من عرفَ الحقَّ عرفَ ضده، ومن استنارَ بنور الوحي، أدركَ أَنَّ الله هو الحقُّ، وَأَنَّ ما يدعون من دونه هو الباطل، وصدق الله العظيم: ﴿فَأَمَّا الزُّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ۚ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ

الْأَمْثَالَ ﴿[الرعد: ١٧]..

وبعد كلّ هذا يظهر لنا بوضوح أنّ القضية ليست في قلة الأدلة على وجود الله أو عدم كفايتها، بل في إصرارهم المسبق على إنكارها مهما بدت ناصعةً وواضحة.. ولهذا، فإنّ على كلّ ذي عقل وبصيرة أن يتحرّى طريق البرهان، وأن يتجرّد للحق، وألا ينجرّف خلف السراب، فالهداية نعمة، والحقُّ أبلغ، ومن يرد الله به خيرًا يشرح صدره للإيمان، ويجعل له نورًا وفرقانًا..

فالإلحاد في جوهره وحقيقته ليس «رفضًا للخالق فقط»، بل هو رفض للعقل، وللفطرة، وللحق، وللقيم، وللضمير، وللمعنى، وللحكمة.. الإلحاد معاكسةٌ للفطرة ولكل ما هو طبيعي، وسيرٌ في متاهةٍ مظلمةٍ مُغلقةٍ من كلّ النواحي، ليس لها مدخلٌ ولا مخرج.. ﴿صُمُّ بَكْمٌ عُمِّي فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٨].. وصدق الله: ﴿أَفَمَنْ أَتَى عَلَىٰ بَيْتِهِ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَتَىٰ عَلَىٰ بَيْتِهِ وَهُوَ عَلَىٰ شَفَا جُرْفٍ هَاكِ فَاتَّهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: ١٠٩]..

ومن صدّق أنّ الكون بلا غاية، وأنّ الحياة كلها صُدفةٌ وعبث، وأنّ عقله مجرد نتاجٍ أعمى للطبيعة، فما المانع أن يكون عقله

وأفكاره وإلحاده وأمره كله عبثاً لا قيمة له ولا غاية.. وبالتالي فهو
أمام خيارين لا ثالث لهما: إما أن يُعْمَلَ عقله فيلغى إلحاده..
أو يعطلَّ عقله ويلغيه ليبقي إلحاده..

ويا من تريد أن تفهم هذا الوجود بحق، وأن تصل إلى أنوار
الحقيقة بيقين.. اعلم أن أعظم ما يُبنى عليه الفهم الصحيح هو
الإيمان بالله.. ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: ٤٠]..

وكم هي خسارة عظيمة: أن يرى الإنسان كل شيءٍ إلا الحقيقة،
وأن يتعرف على كل شيءٍ إلا على خالقه، وأن يجرب الطرق كلها
إلا الصراط المستقيم: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٤]..

فيا أيها الحائر في دروب الفكر، المتعب من كثرة البحث، الهائم
في بحار الشك والأوهام.. قف لحظةً وتأمل، وكن صادقاً مع
نفسك، وتحرر من الهوى.. وعُد إلى الحق، فإنه لا يخذلك..
واستمسك بحبل الله المتين، (فما لك من إله غيره)، ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ
الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهَ﴾ [الإسراء: ٦٧]..

الله.. الله، لا تسلم عقلك لمن يلقي به في أوحال الشبهات، ولا

ترَضُّ أن يجروك بزخرف القولِ إلى قاعٍ سحيقٍ من الشك والتناقض.. واعلم أن الإيمان بالله أبقى للعقل وأرحم، وأوثق للعلم وأسلم، وأقرب للحق وأحكم، وأهدى للفطرة وأكرم.. ولقد خُلقت بفطرةٍ سوية، وعقلٍ سليم، وقلبٍ نقي، وقد أراك الله من آياته في الآفاق وفي الأنفس ما يكفي وزيادة: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت: ٢٠].. ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].. وتذكر أن الحقَّ أبلج، وأن الباطل لجلج، وأن الإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس، وقد قال تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: ٣٢]..

فيا ربنا، يا من خلقتنا فأحسنْتَ خَلْقنا، ورزقتنا فأسبغت علينا النعم، نسألك اللهم أن تُلهمنا رشدنا، وأن تنور بصائرنا.. وأن تجعلنا ممن أحبوا الحقَّ فهُدُوا إليه، وطلبوه في مظانه فأدركوه.. وانشرح صدورهم له فاتبعوه.. إنك وليّ ذلك والقادر عليه..



الباب السادس:

نتائج الإلحاد وثمراته..

الإلحاد ليس تصوراً وجودياً بنائياً كما هي الأديان، بل هو تيهانٌ عقليٌّ، وخواءٌ روحيٌّ، وموقفٌ سلبيٌّ من كلِّ وحيٍّ وحقٍّ، ينقضُّ البناءَ ولا يقيمُ بديلاً، وي طرحُ الأسئلة دون أن يقدمَ جواباً.. إنه لا يستندُ إلى برهانٍ مقنع، ولا إلى علمٍ يقين، ولا إلى منطقٍ سليم، بل يكتفي برفض الدليل، وردِّ الحجة.. قال تعالى: ﴿فَأَنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتٍ اللَّهُ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]..

وحين يغيبُ الإيمانُ بالخالق، وتنقطعُ الصلةُ بالغيب، وتُجحدُ الغايةُ والمصير، فإنَّ الإنسانَ يُسلَبُ أعظمَ أسبابِ الطمأنينةِ والكرامة.. ويتحولُ إلى جسدٍ بلا روح، وعقلٍ بلا مرجعية، ووجودٍ بلا بوصلةٍ ولا اتجاه.. ومن هنا، كان لظاهرة الإلحادِ ثمراتٌ دنيويةٌ سيئة، فضلاً عن المصير الأخرويِّ المروّع.. قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٨]..

وفي هذا الفصل، نقفُ على أبرز نتائج الإلحاد السيئة، وثمراته المدمرة.. وهي على النحو التالي..

(١) كثرة الانتحار:

فالإحصاءات الصادرة عن أرقى مراكز الأبحاث الغربية تؤكد أنَّ أعدادَ المنتحرين تزدادُ في البيئات التي يغيبُ فيها الإيمان، وتعلو فيها رايةُ الإلحاد، ومن ذلك دراسةٌ نشرت في مجلةٍ من أعرقِ المجلات العلمية العصبية والنفسية تؤكدُ أنَّ المتدينين أقلُّ ميلاً للانتحار، وأقوى صموداً في وجه المصاعب، وأنَّ الذين لهم صلةٌ بالله هم أكثرُ تمسكاً بالحياة لما يشعرون به من ثقةٍ واطمئنان، ثم إنَّ هناك دراساتٍ قارنت بين عشرات الدول الأوروبية، وتبينَ فيها أنَّ البلدان التي تنتشرُ فيها اللادينية، كالدنمارك والسويد وروسيا، جميعها من الأعلى في معدلات الانتحار. وفي الولايات المتحدة، أظهرت البحوثُ أنَّ غيرَ الممتمين دينياً، وخصوصاً الملحدين، يسجلون نسبَ انتحارٍ تزيدُ بمرتين أو ثلاثٍ عن غيرهم، بل وأنَّ كثيراً منهم يعيشُ في دوامةٍ من القلق والاكتئاب..

ولك أن تتساءل: لِمَ ينتحر هؤلاء؟.. والجوابُ واضح: لأنهم محرومون من معرفة معنى الحياة وغايتها، إذ إنَّ الإلحادَ يَصوِّرُ الحياةَ عبثاً، والكونَ صُدفةً، والموتَ نهاية، والإنسانَ عندهم بلا

غاية، ولا أمل، ولا حكمة، ولا ملاذ ولا سند.. فإن ضاقت به الدنيا، فلا أحد فوقه يُرجى، ولا باب أمامه يُطرق، ولا سامع له فيشكي..

فالملحد حين ترك الإيمان بالله واليوم الآخر، ترك معه أعظم مصدرٍ للطمأنينة والثبات، لتظلّ تعتلج في داخله تساؤلاتٌ مُلحّة: ما الغاية من وجودي؟.. ما مصيري بعد الموت؟.. هل أنا محقٌّ في إلحادي، أم أني أخطأت فأضعت نفسي؟.. وغيرها من التساؤلات الكفيلة بأن توقع الإنسان في صراعٍ نفسيٍّ رهيب.. فكيف إذا اجتمعت مع مرضٍ أو فقدٍ قريبٍ أو حالةٍ اكتئابٍ، فإنها غالباً ما تدفعُ صاحبها إلى الانهيار، ومحاولة الانتحار..

وإذا كان الإنسانُ سيعيشُ وهو لا يرى لوجوده غايةً، ولا لحياته هدفاً، ولا لموته مآلاً.. فبأيّ معنى سيعيش؟..

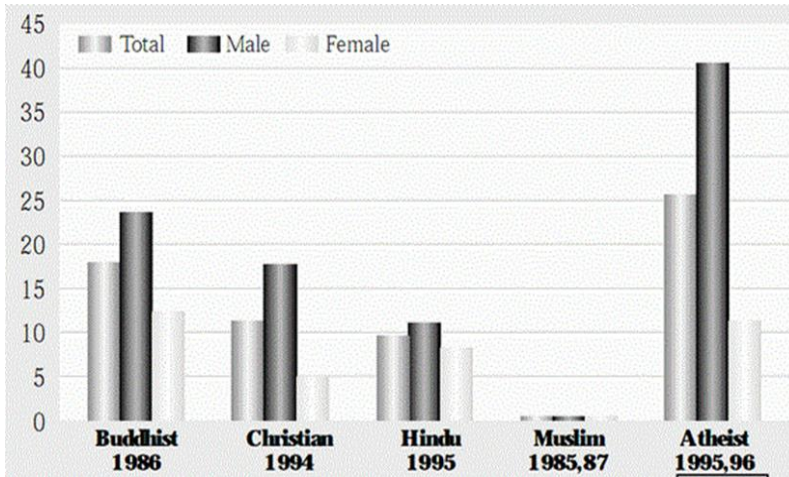
وإذا أنكرَ أن له ربّاً خلقه لحكمةٍ، وأوجده لغايةٍ، وسيسأله عما قدّم وأخر.. فبأيّ طاقةٍ سيقاومُ هذا الفراغَ والقلقَ والتهيه؟..

تأمل حجمَ الوحشة في نفسه وكيف حرم نفسه من طمأنينة الدنيا، ونعيم الآخرة، فليس عنده بعد الموت إلا الفناء، فمن ذا يردعه عن اتخاذ قرار الانتحار؟.. ومن ذا يقول له: قف، إن وراءك بعثاً ومآباً،

وجزاءً وحساباً.. قف فإنَّ قاتِلَ نفسه محرومٌ من الجنةِ مخلدٌ في النار..

فيا من اخترت طريقَ الإلحاد، تأملِ حالَكَ وحالَ أمثالك، فهل وجدتَ في الإلحاد سَكينةً؟.. هل صار الوجودُ أوضحَ بالنسبة لكَ؟.. أم ازدادَ غموضاً وكآبةً؟.. هل خمدت نيرانُ القلق، أم ازدادَ لهيبها؟.. إن كنت صادقاً مع نفسك، فلن تنكرَ أنَّ القلبَ لم يسكن، وأنَّ العقلَ لم يطمئن، وأنَّ النهايةَ لا تزالُ كابوساً مُرعباً يلاحقك في كلِّ مساء.. أفلا تقنعك كلُّ هذه الإحصاءات من واقعِ القوم، ومن جامعاتهم ومراكزِ أبحاثهم، فنحنُ لم نأتك بها من كتبنا..

وهذا الرسمُ البيانيُّ التالي لدراسةٍ بحثيةٍ أُجريت عام ٢٠٠٢م يبيِّنُ نسب الانتحارِ مقارنةً بالأديان..



٢) الأنانية والنزعة الفردية..

حين يؤمن الإنسان بالله، فإنه لا يعبدُ ربه بالطاعات فحسب، بل يعبدُهُ أيضًا بالإحسان إلى غيره، ويستشعرُ رقابةَ الله عليه، ويوقنُ أنَّ الرحمةَ من صفاته سبحانه، وأنَّ من لا يرحم لا يرحم..

فالمؤمنُ يُعاملُ الناسَ بما يحبُّ أن يعاملَهُ اللهُ به، ويبدلُ المعروفَ خالصًا لوجه الله، ويصبرُ على الأذى احتسابًا، ويبرِّ والديه ويُعطي الفقراء رجاء ما عند الله، وطمعًا في أجرٍ لا ينفد.. أمَّا الملحدُ الذي لا يؤمنُ بآخرة، ولا يعتقدُ بجزاءٍ بعد الموت، ولا حسابٍ ولا عقابٍ ولا دارَ بقاء؛ فبأيِّ دافعٍ يُقدِّمُ المعروف؟.. ولأيِّ غايةٍ يُضحِّي براحته من أجل غيره؟.. وبأيِّ معنىٍ يؤثر غيره، وهو لا يؤمنُ بثوابٍ، ولا يخافُ من عقابٍ، إلا ما يعودُ عليه بنفعٍ دنيويٍّ..

وكيف يُنتظرُ من عقيدةٍ جوفاء، لا تؤمنُ بجنَّةٍ ولا نارٍ، ولا تُقرُّ بثوابٍ ولا عقابٍ، ولا تنطلقُ من مرجعيةٍ عليا ثابتة؛ أن تُنتجَ نفوسًا باذلةً، وقلوبًا محسنةً؟..

فالإنسانُ حين يعتقدُ أنَّ هذه الحياة هي كُلُّ شيء، وأنها فرصتهُ الوحيدةُ للمتعة واللذة، فسيصبحُ أكثرَ حرصًا على تحقيقِ مصالحهِ الشخصية، ولو على حسابِ القيمِ والعلاقات.. وحينها، فلن يرى

الملحدُ في فعله للخير «استثماراً مجدياً»، بل «خسارةً فورية»، لأنه لا ينتظرُ جَنَّةً يُثَابُ فيها، ولا يخشى ناراً يُعاقبُ بها، ولا يعترفُ بميزانٍ توزنُ به أعماله.. لذلك، فلا يُتوقعُ منه في الأصلِ برٌّ بوالد، ولا صلةً لقريب، ولا وفاءً لصديق، ولا إحساناً لجار، إلا بمقدار ما تخدمُ تلك الأفعالُ مصالحه المادية، كاكْتسابِ السمعة، أو تبادلِ المنافع، أو إرضاءِ الضمير، أو مجارةً للبيئة، أو مجاملةً لصديق، أو اتقاءً لعقوبة القانون..

وفي كلِّ هذه الحالات، تظلُّ تلك الدوافعُ طارئةً متغيرة، لا تنبُعُ من منظومةٍ قيميةٍ مطلقة، ولا تصمدُ أمامَ قوة المغريات والشهوات، وبقية المصالح الأخرى..

وهذا ليس حكماً نظرياً مجرداً، بل هو ما أثبتته دراساتٌ نفسيةٌ واجتماعيةٌ موثقة: ففي دراسةٍ منشورةٍ في Journal of Personality and Social Psychology (٢٠٠٥)، تبين أن الذين يصرّحون بعدم إيمانهم بالله أو بالآخرة، يُظهرون مستوياتٍ أقلَّ في «الإيثار الأخلاقي»، وأكثر ميلاً لتبرير «المنفعة الشخصية» كأساسٍ للسلوك. [Batson et al.]، ٢٠٠٥. كما كشفت دراسةٌ مسحيةٌ واسعةٌ أجريت في أوروبا (وشملت أكثر من ٢٥ دولة) أن

المتدينين أكثر استعدادًا للمشاركة في الأعمال الخيرية والتطوعية، وأكثر تعاطفًا مع الفقراء والمحتاجين، مقارنةً باللادينيين أو الملحدين. [Pew Research Center، ٢٠١٨].. ولذلك، فلا غرابة أن تنفشي في المجتمعات الإلحادية النزعة الفردية، وأن تضمحل فيهم مشاعرُ البذل والتكافل، فيغدو الإنسانُ معها فردًا منعزلًا، لا يهتمهُ إلا مصالحه، ولا يتحركُ إلا بدوافعٍ مادية.. صدقت يا رب: ﴿أَفَنَنْ يَمْشِيَ مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشَىٰ سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المالك: ٢٢]..

(٣) انهيارُ القيمِ الأخلاقية

فلا شكَّ أنَّ انهيارَ الأخلاقِ مرهونٌ بسقوط الإيمان.. فما الذي يردُّعُ الإنسانَ عن الشرِّ إذا لم يؤمنَ بخالقٍ يراقبه، ولا بحسابٍ ينتظره، ولا بجزاءٍ يُثيبُهُ أو يُعاقبه؟..

وما الذي سيدفعُهُ إلى الفضيلة إن لم يكن هناك ربٌّ يحاسب، وإذا لم تكن هناك جنةٌ تُرجى، ولا نارٌ تُخشى..

الملحدُ يعتقدُ أنَّ الأخلاقَ ليست أوامرَ إلهية، ولا قيمًا مُطلقة، وإنما هي مجردُ اتفاقاتٍ بشريةٍ قابلةٍ للتغيير، يحقُّ لكلِّ مجتمعٍ وزمانٍ أن يعيدَ تشكيلها كما يشاء.. فلا وجودَ لخيرٍ مطلق، ولا لشرٍّ

مطلق، بل كلُّ شيءٍ «نسبي»، وكلُّ حكمٍ «قابلٌ للنقاش»، حتى أكثرُ الجرائمِ فظاعةً قد تُبرَّرُ إن اقتضتها المصلحةُ أو رأى الأغلبيةُ ذلك!.. وهذا ليس تخرُّصًا، بل هو ما يُصرِّحُ به رموزُ الإلحادِ أنفسهم: فهذا ريتشارد دوكنز يقولُ بوضوحٍ: «الكونُ الذي نرصدهُ لا يحوي في طياته خيرًا ولا شرًّا، لا عدلاً ولا ظلمًا، فقط حمضٌ نوويٌّ يتكاثر»، [Richard Dawkins]، River Out of Eden، ١٩٩٥]. .. أما بيتر سنجر، وهو من رواد «النفعيةِ الإلحادية»، فيُجيزُ قتلَ الطفلِ المعاقِ بعد ولادتهِ إن رأت الأسرةُ في ذلك راحةً أو مصلحةً، ويُبيحُ العلاقاتِ المحرمةِ بجميع صورها، بشرط «رضا الطرفين»، دونَ اعتبارٍ لأيِّ قيمةٍ مُطلقةٍ.. بل إن يورغن هابرماس، الفيلسوفُ الألمانيُّ يقرُّ ويقولُ بالحرف: «العقلُ وحدهُ لا يكفي لضمانِ الالتزامِ الأخلاقي، نحن بحاجةٌ إلى مواردٍ إيمانيةٍ تُبقي على جذوةِ الأخلاقِ حيّةً»..

فإذا غابَ الإيمانُ، فمن يقررُ أنَّ الكذبَ أسوأُ من الصدق؟.. ومن يقولُ إنَّ الغدرَ مذمومٌ، والوفاءَ محمودٌ؟.. ومن يزعمُ أنَّ العفافَ خيرٌ من الفجور؟.. ومن يمنعُ الإنسانَ أن يعيشَ لهواه، وأن يتمرّدَ كما يشاء؟..

وإذا كان الإنسان كما يزعمون مجرد نتاج عشوائي لتطور الطبيعة، فلماذا يلزم بأي خلق أصلاً؟..

وهكذا فحين يُنحى الإيمان ينطفئ الضمير؛ لأنَّ الضمير إنما ينمو من استشعار عينٍ تُراقبك، وتسجل أعمالك، ثم تُعرض على الله جَلَّ وَعَلَا.. أمّا إن غابَ هذا كله، فما الذي يبقى لِيُغذّي الضميرَ ويمنعه من التبدّل؟!.. ولذلك، فليس غريباً أن يخرج من رحم الإلحادِ جيلٌ لا يرى بأساً في الظلم إن نفع، ولا في الكذب إن أفاد، ولا في الفجور إن راق.. جيلٌ ينطفئ فيه الضميرُ شيئاً فشيئاً، وتصبح «المنفعة» هي المعيار الوحيد لسلوكه.. قال الله تعالى: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يَضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [فاطر: ٨]..

٤) الجنوح للجريمة..

فالإلحاد لا يزكي أخلاقاً، ولا يُعلّم أدباً، ولا يضبطُ سلوكاً، وإنما يطلق للنفوس العنان أن تفعل ما تشتهي، وأن تطلب ما تهوى، ما دامت العقوبة مأمونة.. ولا غرابة فمتى انفصلت السلوكيات عن الدين، سقطت الحُرّمات، وتوحشت الطباع، وصارَ الإنسان عبداً لشهواته، لا يمنعه إلا العجز أو الخوف من القانون، أما خشيةُ الله فقد ضاعت، لأنه لا يؤمنُ أنه ثمة ربٌّ يراه أو يحاسبه..

فالإيمانُ هو الحارسُ الأكبرُ للأخلاق، وإذا سقطَ الإيمانُ، سقطت معه منظومةُ الأخلاقِ كلها، وتحولت «القيم» إلى شعاراتٍ جوفاء، لا تصمد أمام الحاجة أو الشهوة، بل تصبحُ الأخلاقُ عُرفاً متغيراً، يتشكلُ بحسبِ الهوى والثقافةِ والبيئةِ والمصلحة، وهذا هو مكن الخطر: أن تكونَ الأخلاقُ بلا أساسٍ ثابت، بل رأياً شخصياً أو اتفاقاً اجتماعياً، فلا غرابة أن ترى المجتمعات التي شاعت فيها الفلسفةُ الإلحاديةُ قد تطبعت مع الشذوذ، واستباححت الفواحش، وسوّغت المخدرات، بل وباركت الزنا، وشرّعت للقتل الرحيم، والإجهاض، والانتحار، كلُّ ذلك لأنهم قطعوا العلاقةَ بين الأخلاقِ والإيمان، فجعلوا الإنسانَ هو المشرّع، والهوى هو الحكم..

وتشيرُ تقاريرُ رسميةٌ موثقةٌ من منظماتٍ عالميةٍ كمنظمة الصحة العالمية، إلى ارتفاعِ نسبِ الجرائم، والمخدرات، والعنفِ الأسري، في البيئات التي يكثرُ فيها الإلحادُ والتحللُ من الدين، رغمَ وفرةِ القوانينِ وكثرةِ العقوبات، لأنها قوانينُ بلا ضمير، وعقوباتٌ لا تُخيف من لا يخاف الله، فالملحدُ قد يُخفي جرائمه، لكنه لا يمكنُ أن يُخفي ضياعَ ضميره، وإذا انعدمَ الضمير، فمن يضبطُ السلوكَ ومن يمنعُ النفسَ عن الحرام إذا أمنت العقوبة؟..

٥) تفكك الأسرة وضعف العلاقات الاجتماعية.

فمن ثمار الإلحاد المؤلمة تفكك الأسرة وضعف العلاقات الاجتماعية، فعندما ينزعُ الإيمانُ من القلوب، تقل الصلاتُ بين الناسِ وتنقطع، لأنَّ الذي يُغذيها هو الدين، فإذا نُحِيَ الدينُ فإنَّ العلاقات ستقومُ على أساسِ المصلحةِ لا المودة، وعلى الشهوة لا المسؤولية، وعلى علاقةٍ عابرةٍ لا عهدٍ مقدّسٍ.. ولهذا فإنَّ كثيرًا من المجتمعات التي غلب عليها الإلحادُ أو العلمنةُ القاسيةُ تشهدُ انهيارًا مُتسارعًا في منظومة الأسرة، ويندرُ فيها الزواج، وينعدمُ فيها الإنجابُ تقريبًا، وتكثرُ فيها العلاقاتُ العابرة، والمواليذُ خارجَ إطارِ الزواج، حتى بلغ الأمرُ في بعض الدولِ أن صارَ عددُ الكلابِ المنزليةِ يفوقُ عددَ الأطفال، وأن معظمَ من يتزوجون لا يريدون أبناءً، لأنهم لا يرون لذلك معنىً إلا كلفةً ماليةً وتقييدًا للحرية..

وقد نشرت مجلة: «ذا أتلانتيك» الأمريكية تقريرًا موسعًا بعنوان: «الأسرةُ تنهار»، أظهرَ أن نسبة الأطفال الذين ينشؤون في بيوتٍ مفككةٍ أو بلا والدٍ، تتجاوز ٤٠٪، وأن النمطَ الجديدَ للأسرة في كثير من المجتمعات لم يعد «أبٌ وأمٌّ وأبناءٌ»، بل باتَ إمّا «شخصٌ واحدٌ مع حيوانٍ أليفٍ»، أو «شريكانِ بدونِ التزامٍ»، أو «أمٌّ مع أطفالٍ بلا

أب»، وأنَّ هذا التفكك يورثُ أجيالاً مُضطربةً نفسيًا، متمردةً سلوكيًا، تفتقدُ الأمانَ والانضباطَ والاستقرار..

فالدينُ وحدهُ هو الذي يُضفي على الزواج معنىً ساميًا، ويرفعه من مجرد علاقةٍ جسدِيَّةٍ إلى ميثاقٍ غليظ، وعهدٍ مقدس، ويبيِّن بين الزوجين المودةَ والرحمةَ، ويجعل تربيةَ الأبناءِ عبادةً، والإنفاقَ عليهم قربةً، وبناءَ الأسرةِ بابًا من أبواب الجنة، أمَّا الإلحادُ فلا يُقدِّسُ الزواجَ، ولا يُشجِّعُ على التضحية، ولا يُربي على الصبر، ولهذا تكثرُ فيه الخيانة، ويضعفُ بينهم التواصل، ولا حرجُ من فسخ العقدِ وإنهاءِ العلاقةِ متى فطرت الرغبة، أو انتهت المنفعة..

والخلاصة: أنَّ الأسرةَ هي النواةُ الأولى للمجتمع، فإنْ فُقدَ الدينُ منها، تفسخت، وإنْ لم يكنْ هناك رابطٌ من الله يجمعُ بينهم، تمزَّقت الصلات وصار كلٌّ يعيشُ لنفسه، وهذا ما نشهدهُ في المجتمعات الماديَّة التي هجرت الإيمان، فدوَّر المسنين فيها تملى، والأبناءُ لا يعرفون آباءهم، والمرأةُ تُلقى وليدها في صندوق التبنّي، والرجلُ يتخلى عن أسرته لأجل مُتعةٍ جديدة، وتغيَّب القدوات، وتكثرُ الأمراضُ النفسيَّة، ويُحرَمُ الطفلُ من الحنان، والزوجةُ من التقدير، والزوجُ من الوفاء، والوالدان من البر، فهل هذا ما يريدهُ الملحدون لمجتمعهم وأبنائهم؟..

٦) انهيار أنظمة المجتمع التكافلية.

يشهد الواقع في سائر المجتمعات والبلدان أنَّ غالبَ القائمينَ على أعمال البر والإحسان، هم من أهل الدين والإيمان، لعلمهم أنَّ وراء هذه الأعمال ربًّا يرى ويسمع ويجزي، ودارًا خالدةً ينالون فيها الأجر الأوفى..

أمَّا الملحدُ فلماذا يضحّي ويُحسن؟.. وماذا سيستفيد من الإيثار والبذل؟.. ولا غرابة فقد أطفأ الإلحاد جذوة الإحسان في نفسه، وأفقدته الأمل في الجزاء الأخروي.. لسان حاله: نفسي نفسي..

وحين تتأمل أحوال الدول التي يغلب عليها الإلحاد أو التي تتبنى الفكر العلماني اللاديني، فمن السهل أن ترى إلى أين وصل ضعف الروابط الأسرية بينهم، وإلى أي مدى تفككت علاقاتهم الاجتماعية، وشاع بينهم العقوق، وانعدمت رغبتهم في الزواج الرسمي، وزهدوا في إنجاب الأطفال، وأمسى إعالة الوالدين عبئًا شخصيًا لا علاقة له بالفضل والبر، ولذا كثرت عندهم ملاجئ العجزة والمسنين، ودور تربية اللقطاء، وتزايد اعتماد الناس على الرعاية الحكومية.. وتحوّل المجتمع إلى أفراد متباعدين، كلٌّ منهم مشغولٌ بنفسه، لا يربطه بالآخرين رابطٌ إيماني ولا وجداني، وإنما

هي مصالحٌ ماديةٌ باردة، سرعانَ ما تتلاشى بتلاشي المصلحة..

وقد أظهرت دراساتٌ كثيرةٌ منشورةٌ في مجلاتٍ بحثيةٍ محكمة، ومنها ما صدرَ عن جامعاتٍ في ألمانيا وأمريكا الشمالية، أنَّ معدلاتِ التطوعِ الخيري والمشاركةِ في أعمال البر، أعلى بكثيرٍ بين المؤمنين من غيرهم، وأنَّ الدافعَ الديني هو المحرِّكُ الأكبرُ لأعمالِ الإغاثة والتطوع. بل إنَّ غالبَ الجمعياتِ الخيرية العالمية، في الإغاثة والتعليم والصحة، مؤسسوها مؤمنون، والذي يديرها منظماتٌ دينية.. وأما إسهامُ الملاحدةِ فإنَّ وجدَّ، فبنزعةٍ ماديةٍ أو دعائيةٍ، تنتظرُ المردودَ الدنيوي، والمصلحة الشخصية.. وإلا فمن الذي سيذلُّ منهم لأجلِ يتيمٍ لا يعرفه؟.. ومن سيحسنُ إلى مريضٍ لا يُتوقعُ منه منفعة؟.. ومن سيغيثُ ملهوفًا لا تتحققُ من ورائه فائدة؟.. وأما ما قد يُرى من الخدمات الحكومية الراقية في بعض الدولِ غيرِ المؤمنة، فإنه مبنيٌّ على النظام لا على الرحمة، وعلى الحقوق المالية لا على الإيمان، والأمرُ أشبهُ ما يكونُ بخدمة الزبائن..

بينما لو نظرت بعينِ الإنصافِ إلى المجتمعاتِ المؤمنة، فسترى كيف تنتشرُ فيها مظاهرُ التراحم، والتكافل، وكيف تجدُ فيها قلوبًا تحبُّ العطاء، وأياديَ تتسابقُ لإغاثة الفقراء.. وما كان لمثل هذه المشاهدِ أن تبقى لولا الإيمانُ بالله والدارُ الآخرة؟..

وَصَدَقَ اللَّهُ ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَنْذَرُ أَتُولُوا
الْأَلْبَابَ﴾ [الرعد: ١٩]..

(٧) تَمَزُّقُ الْمَجْتَمَعِ وَتَنَاحَرُهُ أَحْزَابًا.

ومن ثمرات الإلحادِ المرّة، أنه يُسَهِّمُ في تمزق المجتمع وتفرق أبنائه، فلا يجمعهم إيمانٌ، ولا تؤلّفُ بينهم عقيدةٌ، لا يُعَنَوْنَ بحقوق بعضهم، ولا بمصلحةٍ عامة، وإنما يُحَرِّكُهُم الهوى والمصالح الشخصية، فلا بذل إلا لمنفعة، ولا تعاون إلا بعوض، فضاعت المروءة، وقلت الثقة، وعمّ الشقاق، وصارَ كلُّ حزبٍ بما لديهم فرحين.. وقد سجّلت الدراساتُ الاجتماعيةُ تراجعًا شديدًا في قيم التضامنِ والانتماء عندهم، حتى أصبحَ الإنسانُ يرى نفسه فردًا في مواجهة الجميع، وتفشّت فيهم الفردانية المفرطة حتى في أبسط مظاهر الحياة.. وفي تقارير «وورلد فاليز سيرفي» تبينَ أنَّ المجتمعات التي انخفضَ فيها الدين، ارتفعت فيها نسبةُ العزلة الاجتماعية، وانخفضت فيها مشاعرُ الثقة المتبادلة، وغابت فيها المبادراتُ التطوعية..

أما المجتمعاتُ المؤمنة، فقد أظهرت الدراساتُ نفسها أن ارتفاع منسوب الدين فيها يرتبط بارتفاع مشاعر الثقة المتبادلة،

وقوة الروابط الاجتماعية، وازدهار المبادرات التطوعية، حيث إنَّ الرابطَ الذي يجمعها هو الإيمانُ بالله، والحبُّ في الله، والبذلُّ لوجه الله.. فالدين هو من يجمعُ القلوبَ، ويوحدُ الصفوفَ، ويربِّي على الفضائل، وهو الذي يأمرُ ببر الوالدين، وصلة الأرحام، والإحسانِ إلى الجار، ونصرة المظلوم، وإغاثة الملهوف، وهو من يجعلُ من المجتمع كياناً حياً متراحماً متعاوناً متماسكاً..

٨) العداءُ الشديدُ للدين والمتدينين.

فالعدايةُ الشديدةُ للدين عموماً وللإسلام على وجه الخصوص، هي القاسمُ المشتركُ بين جميع الملاحدة المعاصرين.. وكلُّ أشكالِ الدينِ والتدينِ عندهم مرفوضةٌ تماماً، وهذا ظاهرٌ لا يحتاجُ إلى دليل، فعداوةُ الدين أصلٌ من أصولِ منهجهم، وكُرههم الشديدُ لكلِّ مظهرٍ من مظاهر الدينِ ظاهرٌ في كلِّ مناسبةٍ، بل لا يكادُ يُذكرُ لفظُ: «الدين» عند بعضهم إلا وتغلي صدورهم حنقاً، وتمتلئُ كلماتهم سُخريةً وتهكماً.. وتراهم يؤكدون في كلِّ مناسبةٍ أنَّ الدينَ ليس له فائدة، وأنه مصدرٌ لجميع الشرور، وأنه المسؤولُ عن كلِّ مآسي البشرِ طوال تاريخهم، وأنه لم يجلب لهم خيراً قط..

بل لقد تحوَّل بعضُ الملاحدة في هذا الزمانِ إلى آلةٍ نقدٍ وتحقيرٍ

للدين وأهله، فمن باب «الحرية» يعمدون لإهانة أهل الإيمان، وتبشيع صورتهم، وتجريدتهم من كل فضيلة، ورميهم بالتخلف.. ووصفهم بأبشع الأوصاف، فيُطلقون عليهم عبارات كـ«القطيع»، و«رجال الكهوف»، و«عبدة الوهم»، وكلما ازداد المرء إيماناً، ازداد في نظرهم رجعيةً، وكلما ازداد تمسكاً بالشرعية، اتهموه بالجمود والتطرف.. بل ويطعنون في القرآن الكريم ويشبهونه بالأساطير، ويسخرون من النبي المصطفى ﷺ ويصفونه بأنه «زعيم قبلي متسلط».. ويهاجمون شعائر السنة المطهرة ويصفونها بأنها تراث بدائي لا يصلح لهذا العصر.. وتمادى بعضهم فصّرَحَ أنه لا يرى التدين إلا «فيروساً في العقل»، وسجناً للحرية، وأفionاً يمنع البشرية من التقدم.. ولا يرى الحجاب إلا قيداً للمرأة، ولا يرى الصلاة إلا طقوساً خرافيةً، وأن الصوم عادة رجعية وعقوبة جماعية.. ولو تأملت أحوالهم في المقابل لوجدتهم لا يحاربون فقراً، ولا يواجهون ظلماً، ولا يقاومون انحلالاً، همهم الأوحـد محاربة أي مظهر من مظاهر الدين.. حتى لو شاهدوا رجلاً يُصلي في الشارع، أو فتاة تحتشم في لباسها، لأثار ذلك غيظهم أكثر من مشاهد الظلم والقتل والفساد البين.. ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف: ٨]..

٩) التدليس العلمي.

فَمَّا درجِ عليه الملحدونَ التدليسُ الممنهج، والمراوغةُ المبطَّنة، والتسترُ الخادعُ خلفَ شعاراتِ العلمِ والتقدُّم، والمغالاةُ في العلوم التجريبية، والوسائلِ التقنية الحديثة، والالتكأُ عليها في التنظير للفكر الإلحادي.. ولطالما لبَسَ الإلحادُ عباءةَ «العقلانية»، وتزيًا بزيِّ «التَّحررِ الفكري»، واستترَ خلفَ «المنهج العلمي»، وهو منها براء.. فحين تتأملُ خطابهم، ترى فيه زخرفةً لفظيةً، وتكثيفًا للمصطلحات العلمية كالطفرات والانتخابِ الطبيعي، والكونِ المتعدد، وغيرها، لكنها تُستخدمُ لا لتفسير الكونِ تفسيرًا علميًا مُحايدًا، بل لتبرير النفي المسبقِ لوجود الخالق، وصرفِ القلوبِ والعقولِ عن الخالقِ جَلَّ وَعَلَا، تحت وهم «العلم الحديث»..

والحالُ أنَّ كثيرًا مما يطرحونه من نظرياتٍ، لا يرقى لأن يكونَ علمًا تجريبيًا أصلاً، بل هو مجردُ تأملاتٍ ذهنيةٍ، وتخميناتٍ فلسفيةٍ، واستنتاجاتٍ قائمةٍ على مقدماتٍ باطلة، أو أدلةٍ مبتورة، أو معانٍ محتملة، ثم يقدمونها على أنها «حقائق علمية» قاطعة، لا تقبلُ النقاش، ويطالبون بالتسليم لها، دونما دليلٍ حقيقيٍّ أو تجربةٍ ثابتةٍ بالتكرار.. وتراهم يُكثرونَ من استخدامِ المغالطات المنطقية، وكلِّ

ما يوصلُ إلى زعزعة الإيمان والتشكيك بوجود الخالقِ جَلَّ وَعَلَا..
 كالمقدماتِ الخاطئةِ التي تؤدي إلى استنتاجاتٍ وأحكامٍ غير
 صحيحة، والقياسِ الفاسد، أو التعميمِ المتسرع، أو مغالطةِ «الرجلِ
 القشِّ»، حيثُ يصورونَ الدينَ في صورةٍ مشوّهةٍ ثم يهاجمونه، أو
 مغالطةِ «الاحتكام إلى الجهل»، حيثُ يظنونَ أنَّ ما لم نعرفه اليومَ
 فهو دليلٌ على العدم.. وقد أشارَ أحدُ الفلاسفةِ المنصفينَ إلى أنَّ
 «جزءًا كبيرًا من الدفاعاتِ الإلحاديةِ لم يُبنَ على البرهان، وإنما بُنيَ
 على الخداعِ البلاغي»..

وهم كذلك يوظفونَ الأساليبَ النفسيةَ المؤثرة، كالسخرية،
 والنكتة، والموسيقى، والمؤثراتِ البصرية، والقصصِ الانتقائية،
 والمصطلحاتِ الرنانة، مما قد يؤثرُ فيمن لم يتلقَ علومَ الشريعة،
 ولم يُحصنَ نفسه باليقين، فيظنَّ أنَّ ما يقولونه من زُخرفِ الكلام هو
 علمٌ قاطعٌ، وما هو إلا سرابٌ خادع.. بل إنك لتجدُ في خطابِ
 الواحدٍ منهم التناقضَ الصارخَ، كمن يُنكرُ الغيبَ في الدينِ ويؤمنُ
 بغيبٍ أكبرَ في نظرياته، ويطلبُ البرهانَ على وجودِ الله ولا يطلبُ
 البرهانَ على نظرياتٍ فرضية.. أو أن يُشيدَ بالحرية الفكرية ثم هو
 يحتقرُ أهلَ الإيمانِ ويحاربُ ظهورهم، ويصفُهم بالجهلِ والتخلفِ

لمجرد أنهم آمنوا بالله تعالى..

إنه منهجٌ خلطٍ وتدليسٍ، هدفه التضليلُ والتشكيكُ، وكلَّمًا
افتُضِحَ تناقضُهُ أو ضَعُفُ استدلاله، تراه يلجأ إلى التَّهْكُمِ والسَّخْرِيةِ
والهروبِ إلى أسئلةٍ فرعيةٍ تُلهي العقولَ عن أصل القضية، لأنَّ
الغايةَ في فلسفتهم تبرُّرُ الوسيلة، ولو بالكذب والتدليس..

فيا أيُّها المتأملُ، يا من تبحثُ عن الحقِّ بصدق: لا تنخدع ببريق
العبرة، ولا تغترَّ بما يتظاهرون به من لباس العقل، فإنَّ للعقل نورًا
لا ينطفئ، لكنَّ العقلَ لوحده لا يهتدي بدون وحي، وإنَّ من أعظم
الهلاكِ أن يُسَلَبَ المرءُ يقينه وهو لا يشعر، فاستمسك بالحقِّ
المبين، وتذكر قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا
تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]..

١٠ الإيمانُ بعبثية الوجود.

فخلاصة ما يقدمه الملاحدة في جميع أنماطهم هو أنَّ الإنسانَ لا
يساوي شيئًا في هذا الوجود العبثي الذي جاء صدفةً وسينتهي صدفةً
كما جاء،

وأنَّ الإنسانَ موجودٌ بلا هدفٍ ولا غايةٍ، وبالتالي فلا قيمةَ له، لا

في لحظة ميلاده، ولا من بعد مماته، وإِنَّمَا هو في تصورهم نتاج تفاعلات كيميائية عمياء، ظهرت بغير قصدٍ، وستفنى بلا ميعاد..

هكذا أسقطَ الإلحادُ قُدسيةَ الإنسان، ونزعَ عنه معنى الوجود والغاية، وجعلَ حياته محضَ حركةٍ بيولوجيةٍ مؤقتة، أشبه ما تكونُ بفقاعةٍ ظهرت على سطح محيطٍ هائجٍ، ثمَّ ما تلبثُ أن تختفي، فلا يُذكرُ لها اسمٌ ولا رسمٌ ولا أيُّ أثر..

وهذه النظرةُ العبيثَةُ ليست تنظيراً عديمياً نظرياً فحسب، بل هي واقعٌ يصرِّحُ به رموزُ الإلحادِ أنفسهم؛ فهذا برتراند راسل يقول: «الإنسانُ نتاجُ عِللٍ لا هدفَ لها.. أصلُهُ ونموُّهُ وآمالُهُ ومخاوفُهُ كُلُّها نتيجةٌ لتركيباتٍ عرضيةٍ للذرات»، ويقولُ جاك مونود: «الإنسانُ أخيراً وحيدٌ في لا معنى هذا الكون، لقد ظهرَ صدفةً، ولا هدفَ له»، ويكتبُ ريتشارد دوكينز بأنَّ الكونَ في نظره: «لا يعرفُ خيراً ولا شراً، وإنما هو فقط حمضٌ نوويٌّ يتكاثر»، وهكذا تتوالى اعترافاتهم التي تُعري حقيقةَ التصوُّرِ الإلحادي الخالي من القيمة، والفاقدِ لأيِّ معنى عميقٍ للوجود..

وحين يتشربُ الإنسانُ هذا التَّصورَ السلبي، يبدأ في النظر إلى نفسه ككائنٍ تافهٍ لا قداسةَ له، ولا يحملُ في داخله غايةً سامية، ولا

يَعِدُّ نَفْسَهُ مَسْؤُولًا عَنْ شَيْءٍ، وَلَا مَعْنِيًّا بِأَيِّ وَاجِبٍ.. فما دامت الحياة عبثًا، والموتُ هو النهايةُ الحتميةُ التي لَا بَعَثَ بعدها ولا حساب، فلماذا يتحملُ لأجل غيره؟.. ولماذا يكافحُ أو يضحي؟.. ولماذا لَا يستمتعُ بلذاته، ويُشبعُ رغباته ما استطاع؟.. ولو كان ذلك على حساب الآخرين، كما قال دوستوفسكي: «إذا لم يكن الله موجودًا، فكلُّ شيءٍ مباح»..

والنتيجةُ الحتميةُ لهذا التصوُّرِ هو غيابُ البوصلة، وانطفاءُ نورِ الضمير، وتأكُلُ المعنى من الحياة، وسقوطُ الإنسانِ في فخِ العبثِ الوجودي القاتل.. بل إنَّ كثيرًا من فلاسفة الإلحادِ أنفسهم عانوا من هذا التيهِ وأقروا بفساده؛ فقد كتب الفيلسوف الفرنسي ألبير كامو: «إنَّ الانتحارَ هو المسألةُ الفلسفيةُ الأهمُّ»، لأنه في ظلِّ هذا العبثِ لَا يجدُ الإنسانُ سببًا للتمسكِ بالحياة.. وأمَّا كيركغارد فقال: «إنَّ الإلحادَ لَا يقدِّمُ إِلَّا دربًا واحدًا، دربَ الفراغِ الموحشِ والانهيارِ الداخلي البطيء»..

وما أتعسَ إنسانًا خُلِقَ بنظامٍ دقيقٍ، ونُفِخَ فيه من روحِ الله، وسُخِرَ له ما في السماوات والأرض، ثُمَّ يظنُّ أَنَّ وجودَهُ صدفةٌ، وأنَّ حياته بلا معنى، وموتهُ هو النهايةُ..

أفلا يسأل العاقل نفسه: ما الحكمة أن أعيش العمر كله بين تعب ومشقة وكدر، ثم أتحلل إلى ترابٍ؟.. ما الذي يبرر مُعاناتي وأوجاعي، ما دام لا جنة بعدها تُعوّض، ولا حساب يُنصف المظلوم من الظالم.. كيف أطالب بالعدل وأنا لا أؤمن بمن يجزي به؟.. كيف أفعل الإحسان وأنا لا أرجو من ورائه جزاء؟.. أليس في ذلك تناقض صارخ وتفريط موجه في معنى الوجود ذاته؟..

لقد كرّم الله الإنسان بأن خلقه لهدف، وربطه بوحى، ورفع قدره حين قال: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]، وساق له من الآيات ما يدلّه على الغاية والمصير، وقال له: ﴿يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]، وقال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنْمَّا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنْتُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥].. فالإيمان بالله والبعث والحساب هو الذي يزرع في النفس الطمأنينة والرجاء، ويملأ الحياة بالمعنى، ويجعل للمحنة مغزى، وللموت امتداداً، وللعمل قيمة باقية.. أما من أعرض عن الله، فإنما يعيش حياة خاوية، ويسير تائهاً في فراغ لا يعرف له وجهة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهَ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ﴾ [الأنعام: ٧١]، وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ

مَعِيشَةً ضَنْكًا ﴿طه: ١٢٤﴾ ..

فالإلحاد لا يمنح الإنسان كرامةً، ولا يُضفي عليه معنىً، ولا يفتح له أملاً، ولا يُخففُ عنه ألمًا، وإنما يدفعه إلى أن يُسلم نفسه للتيه، ويدفع به إلى الحيرة، ويُلقيه في هوةِ العبثِ المظلم، فلا يفرح بميلاده، ولا يطمئن في حياته، ولا يتفائل بموته، ويظل سائرًا تائهاً بلا غاية، في داخله سؤالٌ يتردد بلا جواب: لم أنا موجود؟ ..

فهل بعدَ هذا كله، يبقى في قلبٍ عاقلٍ شكٌّ في أن الإيمانَ بالله هو الحقُّ، وأنَّ ما سواه وهمٌّ وسراب! .. ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَذْكُرُ أُولَئِذَا الْأَلْبَابُ﴾ [الرعد: ١٩] ..

II انفلات الفرائز.

وهو ما عمَّ وطَمَّ في المجتمعات الغربية حتى طغى عليها، وسبَّب فوضىً وتيهاناً فطرياً، وفراغاً روحياً خانقاً، ونزعةً ماديةً بحتةً في المعرفة والسلوك، وانفلاتاً شهوانياً عارماً للفرائز، لا تحدُّه ضوابطُ الفطرة، ولا تكبحه القوانين، فكلُّ شيءٍ فيها مباحٌ ما لم يمنعه القانون، وكلُّ علاقةٍ فيها تراضٍ بين طرفينٍ فهي مقبولةٌ لديهم، ولو كانت شاذةً ممجوجةً، تناقضُ في الفطرة والعقل والعرف والحياء، وقد وصل الحال ببعض تلك المجتمعات إلى تقنين

العلاقة مع الحيوان، كما حدث في كندا سنة ٢٠١٦ حين أقرّت المحكمة العليا هناك أنّ «الأنشطة الجنسية بين الإنسان والحيوان» لا تُعدّ جريمةً ما لم تصل إلى «الجماع الكامل»، كما انتشرت زواجات الجنس الواحد، ودُرّس الشذوذ في المدارس تحت مسمى: «الهوية الجندرية»، ويلقّن الأطفال في المراحل الابتدائية أن اختيار الجنس مسألة «داخلية» لا علاقة لها بالتركيب البيولوجي، وأُجيزت العمليات الجراحية لتغيير الجنس حتى للقاصرين دون موافقة الوالدين في عدة ولايات أمريكية، بل إنّ الأكاديمية الأمريكية لطب الأطفال دعمت هذا التحول، وأصدرت قوانين تُعاقب الآباء إن عارضوا: «حقّ طفلهم» في تغيير جنسه، وتحوّلت المؤسسات التعليمية والطبية إلى أدوات ضغطٍ أيديولوجي لفرض هذا الانفلات، ومُنِعَ المعارضون من الحديث واتهموهم بالكراهية، حتى قال الكاتب الأمريكي المحافظ مايكل نولز في تصريح صريح: «لقد أصبحنا في عصرٍ يمكن فيه أن يُسجن الأب لأن ابنته لا تريد أن يُقال لها إنها ولد، ويُصنّف لذلك على أنه حرة»، وكلّ ذلك ناشئ من فلسفةٍ مادية تُنكرُ البعث والحساب، ولا ترى في الإنسان إلا جسداً ولذة، ولا تعتبر أنّ له روحاً تُركّى، أو قلباً يُرقّى، وقد وصف

اللهُ هذا الانحدار بقوله: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ (٤٣) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿[الفرقان: ٤٣-٤٤]، فليس بعد هذا التمرّد إلا الخراب، وليس بعد هذا التيه إلا الظلمة والهلاك..

فعودوا إلى فطرتكم، عودوا إلى خالقكم، عودوا إلى الدين الذي جعلكم بشرًا لا بهائم، وحرّركم من رقّ الهوى والشهوات..
ويا من غرّك بريق الغرب، تفكّر في عاقبة هذا التيه قليلاً، وانظر بعين البصيرة إلى مصير من ضلّوا السبيل فصاروا أضحوكةً في أخلاقهم، وتماثيل جوفاء في إنسانيتهم.. ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَغَلَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣]..

١٢) ردّ غيبات الدين تقديساً للعقل وغلواً فيه..

ولبيان خطورة هذا المنحى وما يترتب عليه من انحرافات كثيرة فلا بدّ من بيان:-

□ محدودية العقل البشري.. ولماذا لا يكفي وحده

فلئن كان العقل هو ميزة الإنسان الكبرى، وأفضل ما وهب له.. وبه يشرف على غيره من سائر الحيوان، وبه يُميّز بين الخير والشر،

والهدى والضلال، والحقُّ والباطل، إلا أنَّ العقلَ لوحده لا يكفي..

وهذا أمرٌ يحتاجُ إلى بسطٍ وتدليل.. نبدأه بالتعريف..

فالعقلُ في اللغة: هو المنعُ والحَجَرُ، فالعقلُ إنما سُمي عقلًا: لأنه يعقلُ صاحبه ويمنعه عن الخطأ.. والعِقالُ حبلٌ تُربطُ به الدَّابةُ ليشبثها.. ومنه العِقالُ الذي يُلبسُ فوقَ العِمامةِ ليشبثها..

واصطلاحًا: هو آلةٌ تفكيرٍ تُدرِكُ بها المعاني والحقائق، وتميزُ النَّافعَ من الضَّار.. أو هو مجموعةٌ من القوى والعمليات العقلية، كالوعى، والتَّعلم، والتَّذكر، والتَّفكير، والمقارنة، والتَّحليل، والحُكم، وغيرها..

والظنُّ بأنَّ العقلَ يعرفُ كلَّ شيءٍ، وأنَّ ما لا يعرفه العقلُ ليس بشيءٍ، هذه مُبالغةٌ كبيرةٌ، وتضخيمٌ للعقلِ وغلوٌ فيه.. ولئن سلَّمنا بدور العقلِ فيما وصلَ إليه الإنسان من علومٍ ومعارفٍ ومُبتكراتٍ، لكنه يظلُّ محدودَ القُدرات، عاجزًا عن إدراكِ الكثير من الأمور..

ثم إنَّ العقولَ تختلفُ فيما بينها اختلافًا كبيرًا، يصلُ إلى حدِّ التَّنَاقُضِ.. ما بين يمينٍ مُتطرف، ويسارٍ مُتطرف، وبينهما أوضاعٌ وتوجهاتٌ عقليةٌ لا حصرَ لها.. وكلُّ وضعٍ منها يزدرى غيره

وَيُخْطِئُهُ، وَيَصُوبُ نَفْسَهُ وَيَنْصُرُ رَأْيَهُ، وَعِنْدَ النَّظَرِ إِلَيْهَا مِنَ الْخَارِجِ فَكُلُّهَا عُقُولٌ.. فَأَيُّ مِنْهَا هُوَ الَّذِي سَيُجْعَلُ أَصْلًا، وَيُرْجَعُ إِلَيْهِ عِنْدَ التَّنَازُعِ، وَمِنْ مِنْهَا سَيُحْكَمُ فِي الْقَضَايَا الْخِلَافِيَةِ الْمَصِيرِيَّةِ..

لِتَخِيلَ أَنَّ شَابًا وُلِدَ كَفِيفًا فَاقْدًا لِنِعْمَةِ الْبَصَرِ، وَلَا يَمْلِكُ فِي ذَهْنِهِ أَدْنَى تَصَوُّرٍ عَنْ أَيِّ شَيْءٍ، وَقَدْ نَشَأَ فِي قَرْيَةٍ نَائِيَةٍ لَيْسَ فِيهَا مِنْ أَسْبَابِ الْحَضَارَةِ شَيْءٌ يُذَكِّرُ، ثُمَّ كَانَ مِنْ شَأْنِهِ عَجَبٌ، فَفَجْأَةً وَبِدُونِ مُقَدِّمَاتٍ، فَتَحَ هَذَا الشَّابُّ عَيْنَيْهِ فَإِذَا هُوَ يُبْصِرُ، إِلَّا أَنَّ الْأَمْرَ لَمْ يَدُم طَوِيلًا، فَقَدْ كَانَ أَوَّلَ وَآخَرَ مَا أَبْصَرْتُهُ عَيْنَاهُ مِنَ الدُّنْيَا رَأْسُ دِيكَ، الرَّأْسُ فَقَطْ، نَظَرَ إِلَيْهِ جَيِّدًا، فَإِذَا عُرِفَ أَحْمَرٌ، وَمِنْقَارٌ أَصْفَرٌ، ثُمَّ لَا شَيْءَ آخَرَ، فَلَقَدْ فَقَدَ بَصَرَهُ وَلَمْ يَعِدْ يَرَى شَيْئًا أَلْبَتَهُ.. وَمَنْ ثُمَّ أَصْبَحَ إِذَا جَلَسَ مَعَ النَّاسِ وَسَمِعَهُمْ يَتَحَدَّثُونَ عَنْ أَيِّ شَيْءٍ لَا يَعْرِفُهُ، تَسَاءَلَ بِغَرَابَةٍ، كَيْفَ هُوَ مِنْ رَأْسِ الدِّيَكِ.. إِذَا حَدَّثَهُ أَحَدُهُمْ مِثْلًا: أَنَّهُ رَأَى فِي سَفَرِهِ السَّيَارَةَ الْعَجِيبَةَ، وَبَدَأَ يَصِفُهَا لَهُ بِمَا اسْتَطَاعَ مِنَ الصِّفَاتِ.. بَادَرَهُ هَذَا الشَّابُّ الْكَفِيفُ بِقَوْلِهِ: وَكَيْفَ هِيَ مِنْ رَأْسِ الدِّيَكِ.. يَحْدُثُهُ الْآخَرُ عَنِ السَّفِينَةِ الْعِمْلَاقَةِ وَيُطْنِبُ فِي الْوَصْفِ.. فَيَبَادِرُهُ الْمَسْكِينُ بِنَفْسِ السُّؤَالِ: وَكَيْفَ هِيَ مِنْ رَأْسِ الدِّيَكِ.. يَسْمَعُهُمْ يَتَحَدَّثُونَ عَنْ نَاطِحَةِ السَّحَابِ، وَعَنِ الْحَاسِبِ الْآلِيِّ، وَعَنِ

القطار السريع، وعن الطائرة النفاثة، وعن الأقمار الصناعية، وعن أشياء أخرى كثيرة.. وفي كل مرة يتكرر نفس السؤال: كيف هي من رأس الديك..

قد لا يلام هذا الشاب الكفيف، فهو يقيس العالم الخارجي الذي لا يدركه، بما يدركه فقط، وإذا كان لا يدرك إلا رأس الديك فقط، فسيقيس كل شيء إليه.. وإذا سلمنا بوجود الكثيرين من أمثال هذا الكفيف، فهل نسلم لهم بصحة القياس..

يقول الشيخ سيد سابق رَحِمَهُ اللهُ: «العقل البشري مهما كان مبلغه من الذكاء وقوة الإدراك فهو قاصر غاية القصور، وعاجز غاية العجز، ولا يمكنه معرفة كثير من الحقائق المهمة.. فهو عاجز عن معرفة الروح والنفس الإنسانية، كما أنه عاجز عن معرفة حقيقته هو، وكذلك فهو عاجز عن معرفة حقيقة الضوء، رغم أنه من أظهر الأشياء وأوضحها، وعاجز عن معرفة حقيقة المادة وذراتها، والمادة الصُّقْ شيء بالإنسان.. وغيرها من الحقائق وما أكثرها»..

ولو تخيلنا رجلاً ذكياً جداً، لكنه يجهل حروف لغة ما، فإنه لن يستطيع أن يقرأ أو يفهم ولو كلمة مما كُتِبَ بتلك اللغة، ولو بلغ ذكاؤه ما بلغ.. فالذي لا يعرف حروف ومفردات اللغة، لن يستطيع

أن يفهم كلماتها فضلاً عن جُمليها وعباراتها، وعلى هذا ففس..

ولئن كان هذا هو موقفَ العقلِ حيالِ النَّفسِ والروحِ والفكرِ والأحلامِ والمشاعرِ والطَّاقة، وغيرها من أسرارِ الكونِ القريبةِ منه، فكيفَ يَتَطَلَّعُ العقلُ إلى معرفةِ كنهِ الذَّاتِ الإلهيةِ، تعالى اللهُ عَمَّا يقولون علواً كبيراً..

يقولُ الإمامُ الشَّاطبي: «إِنَّ اللهَ جَعَلَ للعقولِ في إدراكها حدًّا تنتهي إليه ولا تتعدَّاه. ولم يجعل لها سبيلاً إلى إدراكِ كُلِّ مطلوب. ولو كانت كذلك لاستوت مع الباري جَلَّ وَعَلَا في إدراكِ كُلِّ شيءٍ. لكن معلومات الله سبحانه لا تتناهى، ومعلوماتُ العبدِ محدودةٌ مُتناهيةٌ»..

والذين يُغَالُونَ في العقلِ ويرفعونه فوق منزلته، عُيونهم لا ترى نقاطَ ضعفه، رغمَ أنها ليست بالقليلة..

فمن نقاطِ ضعفِ العقلِ وقصوره، (إضافةً إلى ما سبق): أنه لا يمتنعُ عن الوقوعِ فيما قد يُسببُ الضررَ والأذى له وللآخرين.. كما أنَّ العقلَ لا يملكُ حصانةً من الوقوعِ في براثنِ الوهمِ والخرافة، أو التأثيرِ بالموروثاتِ والعاداتِ الاجتماعيةِ الضَّارةِ وغيرِ الصحيحة.. ولو تأملتَ حولك فسترى نماذجَ لا تُحصى لعقولٍ ذكيةٍ جدًّا، لكنها

تقعُ في أخطاءٍ كبيرةٍ نتيجةً لذلك..

فهذا دكتورُ بارزٌ في الفيزياء، لكنه يعبدُ بقرةً أو يُقدِّسُ فأراً.. وهذا طبيبٌ من أشهر جراحي القلب، ومع ذلك فهو يُدخنُ بشراهةٍ، وذاك سياسيٌّ بارع، يرأسُ دولةً مُتقدِّمةً، ثم هو يستشيرُ كاهناً يدَّعي علمَ الغيب، ويزعمُ مخاطبةَ الأرواح.. وذاك أستاذُ جامعيٍّ مرموق، لكنه يؤمنُ أنَّ أصلَ الإنسانِ قرد.. وغيرها من الصور كثيرٌ، مما يدلُّ على أنه وإنَّ امتلاكَ النَّاسِ عُقُولاً ذكيةً جدًّا، فإنها لا تمنعهم من الوقوع في الأخطاء الكبيرة.. ولئن حدثَ هذا مع العقولِ الذَّكية، فحُصُولُهُ مع غيرها أكثر.. ولا أدلَّ على ذلك من انتشار التَّقليعاتِ الغريبةِ والشَّاذَّةِ بين أوساطِ الشَّبابِ الجامعيِّ المتعلِّم، فضلاً عن غيرهم من أوساطِ العامَّة.. مما يؤكد أن العقل لو حده لا يكفي..

كما أن من نقاطِ ضعفِ العقلِ وقصوره، أنه لا يعلمُ عن الغيب والمستقبلِ شيئاً.. بل ولا عمَّا غابَ عنه.. وبالتالي فقد يحكمُ ويُقرُّ بناءً على معلوماتٍ قديمةٍ تغيَّرت، فيقعُ في عكس ما يريد.. كما يحدثُ في أسواقِ الأسهمِ والتَّجارة، وفي ساحاتِ الحربِ والقتال.. وغيرها من مجالاتِ الحياةِ وأنشطتها السَّريعةِ التَّغير..

ومن نقاطِ ضعفِ العقلِ وقصوره: تغيُّر قناعاته بلا ضابطٍ معلوم، فقد يُصدِّقُ اليومَ ما يكذِّبه غداً، وقد يرفضُ اليومَ ما يقبله غداً، وقد

يرى الرأيَ اليوم، ويرى نقيضه غداً..

ومن نقاط ضعفِ العقلِ وقصوره: تأثره الكبير بأصحاب الشخصياتِ القويّة، والمنطقِ الجذّاب، أو من يعرفون مداخلَ النفسِ البشريّة ونقاط ضعفها، ومن يُجيدون التّصنعَ والتّمثيلَ، أو من يملكون قُدرةً عاليةً على الإقناع أو الخداع.. كالسّحرة، ولا عبي خِفة اليد ونحوهم..

ومن نقاط ضعفِ العقلِ وقصوره: تأثره بالحالة النفسيّة والصّحية للإنسان، فالعقلُ يتغيّرُ حكمه تغيّراً كبيراً في حالات الغضبِ أو الفرحِ أو المرض.. كما أنّ العقلَ يتأثرُ بالميل النفسي والهوى، كالميل للعشيرة والأقارب والأصدقاء، أو الميل للمال والمنصبِ والنساء وغيرها..

ومن أكبر نقاطِ ضعفِ العقلِ وقصوره: أنه مُقيّدٌ بالحواسِّ وتابعٌ لها في أحكامه، فمتى اختلّت حاسةٌ منها أو فقدت قُدرتها الوظيفيّة، تخبّطَ العقلُ ووقع في الخطأ.. فالعينُ تعجزُ عن رؤية الأشياءِ البعيدة والصغيرة والسّريعة وما توارى خلفَ الحواجز، والأذنُ تعجزُ عن سماع الأصواتِ الضّعيفة والمتداخلة والصّاخبة والبعيدة.. إلخ، وهكذا حاسةُ اللمسِ والشمّ، فمن المألوف أن يختلفَ حكمُ الناسِ

على سخونة الجوِّ أو برودته، أو قوة العطرِ أو جودته.. إلخ.. فإذا كان العقلُ بدون الحواسِّ السَّليمةِ قاصراً لا يُمكنه إدراك الماديات.. فهو كذلك بدون الوحي الصَّحيحِ قاصراً لا يمكنه إدراكُ الغيبات.. ومن هنا وصف ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ العقل بالصنم إذا غلا فيه المرءُ وطغى، فقال: «والداعون إلى تمجيد العقل إنما هم في الحقيقة يدعون إلى تمجيد صنمٍ سموه عقلاً، وما كان العقل وحده كافياً في الهداية والإرشاد، وإلا لما أرسلَ الله الرسل».. قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَتَبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٧١]..

□ الصدفة: بديلُ الإله..

حين يُسألُ الملحدُّ: مَنْ خلقَ هذا الكونَ البديع؟.. وَمَنْ الذي أوجدَ هذه القوانينَ الدقيقة؟.. وَمَنْ الذي صنعَ هذا التناسقَ المذهلَ بين المجرَّات والخلايا والذرات؟!.. عندها يتعثَّرُ الفكرُ الإلحادي، ويبحثُ له عن مخرجٍ، فيلجأُ إلى بديلٍ.. اسمه: «الصدفة».. تلك الكلمةُ السحريةُ التي يُرادُ لها أن تفسِّرَ كلَّ شيءٍ، وتخلقَ كلَّ شيءٍ.. الصدفةُ، أو الطبيعةُ، أو العشوائيةُ.. سمَّها ما شئت؛ فإنما هي محاولةٌ إسنادِ عمليةِ الخلقِ والإيجادِ إلى غيابٍ محضٍ، إلى لا

شيء.. إلى حدثٍ بلا قصد، وفعلٍ بلا فاعل..

والصدفة (كما يعرفها الملاحدة) هي التقاءٌ غيرٌ مقصودٍ لعناصرٍ لا عقلَ لها، ولا علمَ ولا قصد، تتقابلُ بلا ترتيبٍ ولا هدفٍ، فتُنتجُ كيانًا أعقدَ وأرقى، ثم تتوالى هذه اللقاءاتُ العشوائيةُ عبرَ ملايين السنين، فيُبنى الكون، وتُنسجُ الحياة، وتتشكلُ القوانين الفيزيائيةُ والرياضيةُ بكلِّ دقتها، من غيرِ أيِّ قصدٍ أو توجيهٍ أو إرادة!..

فالصدفةُ في حقيقتها ليست كيانًا فاعلاً، وإنما هي توصيفٌ لعدم المعرفة.. فإذا قيل: «حدثَ هذا صدفةً»، فإنما يُراد: «لا نعلمُ كيف ولا لماذا حدث؟».. فكيف يقبل عاقلٌ أن تجعلَ هذه الجهالةُ خالقًا ومُبدعًا ومفسّرًا للوجود؟!..

يقولون: إن الكونَ أوجدهُ انفجارٌ عظيم.. ثم تداعت الأمورُ وفقَ قوانينٍ عمياء، فانبعثت الحياة، وتطورت، وتناسلت، حتى ظهرَ الإنسان.. فيا للعجب!، كيف ينشأ الشيءُ من اللا شيء؟.. وكيف يولدُ النظامُ من اللا نظام؟.. وكيف تنبعثُ الحياةُ من العدم المحض؟!..

أرأيتَ لو قال قائلٌ: إِنَّ انفجارًا وقعَ في مطبعة، فنثرَ الحروف، فخرجَ منها ديوانُ المتنبي صدفةً.. أترأى تصفُّقُ له أم ترثي لحاله؟!.. فكيف بمن يقولُ إِنَّ انفجارًا في العدم، بلا عقلٍ ولا هدفٍ، أنشأ (عن طريق الصدفة) كونًا مُنظمًا، تحكمه قوانينٌ شديدة الدقة والانضباط، وتنبضُ فيه حياةٌ ذكية..

وكما أوضحنا في التعريف فإنَّ أبرزَ صفاتِ الصُّدْفَةِ أنها تخبُّ خبْطَ عشواء، بلا عقلٍ وبلا تفكيرٍ، وبلا حِكْمَةٍ ولا هدفٍ ولا تديير.. لكن ما يُروِّجُ في الخطاب الإلحادي أنَّ هذه الصدفةَ قادرةٌ على إنتاج التعقيد، وخلقِ الكائنات، وتفسيرِ كيف وجدت كلُّ ظاهرةٍ في الكون، بما فيها الحياةُ والجمالُ والعقلُ والوعي... إلخ..

وهكذا يتحوَّلُ الهروبُ من الإيمان بالله إلى إيمانٍ بآلهةٍ أخرى: صمَّاء عمياء.. رغم أنَّ الحقائق العلمية قد كشفت زيفَ هذه الدعوى.. فالكونُ ليس أزلًا كما يتوهمُ البعض، وسبقُ أن دللنا علميًا على أنه مُحدثٌ، وثبتَ أنَّ له بدايةً محدَّدة، تُعرف بـ«الانفجار العظيم»، وقبلها لم يكن ثمةَ زمانٌ ولا مكان، ولا مادةٌ ولا طاقة.. وقد أقرَّ بذلك «ستيفن هوكنغ» نفسه حين قال: «الزمان ذاته بدأ مع الانفجار العظيم»..

فإذا لم يكن هناك شيءٌ قبل الانفجار، فمن أين جاءت الصدفة؟!.. وكيف «تصادفت» أمورٌ لم تكن موجودةً أصلاً؟!..

بل إنَّ قوانين الطبيعة نفسها لا تخلق، ولا تفسر وجود الكون.. فالقانون يُنظَّم، ولا يُدع.. قانون الجاذبية لا يجذب التفاحة، وإنما يصفُ كيفية سقوطها.. وقانون الاحتراق لا يولد الحرارة، وإنما يصفُ كيفية التفاعل.. ثمَّ إنَّ كلَّ القوانين لا تعملُ إلا على مادةٍ موجودةٍ مُسبقاً.. فمن أوجد المادة؟!.. ومن سنَّ القوانين؟!..

ومما يزيد الأمرَ وضوحاً.. أنَّ هذه القوانين مضبوطةٌ بدقةٍ مذهلةٍ لدرجة أن تغيّر أحد الثوابت الفيزيائية بمقدار جزءٍ من مليار، كان سيجعل الحياة مستحيلة!.. فهل يُعقل أن يكون هذا الضبطُ البديعُ نتاجَ عبثِ الصدفة والعشوائية؟!..

كيف يصل الإنسان إلى درجة التعطيل التام لعقله، فيُصدّق أنَّ العقلَ ينتج عن اللا عقل.. وأنَّ النظامَ يُولّد من اللانظام.. وأنَّ الحكمةَ تنبثق من قلب العشوائية.. أل هذه الدرجة تُعطّل العقول..

إنَّ العقلَ السليمَ يرفض أن يكون النظامُ وليدَ الفوضى، وأن تكون الحياةُ بنت الصدفة، وأن ينبثق العقلُ من الجماد.. وهذا ما

دفعَ الفيلسوفَ الشهيرَ أنطوني فلو إلى العدول عن إلحاده، قائلاً:
«لم أعد أستطيعُ أن أقاومَ الدليلَ على وجود عقلٍ أعظم وراءَ
الكون»..

وقال العالم الفيزيائي بول ديفيز: «أن تجدَ قوانينَ طبيعيةً
منسجمةً دقيقةً، أشبهُ بأن تجدَ شفرةَ حاسوبٍ مكتوبةً بإتقان،
وبالتالي لا يمكنُ أن تكونَ قد ظهرت بالصدفة»..

فيا من تزعمُ أنَّ الصدفةَ خلقتك: انظر إلى عينيك وما فيهما من
أعصابٍ وعدساتٍ ومُعالجاتٍ عصبيةٍ لا تُدركها أعتى
الحواسيب؟!.. انظر إلى قلبك يُضخُّ الدم بلا انقطاع، والشرابين
تُغذي الخلايا بلا خطأ.. أفكلُّ هذا صدفة؟!..

إنَّ الإلحادَ حين يتخذُ من الصدفةِ إلهاً، يسلبُ الإنسانَ كرامته،
ويهدمُ عقله ومعناه وكيونته، ويتركُه معلقاً في الفراغ: فلا أصله
مقصود، ولا لحياته قيمة..

أما الإيمانُ، فإنه يُسكِّنُ الروحَ، ويهبُ للحياة معناها، ويضعُ
العقلَ في موضعه اللائق، ويهتفُ في أعماقك: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ
فَتَكُونُوا لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ

وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿[الحج: ٤٦]..

فأعمل عقلك واستفت قلبك، واختر لنفسك: فإمّا أن تكون «ابن الصدفة»، أو «عبد الحكيم العليم».. وإنها لكلمة فصل، ما بعدها إلا ظلمة الوهم، أو نور اليقين.. ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥٥]..



الباب السابع:

الردُّ على أبرز شبهات الملحدين

سبق أن ذكرنا أكثر من ثلاثين دليلاً مختلفاً، كلُّ منها يكفي لإثبات وجود الخالقِ جَلَّ وَعَلَا، ثم ذكرنا أكثر من عشرة أدلةٍ تثبتُ صدق الرسول ﷺ، ثم سقنا عدة مناظراتٍ مقنعةٍ ومفحمةٍ، ثم بينّا بالشواهد والأبحاثِ أكثر من عشرة نتائجٍ كارثيةٍ للإلحاد، ثم أثبتنا أنَّ العقلَ وحده لا يكفي لهداية الإنسان، ثم دللنا على بطلان الصدفَةِ بأدلةٍ علميةٍ مُتعددة، وأثبتنا بالأدلة العلمية والمنطقية أنَّ الكونَ ليس بأزليٍّ ولا قديمٍ.. ثم بينا تهافتَ الإلحادِ وأساسه الخرب.. فلم يبقَ إلا أن نقفَ مع أبرز شبهات الملحدين ومغالطاتهم لنردَّ عليها ردّاً علمياً شافياً.. وقبل ذلك نذكر:

□ تعريف الشبهة:

فالشُّبْهَةُ في اللغة: هي الالتباسُ والشكُّ في صحة الأمر، مأخوذةٌ من «الاشتباه»، وهي ما يُشبهُ الحقَّ وليس بحقٍّ، فيختلطُ الأمرُ على الناظر فيه.. فالشبهةُ تُزَيِّنُ الباطلَ وتُظهره بمظهر الحقِّ، فإذا لم يكن المرءُ راسخاً في علمه، صادقاً مع نفسه، متجرداً للحقِّ، فسيغترُّ

بالشبهة وينجرف معها.. وقد نبّه النبي ﷺ إلى خطورة ذلك بقوله في الحديث المتفق عليه: «الحلال بين، والحرام بين، وبينهما أمورٌ مشبهاتٌ لا يعلمهن كثيرٌ من الناس، فمن اتقى الشُّبُهَاتِ فَقَدْ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ، وَعَرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ».. فإذا كانت الشبهات تشبه حتى في مسائل الحلال والحرام، فكيف بما يُثار حول الغيبات كوجود الله، والدار الآخرة؟!..

وشبه الملحدين كثيرة، إلا أن أصولها خمسة.. يتفرّع عنها أسئلة واعتراضات شتى، وهي على النحو التالي:

شبهة: من خلق الخالق؟ ويتفرّع عنها عدة شبه (سيأتي بيانها)..

الثانية: شبهة: لماذا يُقدّر الله العذاب ولا يُقدّر الرحمة؟

الثالثة: شبهة: ما لا يدرك بالحواس فلا وجود له!

والرابعة: مشكلة الشر.. صخرة الإلحاد كما يقولون..

والخامسة: شبهة لا وجود لحق مطلق، كل شيء نسبي..

وسنقف مع كلّ واحدة من هذه الشبه، وقفّة علميّة هادئة، نكشف مواضع الخل والتدليس، ونقدّم الجواب البين الذي ترضيه الفطرة السليمة، وتتقبله العقول المنصفة، ويثبت البرهان القاطع..

□ الشبهة الأولى: من خلق الخالق..

وهي شبهةٌ قد قُتلت بحثًا وتفنيديًا، ورغم ذلك لا يزال الملحدون يُكرِّرون طرحها في كلِّ مجلسٍ ومنتدى، في محاولةٍ لتشويش العقولِ والتلبيسِ عليها، ومثلها قولهم: إذا كان الله أزلًا قديمًا، فما الشيءُ الذي كان قبله؟.. وقريبٌ منها سؤالهم: هل يستطيعُ الله أن يخلقَ جبلًا لا يستطيعُ حمله؟.. وكلُّ هذه الأسئلةِ وأشباهها مبنيةٌ على مغالطاتٍ منطقيةٍ وتناقضاتٍ عقلية، تنزيًا بلباس المنطقِ وهي بلا منطق.. ولكي نُجيبَ عليها جوابًا حاسمًا، نحتاجُ أولاً أن نفرق بين نوعين من المستحيل:

المستحيلُ قُدرةً، والمستحيلُ عقلاً..

فالمستحيلُ قُدرةً: هو شيءٌ يعجزُ الإنسان عن فعله، ولا يعجزُ العقلُ عن تصوّره، فمثلاً: طيرانُ الإنسانِ بدون أدوات، يستحيلُ على الإنسانِ فعله، لكن العقلُ يستطيعُ أن يتصوّرهُ، وهكذا جميعُ المعجزاتِ.. كتحويل العصا إلى ثعبان، فإنه يمكنُ أن نتصوّرهُ عقلاً، لكن يستحيلُ فعله قُدرةً، إبراءُ الأكمه، إحياءُ الموتى، وغيرها من المعجزاتِ.. كُلها أشياءٌ يمكنُ للعقل أن يتصوّرَها، لكن يستحيلُ على قُدرةِ البشرِ فعلُها.. هذا هو المستحيلُ قُدرةً..

وأما المستحيل عقلاً، فلا علاقة له بالقُدرة.. وإنما هو (عدم) لا وجود له، والعقل لا يمكنه أن يتصورَ العدم، لأنه (لا شيء)، وأما الشيء فهو ما يمكن للعقل أن يتصوره، وحين يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠٠]، فهو يشمل المستحيل قُدرةً، لا المستحيل عقلاً.. لأنَّ المستحيل عقلاً هو (لا شيء) وعدمٌ لا وجودَ له..

فمثلاً لو كان أمامك كأس من الماء، فإنك تقدرُ أن تُحرّكه، أو أن تتركه ساكناً بلا حركة.. لكنك لا تستطيعُ أن تجعله ساكناً ومُتحركاً في نفس الوقت، إنهما صُورتان مُتناقضتان، مطلوبٌ من العقل أن يتصورَ حدوثهما معاً، وهذا مستحيلٌ عليه، لا لعجزٍ في العقل، وإنما لأنَّ المطلوبَ عدمٌ ليس بشيء..

مثالٌ آخر: إذا كان بإمكان العقل أن يتصورَ المثلثَ والمربعَ والدائرةَ والخطَ المستقيمَ، فإنَّ من العدمِ والمستحيلِ العقلي أن يتصورَ العقلُ مثلثاً له أربعة أضلاعٍ، أو أن يتصورَ مثلثاً دائرياً، أو يتصورَ خطين مُتوازيين مُتقاطعين، إنها صورٌ معدومةٌ، لا يملك العقلُ لها أيَّ تصورٍ.. مثالٌ ثالث: إذا كان بإمكان العقل أن يتصورَ رجلاً أميناً في غاية الأمانة، وأن يتصورَ رجلاً لصاً خائناً، فإنَّ من

العدم والمستحيل العقلي أن يتصور العقل رجلاً أميناً سارقاً في آنٍ واحد.. لأنه إذا سرق فلن يكون أميناً، وإذا كان أميناً فلن يسرق، فالمستحيل العقلي إذن: لا يعدو أن يكون مُغالطةً مبنيةً على وجود صفتين مُتناقضتين في آنٍ واحد.. وهذا عدمٌ ليس له تصورٌ في العقل.. إذا فهمَ هذا، فسيسهلُ الإجابةُ على كثيرٍ من أسئلة الملحدين وشبههم الزائفة.. فالسؤال الأول: من الذي خلق الخالق، هو مُغالطةٌ منطقيةٌ، ونوعٌ من العدم والتناقض العقلي المستحيل، مبنيةٌ على وجود صفتين متناقضتين في آنٍ واحد، فكيف يكون الإله خالقاً ومخلوقاً في نفس الوقت.. هذا يتطلب من العقل أن يتصور إلهاً له بدايةٌ وله خالق، مع أن الإله لا يكون إلهاً إلا إذا كان واجب الوجود، لا أول له ولا خالق فوقه، فالسؤال نفسه باطلٌ في مقدمته، وملغومٌ في صيغته، لأنه يفترض نفي صفة الألوهية عن الله، ثم يطلبُ برهاناً على ألوهيته! وهذا مستحيلٌ عقليٌ، وتناقضٌ عدميٌ لا يمكن تصوره.. فبطلَ السؤال من أساسه.. ثم إنَّ هذا السؤال من قبيل الأسئلة الزائفة التي يُطلق عليها الفلاسفة اسم «اللانهاية العكسية»، لأنها تؤدي إلى سلسلةٍ لا مُنتهى من المخلوقات التي يخلق بعضها بعضاً، دون نقطة ابتداء، وهي سلسلةٌ يستحيل وجودها في الواقع، إذ

لا بدَّ من بداية أولى، وخالقٍ أول، أزليٍّ غير مخلوقٍ، هو الذي أوجدَ كلَّ ما سواه.. وهذا ما دلَّ عليه العقلُ الصحيح، والنقلُ الصريح، قال تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ﴾ [الحديد: ٣]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢].. فالله عَزَّوَجَلَّ واجبُ الوجود، قديمٌ ليس له أولٌ، ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَبُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧]..

وهكذا السؤال الثاني: إذا كان الله أزليًا قديمًا، فما الشيء الذي كان قبله.. وهذه أيضًا مغالطةٌ منطقيةٌ وتناقضٌ، ونوعٌ من العدمِ والمستحيلِ العقلي؛ مبنيٌّ على وجودِ صفتينِ مُتناقضتينِ في آنٍ واحدٍ، وهو أن يكونَ الله قديمًا وليس بقديمٍ، وهذا مُستحيلٌ عقليًا لا يمكنُ تصوُّره لعدميته، وليس لعجزِ العقل، فبطلَ السؤال أيضًا..

ومثله السؤال الثالث: هل يستطيع الله أن يخلقَ جبالًا لا يستطيعُ حملُهُ، وهذه أيضًا مغالطةٌ منطقيةٌ، ونوعٌ من العدمِ والمستحيلِ العقلي؛ مبنيٌّ على وجودِ صفتينِ مُتناقضتينِ في آنٍ واحدٍ، وهو أن يكونَ لله صفةُ القُدرةِ المطلقةِ، والقُدرةِ المحدودةِ، وهذا مُستحيلٌ عقليًا، وعدمٌ ليس له تصوُّرٌ في العقل، فبطلَ السؤال من أساسه.. والخلاصةُ أنَّ هذه الأسئلة، وإن بدت مُغريةً في ظاهرها، إلا أنَّها عندَ

التحليل الجادّ تتهاولي، لأنها تطلبُ من العقل تصورَ ما لا يُتصور، وتبني استنتاجاتها على مُقدماتٍ خاطئة، فتبطلُ النتيجة بالضرورة.. وهذه طبيعةٌ مُعظمِ شُبُهاتِ الإلحادِ، تدليس ومغالطاتٌ ظاهرها جدل ومنطق، وباطنها فراغٌ وكذب.. فإلى الشبهة التالية:

□ الشبهة الثانية: لماذا يُقدِّرُ الله عليّ العذاب..

من الشبه التي يروجُ لها الملحدون كثيراً قولهم: إذا كان الله يعلمُ ما سأكونُ عليه قبلَ أن يخلقني، فلماذا يُقدِّرُ عليّ العذابَ؟.. والجوابُ: أنَّ الله تعالى لا يُعَذِّبُ أحداً وفقَ ما يعلمُه سبحانه من حاله، وإنما وفقَ ما يفعلُه العبدُ من أعمالٍ حسنةٍ أو سيئةٍ، قال تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١]، وقد قامت حجةُ الله على عباده بإرسال الرسل وإنزال الكتب، فليس لهم بعد ذلك عُذرٌ، قال تعالى عن أهل النار: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ (٨) قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾ [الملك: ٨-٩]، فكلُّ من يُلقى في النار فقد استحقَّ العذاب بتكذيبه للرسل المندرين، وليس لأنَّ الله يعلمُ أنه من أهل النار، فالله تعالى قد حرَّم على نفسه الظلمَ، فقال: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، ثمَّ إنَّه إذا سمحَ أحدٌ لنفسه بمثل هذا العذرِ فلا بدَّ أن

يسمح لغيره بمثله، وبالتالي فليس له حق أن يُنكر على من يظلمه
 فيأخذ ماله أو يتعدى عليه، بل إن إبليس وفرعون وطواغيت الكفر
 والظلم، كلهم سيكونون معذورين بهذه الطريقة، لأن أفعالهم كلها
 بعلم الله وقدره، ومعلوم أن هذا لا يقبله أحد، ولو فعله الناس
 لفسدت أحوالهم، ولما أمكن التفريق بين مؤمن وكافر، ولا بين
 ظالم ومظلوم، فتبين بذلك بطلان هذا القول عقلاً وشرعاً..

ثم إن الاحتجاج بالقدر غير منطقي، لأن من قال: هذا مُقدَّرٌ
 عليّ، يُقال له: وما الذي أعلمك أنه مُقدَّرٌ عليك حتى أقدمت على ما
 أقدمت عليه؟.. أفلا كان الأجدر بك أن تُقدّر أن الله تعالى قد كتب
 لك الخير والسعادة، وأن تعمل وفق ذلك، لأنك لا تستطيع أن تعلم
 أن الله قد كتب عليك عمل الشرّ والشقاء إلا بعد وقوعه منك؟ قال
 تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، فأنت ترى الناس في
 شؤون حياتهم لا يحتجون بالقدر إلا في التقصير والذنوب، ولا يقول
 أحد: لن أذاكر لأن الله قدّر لي النجاح أو الرسوب، ولا يقول
 التاجر: لن أعمل لأن الله قدّر رزقي، ولا يقول المريض: لن أعالج
 لأن الشفاء أو الهلاك بيد الله، بل تراهم يبدلون الأسباب لأنهم
 يعلمون أن تركها تفريط، فلماذا يحتجون بالقدر في الدين دون

الدنيا؟.. أليس الدين أولى بأن يُحتاطَ له ويُبذل فيه الجهدُ؟.. فدلَّ ذلك على أنَّ هذه الحجة باطلةٌ في العقل والفطرة قبل أن تكون باطلةً في الشرع..

كما أنَّ الاحتجاجَ بالعلم الإلهي السابق مُناقضٌ للعقل، لأنَّ العلمَ شيءٌ، والفعلُ شيءٌ آخر، والله لا يُعاقبُ أحداً على علمه، وإنما على فعله، والكلُّ يعلمُ أنَّ العدلَ لا يتحققُ إلا بذلك، ولهذا قال النبي ﷺ حين سئل عن القدر: «اعملوا، فكلُّ ميسرٍ لما خُلقَ له»، فلم يُلزم أحداً بما كُتب، وإنما أمره أن يعمل، لأنَّ العملَ هو مناطُ الجزاء، وكلُّ من سعى للهدى أعانه الله، ومن زاغَ عن الطريق أزاعَ الله قلبه، وما ربك بظلامٍ للعبيد..

□ الشبهة الثالثة: ما لا يدرك بالحواس فلا وجود له..

وهذه من شبه الملحدين الشائعة: فيزعمون أنَّ المنهج العلمي يعتمدُ على ما يدرك بالحواسِ المادية فقط، كالبصر، والسمع، واللمس، وبما أنه لم يسبق لأحد أن رأى الإله بعينه، ولم يسمعه بأذنه، ولم يدركه بأيِّ وسيلةٍ حسية.. وإنما هو ينطلقُ من إيمانٍ غيبيٍّ بهذا الإله، فإنَّ هذا الإله بزعمهم غيرُ موجودٍ علمياً..

والجوابُ بنفسِ المنطقِ والمنهج: فالملحدُ يؤمنُ بأنَّ الكونَ نشأ

صُدْفَةً، وأنَّ الإنسانَ قد تطوَّرَ من سُلالةٍ قَرْدٍ، فهل سبقَ وأن رأى المِلْحَدُ هذه الأمورَ بعينه، أو سمعها أو لَمَسَهَا أو أدركها بأيِّ وسيلةٍ حِسِيَّةٍ من حَواسِهِ.. وبما أنه لم يسبقَ لأحدٍ أن أدركَ هذه الأمورَ بأيِّ وسيلةٍ حِسِيَّةٍ.. فهو إذن ينطلقُ من إيمانٍ غيبيٍّ وليس من مُنْطَلَقٍ عِلْمِيٍّ، وعليه فإنَّ الصَّدْفَةَ والتَّطَوُّرَ غيرُ موجودةٍ عِلْمِيًّا..

شيءٌ آخر: فكلُّ من يُنكِرُ غيبيَّاتِ الدِّينِ، بُحْجَةً أنَّ حَواسَّهُ لا تدركها، لا ينكِرُ وجودَ الأشياءِ غيرِ الماديةِ مثل: (الأفكارِ والأحلامِ والمشاعرِ والرُّوحِ والجاذبيَّةِ والضوءِ والحرارةِ والكهرباءِ والكهرومغناطيسيةِ، وغيرها).. ومع ذلك فجميعها (لا يُمكنُ للحواسِّ إدراكها)، ولا سبيلَ للتعرُّفِ عليها إلا بالاستنتاجِ العقليِّ، ومن خلالِ ما يظهرُ من آثارها فقط..

وعلماءُ المادةِ، رغمَ ما وصلوا إليه من تقدُّمٍ عِلْمِيٍّ مُذهِلٍ، ورغمَ ما يملكونه من معاملٍ حديثةٍ، ومُختبراتٍ وأجهزةٍ تِقْنِيَّةٍ مُتقدِّمةٍ، فإنَّهم قد عجزوا عن أن يُدركوا بحواسهم أيًّا من الأشياءِ غيرِ الماديةِ..

قانونُ الجاذبيَّةِ على سبيلِ المثالِ، وكذلك قانونُ الكهرومغناطيسيةِ، أصبحت لدى علماءِ المادةِ اليومِ، حقائقَ عِلْمِيَّةً،

وقوانين طبيعية ثابتة، لا يتطرق إليها شك، رغم أنها لا تزال في أصلها غيبات، (لا يدركها الحس)، ولم يتمكن العلماء بكل ما معهم من وسائل علمية متقدمة، أن يَشخصوها مادياً، أو أن يتعرفوا على كُنْهها حسيًا.. وإنما أثبتوا وجودها بالاستنتاج العقلي فقط، وبناءً على ما أدركوه من آثارها.. لتصبح مع الوقت حقائق علمية (مقبولة)، لها مسمياتها الخاصة، ولا يتطرق إليها شك، وإن كانت بالنسبة للمنهج العلمي، وإلى أدواته وأجهزته التقنية، كانت وما زالت أموراً غيبية، ولم تدخل في نطاق الحس بعد.. هذه هي الحقيقة التي لا مفرّ منها.. فما بال المنكرين للغيبات الدّينية يسلّمون ويؤمنون بهذه الأشياء، وهي بالنسبة إلى حواسّهم وعقولهم وإلى أجهزتهم العلمية المتقدمة أمورٌ غيبية، ثم ينكرون وجود الخالق جلّ وعلا ولا يؤمنون به ولا ببقية الغيبات لمجرد أنهم لم يدركوها بحواسّهم.. صدق ربنا جلّ وعلا: ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْى وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الزخرف: ٤٠]..

شيء آخر: فالإنسان إذا نام دخل في عالم مجهول، فالنائم وإن كانت عيناه مُغمضتين، فإنه يمكن أن يرى، والنائم وإن كانت قدماه ثابتتين، فإنه يمكن أن يمشي، وهو وإن كان فمه مُطبّقاً، فإنه يمكن أن

يتكلم، وهو وإن كان نائمًا لوحده، فإنه يمكن أن يُعائش الآخرين ويخالطهم، وأن يتذكر ما جرى له معهم، وربما سافر إلى أماكن لا يعرفها، وربما رأى أشياء لم يرها من قبل، وربما قابل أناسًا لم يسبق له مقابلتهم، والعلم متوقفٌ تمامًا عن تقديم أيِّ تفسيرٍ حقيقي، وكلُّ ما وصل إليه العلماء مجرد تخميناتٍ بلا دليل.. وكذلك يقال للملحد، إنَّ في جسدك روحًا هي التي تجعلك حيًّا متحركًا، وبدونها تتوقف حركتك، وتتحول إلى جثة هامدة، وإنَّ في دماغك وعيًا وذاكرة تُدرك بها الأشياء، وإنَّ في نفسك مشاعرٌ متنوعة، كالحبِّ والرحمة والرغبة والخوف وغيرها من المشاعر.. وبما أنه لم يسبق لأيِّ ملحد أن أدرك رُوحه أو عقله أو مشاعره بأيِّ وسيلةٍ حسية.. فإننا نستطيع أن نؤكد حسب منهجهم العلمي أنَّ الملحد بلا عقل وبلا روح وبلا مشاعر.. قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُون لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]..

□ الشبهة الرابعة: مشكلة الشرِّ.

وجود الشرِّ هو أكبر مُعضلةٍ عند الملحدين وأقواها من وجهة نظرهم، حتى إنَّ كثيرًا منهم يُصرح أن وجود الشرِّ هو السبب الأكبر

في إلحادهم، وأنه حُجَّتُهُم الكبري، بل ويسمونهُ صخرة الإلحاد، ولذلك فهي أكثر الشبه تشعبًا، وأخذًا وردًا، حيث يزعمون: أنَّ وجود الشرِّ يتعارض مع وجود الإله الرحيم، وغالبًا ما يبدأ الملحد نقاشه بقوله: لماذا وجد الشرُّ؟. ولماذا وجد الألم والظلم؟..

أليس وجود الشرِّ يتنافى مع وجود إله رحيم قدير عليم؟.. كيف يقبل إله كامل القدرة كامل الرحمة بوجود كل هذه الشرور؟.. وأمثال هذه المغالطات..

فإذا أثبتنا أنَّ وجود الشرِّ ليس فسادًا من كل وجه، وأنَّ الشرَّ قد يؤدي إلى خير أعظم، أو إلى منع شرٍّ أكبر، وإذا بينا أنَّ وجود الشرِّ له حكمٌ جليل، وفوائدٌ عديدة، فقد دحضت حُجَّتَهُم وبطلت..

وبدائيةً نقول: إنَّ الاحتجاج بوجود الشرِّ مغالطةٌ منطقيةٌ، لا تصلح أن تكون حُجَّةً لنفي الخالق.. لأنَّ الملحد حين يطرح هذه الشبهة، فهو يُدين نفسه، ويتنقل بالمشكلة من كونها: هل الخالق موجود أم غير موجود، إلى أن تكون: هل هو خالق شرير أم غير شرير.. وهذا اعترافٌ ضمني بوجود خالق..

وعندما نتأمل في وجود الخير والشر: نجد أنهما ضروريان لحرية

الإرادة والاختيار، وضروريَّانِ للابتلاء والاختبار، فلا يكون الإنسانُ مخيراً إلا بوجودِ الخيرِ والشرِّ معاً، ولا يتحقّقُ الابتلاءُ والاختبارُ إلا بهما معاً، قال تعالى: ﴿وَبَلَّوْكُمْ بِالْشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].. ثمَّ إِنَّ الخيرَ والشرَّ وجهانِ لعملةٍ واحدةٍ، كُلُّ منهما مُتَمِّمٌ وضروريٌّ لوجود الآخر، ولا يكون أحدهما إلا بوجود الآخر.. فوجوده يُوجدُ، وبعده ينعدمُ.. وفي تضادِّ الخيرِ والشرِّ إبرازٌ لكُلِّ منهما، فبضدها تتميزُ الأشياءُ.. أي أنه لا يظهرُ جمالُ الخيرِ، ولا يظهرُ فُجُحُ الشرِّ، إلا بوجودهما معاً.. وعلى سبيل المثال: فلا توجدُ الرحمةُ إلا بوجودِ الألمِ، ولا توجدُ الشجاعةُ إلا بوجودِ الخطرِ، ولا يوجدُ النبلُ والكرمُ إلا بوجودِ العوزِ والحاجةِ، ولا يوجدُ الصَفْحُ والتسامحُ إلا بوجودِ الإساءةِ، ولا يوجدُ العدلُ والإنصافُ والنُّصرةُ إلا بوجودِ الجورِ والظلمِ والتعدي، وهكذا، فلا معنى للصبرِ بلا مُصِيبَةٍ، ولا معنى للشبعِ من غيرِ جوعٍ، ولا معنى للمواساةِ بلا مواجعٍ، ولا معنى للحبِّ من غيرِ تضحيةٍ، وعليه فالشرُّ إفرازٌ طبيعيٌّ ضروريٌّ لوجودِ التضادِّ والاختلافِ بين الأشياءِ..

وعند التأملِ أكثر: سنجدُ أنَّ غالبيةَ ما حولنا هو من قبيلِ الخيرِ، لأنَّه هو الأصلُ، بينما الشرُّ قليلٌ محدودٌ، بل هو استثناءٌ يؤكدُ دورَ

الخير ويبرزه.. فالمرض والألم استثناء من الصحة والعافية، والجوع استثناء من الشبع، والقلق استثناء من الطمأنينة، والخوف استثناء من الأمن.. وهكذا فالخير أصل غالب، والشر استثناء محدود.. وبالتالي فإمكاننا أن نقرب الطاولة على الملحد، فنسأله: من الذي جاء بكل هذا الخير؟.. والجواب: ﴿وَمَا يَكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ [النحل: ٥٣]..

ثم إن الشر قد لا يكون مقصوداً لذاته، فالألم الذي يشعر به المريض هو نوع من الشر، لكنه ليس مقصوداً لذاته، بل هو تنبيه وجرس إنذار، يبدأ خفيفاً ثم يتدرج حتى يصبح مؤلماً، كل ذلك لكيلا يتراخى المريض في تعاطي العلاج فتتفاقم المشكلة ويتعرض للهلاك.. فهل الشعور بالألم نعمة وحكمة وخير.. أم هو ظلم وقسوة وشر.. هل الشر مقصود لذاته أم هو تدبير لطيف من الرحيم الحكيم سبحانه وبحمده..

ثم إن الخير والشر نسبيان: أي أن كلا منهما خير من وجه، وشر من وجه آخر، ولو بنسب متفاوتة، لذلك قالوا في الأمثال: مصائب قوم عند قوم فوائد.. المطر مثلاً بالنسبة للمزارع خير، ولكنه بالنسبة لصانع الفخار شر.. ذوبان الثلج وتحوله إلى ماء عذب يسقي

الزُّرُوعَ والحيواناتِ، هو خيرٌ من هذا الوجهِ، ولكنه قد يسببُ الفيضاناتِ المهلكةَ.. دفءُ النارِ وحرارتها ضروريةٌ لحياة الإنسانِ، فهي من هذا الوجهِ خيرٌ كبيرٌ، لكنَّها قد تُسببُ الحرائقَ وبعض الأضرارِ، الأمواجُ والرياحُ وغيرها من الأشياءِ، كُلُّها لا يخلو خيرها الكثيرُ من بعضِ الشرِّ والأذى، حتى إبليسَ على ضلاله وإضلاله، فهو ليس شرًّا محضًا، ففي وجوده خيرٌ وحكمٌ جليلةٌ، منها كونه سببًا في استكمال المؤمنين لمراتبِ العبوديةِ لله، وذلك بمجاهدته، ومخالفتِهِ، والاستعاذةِ منه، ومنها كونه عِبرةً وعِظَةً للمؤمنين من شؤم الذنوبِ، فإبليسُ بعدَ القُربِ والرَّفعةِ والتَّكريمِ، يُلَعْنُ ويُطْرَدُ ويُهَانُ، فمن يأمنُ على نفسه إذن.. ومنها كونه محكَّ اختبارٍ لتمييز الطيبِ من الخبيثِ، وأن ينالَ الصالحونَ جزاءَ صلاحِهِم، وينالَ المجرمونَ جزاءَ إجرامِهِم.. ومنها كونه سببًا في إظهارِ كمالِ قُدرةِ الله وحِكمتهِ في خلقِ الأضدادِ، فكما خلقَ اللهُ السماءَ، خلقَ الأرضَ، وكما خلقَ النَّورَ، خلقَ الظلامَ، وكما خلقَ الماءَ، خلقَ النَّارَ، وكما خلقَ جبريلَ وميكائيلَ وبقيةَ الملائكةِ، فكذلك خلقَ إبليسَ وذريتهُ من الشياطينِ، وغيرها من الحِكمِ والفوائدِ..

ليس ذلك فحسب، بل إنَّ لوجودِ الشرِّ فوائدَ وحِكمًا جليلةً

أُخْرَى، مِنْهَا: أَنَّهُ ضَرْوَرِيٌّ لِتَطْوِيرِ قُدْرَاتِ الْإِنْسَانِ، فَمِنْ طَبِيعَةِ الْبَشَرِ أَنَّهُمْ يَمِيلُونَ لِلرَّاحَةِ وَالْكَسَلِ، وَيُحِبُّونَ الْمَتْعَةَ وَالتَّسْلِيَةَ.. خُصُوصًا مِنْ يَعْيشُ فِي طَرَاوَةِ النِّعَمِ، بَيْنَمَا تَرَى الَّذِينَ تَرَبَّوْا عَلَى الشَّدَائِدِ وَالْمَعَانَاةِ، وَالْأَلَمِ وَالْمَحَنِ، وَالْمَصَاعِبِ، يَصْبِحُونَ نَمَازِجَ فَاحِرَةٍ فِي الْعَطَاءِ وَالْإِنْجَازِ، وَالْإِيجَابِيَّةِ وَالتَّمْيِيزِ.. فَفِي بَعْضِ الشَّرِّ تَرْبِيَةٌ نَافِعَةٌ لِبَنِي آدَمَ، وَفِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْيَانِ تَكُونُ الشَّدَّةُ وَالْخَشُونَةُ أَنْفَعَ لَهُمْ مِنَ النِّعْمَةِ وَالرَّخَاءِ..

ثُمَّ إِنَّ السَّعَادَةَ وَالنِّعَمَ وَاللَّذَاتِ عُمُومًا، لَا يَكَادُ يَسْلُمُ طَالِبُهَا مِنْ أَذِيَةٍ تَلْحَقُهَا، وَكَلَّمَا زَادَتِ اللَّذَةُ وَالْمَتْعَةُ، زَادَ الْأَلَمُ وَالْأَذَى جَرَاءَ تَحْصِيلِهَا.. يَقُولُ الشَّاعِرُ: بَصُرْتُ بِالرَّاحَةِ الْكُبْرَى فَلَمْ أَرَهَا... تُنَالُ إِلَّا عَلَى جِسْرِ مِنَ التَّعَبِ.. وَيَقُولُ الْآخَرُ: تُرِيدِينَ إِدْرَاكَ الْمَعَالِي رَخِيصَةً.. وَلَا بُدَّ دُونَ الشَّهْدِ مِنْ إِبْرِ النَّحْلِ... وَقَدْ أَكَّدَتْ دِرَاسَةٌ أُجْرِيَتْ لِمَتَابَعَةِ حَيَاةٍ أَكْثَرَ مِنْ (٣٠٠) قَائِدٍ وَزَعِيمٍ مُؤَثِّرٍ فِي التَّارِيخِ، فَتَبَيَّنَ أَنَّهُمْ قَدْ عَانُوا جَمِيعًا مِنْ طُفُولَةٍ قَاسِيَةٍ، أَسْهَمَتْ فِي صَقْلِ شَخْصِيَّاتِهِمْ، وَتَنْمِيَةِ مَهَارَاتِهِمْ، وَتَعْوِيدِهِمْ عَلَى الْجَدِّيَّةِ وَتَحْمُلِ الْمَسْئُولِيَّةِ..

وَمِنْ الْحِكْمِ فِي وَجُودِ الشَّرِّ: أَنْ يَكُونَ سَبَبًا فِي كَسْبِ الذُّنُوبِ الَّتِي

يُحِبُّ اللَّهُ أَنْ يَغْفِرَها لعباده، فَرُبُّنا الْعَظِيمُ الرَّحِيمُ، عَفْوٌ كَرِيمٌ يُحِبُّ الْعَفْوَ وَالْمَغْفِرَةَ، وَيَفْرَحُ بِتَوْبَةِ التَّائِبِ فَرَحًا لَا يُمَكِّنُ تَصَوُّرَهُ، وَيَغْفِرُ لَهُ وَلَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُهُ عَنَانَ السَّمَاءِ، بَلْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «لَوْ لَمْ تَذَنْبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ، وَلَأَتَى بِقَوْمٍ يَذَنْبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ فَيَغْفِرُ اللَّهُ لَهُمْ».. فَوْجُودُ الشَّرِّ يَسْتَظْهِرُ مَعَانِيَ كَثِيرًا مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ الْحَسَنِيَّ وَصِفَاتِهِ الْعُلَا، كَالْتَّوَابِ وَالْغَفُورِ وَالْعَفْوِ وَالرَّحِيمِ وَالْحَلِيمِ، وَغَيْرِهَا مِنْ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ، وَكَذَلِكَ يَسْتَظْهِرُ مَعَانِيَ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى انتِقَامِ اللَّهِ مِنَ الْأَشْرَارِ، كَالْمُنْتَقِمِ وَالْخَافِضِ وَالْمَذِلِّ وَغَيْرِهَا مِنَ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ..

وَمِنَ الْحِكْمِ فِي وَجُودِ الشَّرِّ: أَنَّهُ ابْتِلَاءٌ لِرَفْعَةِ الدَّرَجَاتِ، وَتَكْفِيرِ السَّيِّئَاتِ، وَعَلَى كِلَا الْحَالَيْنِ فَهُوَ عَطَاءٌ وَرَحْمَةٌ، قَالَ ﷺ: «مَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ مِنْ نَصَبٍ وَلَا وَصَبٍ، وَلَا هَمٍّ وَلَا حَزَنٍ، وَلَا أذى حَتَّى الشُّوْكَةَ يُشَاكُهَا إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ»، وَفِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ: إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ..

وَمِنَ الْحِكْمِ فِي وَجُودِ الشَّرِّ: إِشْعَارُ الْمُؤْمِنِ بِحَقَارَةِ الدُّنْيَا، وَأَنَّهَا

أَتَفَهُ مِنْ أَنْ يَصْرِفَ لَهَا هَمَّهُ كُلَّهُ، فَإِذَا أُصِيبَ بِبَعْضِ الْمَصَائِبِ وَالشَّرُورِ، زَالَتْ عَنْهُ سَكْرَةُ حُبِّهَا، وَعَرَفَ قَدْرَهَا وَقِيَمَتَهَا، وَأَنَّهَا كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ لَا تُسَاوِي عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ..

وَمِنَ الْحِكْمِ فِي وَجُودِ الشَّرِّ: أَنْ يَكُونَ أَدَاةً لِلانْتِقَامِ مِنَ الظَّالِمِينَ، وَمُعَاقِبَةٍ لِمُفْسِدِينَ.. قَالَ تَعَالَى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١]..

وَمِنَ الْحِكْمِ فِي وَجُودِ الشَّرِّ: أَنَّهُ وَسِيلَةٌ تُلْجِئُ الْإِنْسَانَ إِلَى خَالِقِهِ وَمَوْلَاهُ، وَتُضْطَرُّهُ لِلِاسْتِغَاثَةِ وَالِاسْتِعَانَةِ بِهِ جَلًّا فِي عُلَاهُ.. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِّنْ نَّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ [النحل: ٥٣].. فَإِذَا تَعَرَّضَ الْعَبْدُ لِبَعْضِ الشَّرِّ وَالْأَذَى، وَقَلَّتْ حِيلَتُهُ، انْكَسَرَ غُرُورُهُ، وَذَهَبَ عِنَادُهُ، وَتَيَقَّنَ بِأَنَّهُ عَبْدٌ ضَعِيفٌ، لَيْسَ لَهُ إِلَّا أَنْ يَعُودَ مُسْتَكِينًا إِلَى خَالِقِهِ وَمَوْلَاهُ.. فَالْشَّرُّ هُنَا كَالْعِلَاجِ بِالْكَيِّ، يُؤْذِي.. وَلَكِنَّهُ بِإِذْنِ اللَّهِ يَشْفِي..

وَالْمُؤْمِنُ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ لَيْسَ فِي أَعْمَالِ اللَّهِ شَرٌّ، وَأَنَّ الشَّرَّ لَا يُنْسَبُ إِلَى اللَّهِ أَبَدًا، وَإِنَّمَا الشَّرُّ مِنْ أَعْمَالِ مَخْلُوقَاتِهِ.. وَاللَّهُ جَلَّ وَعَلَا إِنَّمَا سَمَحَ

بوجود الشرِّ لحكمٍ سبقَ أن ذكرنا بعضها.. وحين يزعمُ الملحدُ أنَّ بعضَ الشرِّ الموجودِ لا حكمةَ له، كموت الحيواناتِ في الحرائقِ، أو جرائمِ اغتصابِ الأطفالِ وقتلِهِم.. فمن وجهةِ نظرِ الملحدِ ينبغي للإلهِ الحكيمِ الرحيمِ (إن كان موجودًا) أن يمنعَ مثلَ هذهِ الشرورِ الفظيعةِ.. وكثيرًا ما يلجأُ الملحدُ إلى السؤالِ التالي: لماذا لا يُخبرنا الله عن حكمةِ كُلِّ شرٍّ موجودٍ، وهو سؤالٌ بلا معنى، لأنَّ الشرَّ وجدَ عمومًا للابتلاءِ والاختبارِ، ولَمَّا ذكرناه سابقًا من حكمٍ كثيرة، ولأنَّ في طيِّ كُلِّ مِحْنَةٍ منحةً، ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].. ولأنَّ العقلَ البشري قد يفوته إدراكُ الكثيرِ من الحكمِ لعجزِهِ وقصورِهِ، فعقلُ الإنسانِ عاجزٌ عن استيعابِ الكثيرِ من الحقائقِ الكونيةِ رغمَ وجودِها أمامَهُ، فكيفَ يستوعبُ عقلُهُ مفاهيمَ وتفصيلَ العدلِ الإلهي والقدرِ خيرِهِ وشرِّهِ، وهي غيبٌ اختصَّ اللهُ تعالى بعلمِهِ، والقدرُ سرُّ الله تعالى في خلقهِ.. وقصورُ العقولِ وقلةُ علمِها، يمكنُ تخيلَهُ إذا تصورنا حيوانًا يقعُ في مَصيدةٍ مُعقدةٍ، وحين يأتي إنسانٌ ليخلصَهُ منها تجدهُ يقاومُهُ بشراسةٍ، لظنِهِ أَنَّهُ يريدُ به شرًّا.. فبالرغمِ من ضخامةِ الفارقِ بين علمِ الإنسانِ وعلمِ الحيوانِ، إلا أَنَّهُ

لا شيء، مقارنةً بالفارق المتناهي بين علم الله تعالى وعلم الإنسان..
والله يعلم وأنتم لا تعلمون..

ثم إنَّ ظُهورَ الحِكمةِ من وجودِ بعضِ أنواعِ الشرِّ بشكلٍ مُقنعٍ،
يدلُّ على وجودِ غيرها من الحِكمِ المقنِعةِ لبقيةِ أنواعِ الشرِّ، لكننا لا
نعلمُها لجهلنا أو لقصورِ إدراكنا وعجزِ عقولنا.. والله المثلُّ الأعلى،
فحين نجدُ في جهازِ الجوالِ قطعةً لا نعرفُ وظيفتها، فلا نقولُ إنها
بلا فائدة، لأنَّه قد تراكمَ عندنا من تجاربٍ سابقةٍ، أنَّ الشركةَ
المصنِعةَ لا تضعُ في جهازها قطعةً إلا ولها حِكمةٌ وفائدة، حتى وإن
لم نعرفها.. والعقلاءُ قد استقرَّ في عقولهم وتواترَ عندهم أنَّ لله
حِكمةً في كلِّ ما يخلقه، فإذا لم تظهر لهم الحِكمةُ أحياناً.. فإنَّهم
يردونَ ما جهلوه منها إلى ما استقرَّ في عقولهم، وما علموه من
حِكمتهِ المضطَّردة.. وفي قصةِ موسى مع الخضرِ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، رأينا
أنَّ خرقَ السفينةِ وهو شرٌّ ظاهرٌ كان سبباً في سلامتها من شرٍّ أكبر،
وأنَّ قتلَ طفلٍ صغيرٍ، كان هو السببُ في رحمتهِ هو وأهله من شرٍّ
أكبر لو أنَّه تُركَ حياً..

ثم هناك أمرٌ أخيرٌ يغيبُ عن فهمِ الملحد، وهو أنَّ خلقَ الإنسانِ
ومنحه هذه الحياةَ المؤقتةَ، ليس الغايةُ منه إسعادُه وإنَّما الغرضُ

اختباره، وبالتالي فإنَّ أيَّ شرٍّ يراه في الدنيا فهو ليس نهاية المطاف، وإنما هو الفصل الأول فقط، وحتماً هناك فصلٌ آخرٌ مُتممٌ للقصة، وهو يومُ القيامة، حيثُ ينالُ فيه كلُّ من المحسنُ والمسيءُ حقه بالقسطِ والعدلِ، قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]..

□ الشبهة الخامسة: لا وجودَ لحقٍّ مطلقٍ..

يُشيعُ بعضُ المعاصرين قولاً يترددُ كثيراً في أوساط المثقفين والطلاب والمراهقين، مفاده: «لا وجودَ لحقٍّ مطلق، فكلُّ شيءٍ نسبي، وكلُّ إنسانٍ يرى الحقيقةَ من زاويته الخاصة»، والهدفُ الخفيُّ من هذا القولِ هو سحبُ البساطِ من تحت أي فكرةٍ قطعية، دينيةٍ كانت أو أخلاقيةٍ أو علمية، وفتحُ البابِ على مصراعيه لتكافؤِ كلِّ الآراء، مهما تناقضت.. لكنَّ المدهشَ أنَّ هذا القول (رغم شيوعه) ينهارُ بمجرد تأمله، إذ إنه يحملُ في ذاته تناقضاً منطقياً لا يمكنُ تجاهله، فحين يقولُ القائلُ: «لا وجودَ لحقيقةٍ مُطلقة»، فهل قوله هذا حقيقةٌ مُطلقة؟! أم أنه ينقضُ دعواه بنفسه دون أن يدري.. لأنه إذا كانَ كلُّ شيءٍ نسبياً فعلاً، فقوله هذا أيضاً نسبيٌّ، وبالتالي فلا يصحُّ أن يُلزمَ به أحداً..

وهذه المغالطة تسمى عند أهل المنطق بـ«العبارات التي تهدم نفسها»، فهي كمن يقول: «أنا لا أعرف شيئاً»، فهل عرف أنه لا يعرف؟.. أو كمن يقول: «اللغة لا تُعبر عن الحقيقة»، وهو يعبر بنفس اللغة.. والمشكلة الأكبر أن هذه الفكرة لو صحّت لصاحبها، لترتب عليها نتائج كارثية في كلّ مجال، فلو كان كلّ شيء نسبياً، فلا فرق إذاً بين الصدق والكذب، ولا بين العدل والظلم، ولا بين الخير والشر، ولا يمكن لأحد أن يُدان أو يُحاسب، لأنّ الفعل في النهاية «وجهة نظر».. بل لو قبلنا هذه النسبية المطلقة، لسقطت كلّ القوانين، وضاعت كلّ القيم، وتحوّلت الجريمة إلى مسألة «اختلاف آراء»، وأصبح القتل والسرقة والخيانة والاغتصاب أموراً قابلة للنقاش، ولا يوجد فيها صواب أو خطأ إلا بحسب «وجهة النظر».. ثمّ انظر إلى العلوم، وتأمل كيف قامت الحضارات، فلقد تأسس العلم على أنّ في الكون قوانين ثابتة، وأنّ العقل قادرٌ على إدراكها، وأنّ الخطأ والصواب أمران يُفصل بينهما بالدليل، فهل سمعت يوماً مهندساً يقول: «الجسر الذي صمّمته قد يكون آمناً عندي، وخطيراً عندك، فكلّ شيء نسبي»؟ وهل يقول عاقل: «السرطان مرضٌ عندي، وعافيةٌ عندك، لا مشاحة في الآراء»؟.. إننا نضحك من هذه العبارات، لأنها ببساطة تُخالف الواقع والمنطق

معاً.. فالعقلاء يعلمون أنَّ هناك قوانين، وهناك ثوابت، وهناك حقائق لا تتبدل باختلاف الأشخاص أو البيئات.. فهذه الشبهة لا تُقبل إلا إذا ألغي العقل، وترك الواقع، ورُفضت كل المعارف البشرية، والشرائع الإلهية، وحتى أبجديات الحياة اليومية.. بل الأعجب من ذلك أنَّ القائل بالنسبية لا يستطيع أن يعيش يومه على أساسها، فهو يغضب إن ظلمه أحد، ويشتكى إن هُضم حقه، ويحتج حين تُهان كرامته، فإذا قلت له: «كل ذلك نسبي»، سارع بالإنكار، واعتراض بأنه يُطالب بالحق والعدل، وكأنَّ الحق والعدل مفهومان ثابتان، لا نسيان، وهذا وحده كافٍ لإسقاط الشبهة..

إنَّ أصل هذه المقولة منسوب لبعض أرباب الحداثة، الذين أصابتهم الحيرة بعد أن أداروا ظهورهم للوحي، فضلوا في ظلمات الشك، فزعموا أن لا حقيقة في هذا العالم، ولا حق، ولا مرجع، ولا صواب، وأنَّ كل المعاني يمكن تفسيرها من وجهات نظرٍ لا نهائية.

ثم نقول لكل مشكك: لو كنت صادقاً في هذه الدعوى، فهل يتساوى في نظرك كلام النبي الصادق مع كلام كذاب مُبين؟.. وهل ترى أنَّ الدين الذي يدعو للعدل والتزكية وحسن التعامل، مثله مثل النازية والبلشفية وكل من يُشرع القتل والاضطهاد؟.. وهل يمكن أن تعتبر القرآن الكريم كأي كتابٍ آخر؟.. فإنَّ قال نعم، فقد كشف عن

خلل عميق في الفطرة والمنطق، وإن قال لا، فقد ناقض فكرته النسبية، واعترف بوجود حق ثابت وصواب متفق عليه.. والحقيقة التي لا مفر منها أن في هذا الوجود «حقاً مطلقاً»، وهو ما جاء من عند الله، فهو العالم المطلق، الحكيم المطلق، الذي لا يخفى عليه شيء، ولا يشبهه عليه شيء، وكل ما عداه يحتمل الخطأ والصواب، أما هو سبحانه فكلمته هي العليا، و ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، ومن رحمته بنا أن أوصل إلينا هذا الحق عن طريق وحيه وكتبه ورساله، فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر، ولكن الحق يبقى، والباطل يزهدق، والميزان قائم، ﴿فَدَلِّكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقَّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ [يونس: ٣٢]..



الباب الثامن:

حصانة وإلزام..

تمهيد: لقد مضينا سوياً عبرَ صفحاتِ هذا الكتابِ نُرسي دعائمَ اليقينِ، ونستعرضُ الأدلةَ وتطبيقاتها، حتى إذا استبانَ السبيلُ، وظهرَ الحقُّ جليّاً لكلِّ مُنصفٍ، بقيتَ مُهمتانِ لا يتمُّ البناءُ إلا بهما:

الأولى: أن نوردَ جملةً من أبرزِ وسائلِ التحصينِ والوقايةِ، مساعدةً لمن أرادَ أن يثبتَ على الجادةِ، ويسلمَ من التيهِ والضياعِ في ظلماتِ الإلحادِ وشبهاته..

والثانية: أن نختمَ بسيلٍ من الأسئلةِ القاطعةِ، التي يعجزُ الفكرُ الإلحاديُّ عن مجاراتها، ولا يجدُ لها تفسيراً إلا بالتسليمِ بوجودِ الخالقِ جَلَّ وَعَلَا..

وهكذا نجمعُ بينِ حصانةِ الفكرِ من الشبهاتِ، وإلزامِ المخالفِ بالحجةِ والبرهانِ، ليكونَ الختامُ إحكاماً للبيانِ، وتثبيتاً لما ترسَّخَ في القلوبِ من أنوارِ الإيمانِ، ومن الله العونُ والتسديدُ..



أولاً: أهمُّ وسائلِ الوقاية من شُبهاتِ الملحدين:

ليس كلُّ من وقعَ في الشبهة كان راغباً فيها، ولا كلُّ من أُصيبَ بالشك كان مُستهيناً به، وما أكثرَ الذين زلّت أقدامهم وهم يبحثون عن الحقيقة، لأنهم لم يتسلحوا بالعلم والبصيرة.. ولذلك فلا بدّ أن نعرفَ كيف نقي أنفسنا من الوقوع في الشُّبهاتِ عموماً.. فإليك أهمُّ وسائلِ الوقاية من شُبهاتِ الملحدين:

□ ا: التَّسْلِيمُ لكلامِ ربِّ العالمين وكلامِ رسوله الأمين ﷺ

فالتَّسْلِيمُ هو أهمُّ وأقوى ما يُحطَّمُ شُبهاتِ الملحدين، حيثُ إنّ الإسلامَ مبنيٌّ على التَّسْلِيمِ.. وإذا كان بإمكان علماءِ المادةِ أن يوضحوا كيف تحدثُ الأشياء، فإنَّهم عاجزونَ كلياً عن معرفةٍ من أين جاءت الأشياء، ولماذا تحدثُ الأشياء.. وما من مصدرٍ موثوقٍ لمعرفة ذلك، إلا نصوصُ الوحيِّ من الكتاب والسنة..

ولذلك فلا إيمانَ ولا إسلامَ إلا بالتَّسْلِيمِ التَّامِّ لنصوصِ الوحيِ الصحيحةِ الثابتة، والانقيادِ لها.. وعدمِ تقديمِ الآراءِ عليها، قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]..

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٥١]..

وقال الإمام الزهري رَحِمَهُ اللَّهُ: «من الله الرسالة، وعلى رسول الله ﷺ البلاغ، وعلىنا التسليم».. وقال الإمام الطحاوي رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا تثبت قدم الإسلام إلا على ظهر التسليم والاستسلام»..

□ ٢: تعظيم الله في القلب، وتثبيت أصل الإيمان به..

فلا وقاية أعظم من قلبٍ يُعَظَّمُ الرَّبَّ ويعرفُ صفاته، ويوقنُ أَنَّ لكلَّ صنعةٍ صانعًا، ولكلِّ نظامٍ مدبرًا.. قال ابن القيم: «العلم بالله أصل كلِّ علم، ومن فاته هذا الأصل ضلَّ في سائر العلوم».. والقلوبُ التي فُطِرَتْ على التوحيد، وتعلّمت أسماءَ الله وصفاته، يزدادُ إيمانها ويسهلُ عليها ردُّ كلِّ شبهةٍ..

□ ٣: ربط النفس بالله ربطًا ذوقيًا وشعوريًا، لا معرفيًا فقط..

فإن من ذاق طمأنينةَ الإيمان، ووجدَ في صلاته لذةَ المناجاة، وفي دعائه دفءَ القرب، لا تزعزعهُ شبهةٌ، ولا تهزّه فتنةٌ.. فإنَّ الزادَ الروحي ليس ترفًا، بل هو الحصن المنيع، والدرع الواقِي، وصدق الله: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ

صَدْرُهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ۚ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ
الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿[الأنعام: ١٢٥]..

□ ٤: العناية بالقرآن تلاوةً وتدبراً وتمسكاً،

فقد أودع الله في كتابه كلَّ ما يحتاجه المسلم.. وفيه من الآيات
العقلية والكونية والوجدانية ما يُبطل كلَّ شبهة.. قال تعالى:
﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢].. وقال أيضاً:
﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣]..

□ ٥: الاهتمام بالتأصيل الشرعي الكافي،

وتعلم العقيدة الصحيحة من مصادرها النقية وعلى أيدي العلماء
الربانيين الثقات فقط، والتفقه في مسائل التوحيد ودراسة البراهين
والأدلة الدامغة للردِّ على شبه الملحدين والمشكِّكين، ومعرفة طرق
البحث عن الحق والصواب، والتعرف على المواقع المتخصصة في
محاربة الإلحاد، كموقع المحاور، وموقع هداية الملحدين، وموقع
التوحيد، وبإذن الله سيجد فيها إجابات شافية لكلِّ ما لديه من أسئلة
وإشكاليات.. وسيجد فيها من العلماء المتخصصين من يمكنه أن
يتواصل معهم بكلِّ سهولة، لمساعدته في حلِّ الإشكاليات التي لم
يستطع أن يحلها بنفسه.. إمَّا عن طريق معرفاتهم في برامج التواصل،

أو من خلال أرقام جواباتهم.. قال تعالى: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧]، فإن أخفى المرءُ الشبهة في صدره ولم يطلب لها جوابًا صحيحًا، كانت كالجمر تحت الرماد، تشتعل مع أول ريح تنفخ فيها..

□ ٦: الثبات والتماسك أمام الشبهات،

حيث إنه كثيرًا ما يضطرب المتشكك حين يسمعُ الشبهة لأول مرة، ظنًا منه أنها حقُّ وأنه لا جوابَ لها، بينما لو سأل وتحرى لزال عنه الإشكال بإذن الله.

□ ٧: تنمية الحس النقدي،

وعدم قبول أيّ دعوى بدون دليل صحيح.. وذلك عن طريق دراسة الشبهات دراسةً نقدية، فأكثر الشبهات إما عاطفية أو نابعة من جهل أو تجربة شخصية أو صدمة نفسية، أو مجرد تلاعب لغوي أو مغالطة منطقية.. فما أكثر الذين يفتنهم بريق السؤال لا قوته.. ويربكهم تعقيد العبارة لا صحة الفكرة.. قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧]..

□ ٨: الاهتمامُ بعبادةِ الذِّكْرِ والتَّفَكُّرِ في آياتِ اللهِ الكونيةِ والشرعيةِ..

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١]، فبمداومةِ الذِّكْرِ والتَّفَكُّرِ يصلُ العبدُ إلى تنزيهِ الخالقِ تبارك وتعالى، ونفيِ العَبَثِيَّةِ والعشوائِيَّةِ.. ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ﴾ [آل عمران: ١٩١]..

□ ٩: أن يعرفَ القارئُ حدودَ العلمِ التجريبي،

وأنه لا يُجيبُ عن الأسئلةِ الوجوديةِ الكبرى، كغايةِ الحياة، ومعنىِ الأخلاقِ، وسرِّ الروحِ، ومصيرِ الإنسانِ بعدَ الموتِ، وما الحكمةُ من كلِّ هذا؟.. وأنه لن يجدَ الأجوبةَ الصحيحةَ إلا عن طريقِ الوحيِ الإلهي.. قال تعالى: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٦٤]..

□ ١٠: الصحبةُ الصالحةُ، والبيئةُ الإيمانيةُ،

والمجالسُ التي يذكُرُ فيها اسمُ الله، فإنَّ الشبهاتِ تنمو بذورها في القلوبِ الخاوية، وتجدُ أرضًا خصبةً عند من يعيشُ في فراغٍ روحي، أو عزلةٍ فكرية، أو جوًّا ملوَّثٍ بالسخرية من الدينِ وأهله،

ولهذا قال النبي ﷺ: «المرءُ على دين خليله، فلينظر أحدكم من يُخالل»، وقال الله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعَشيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الكهف: ٢٨]..

□ ١١: أن يتعلم المسلم شيئاً من قواعد المنطق،

وكيف تُبنى الحجج وتُردُّ المغالطات، ولو بأسلوبٍ مبسط، فإنَّ هذا يكشفُ زيفَ كثيرٍ من شبهات الإلحادِ المعاصر، ويُعينه على التفريق بين السؤالِ الحقيقي والسؤالِ المغلوط.. وقد قيل: «العقلُ لا يُهزمُ من عقل، وإنما يُهزمُ من هويٍّ أو جهلٍ أو خذلانٍ»..

□ ١٢: تجنب الدخول في مواقع الملحدين بلا خبرةٍ كافية،

فالسَّلامةُ لا يعدلها شيءٌ، والوقايةُ خيرٌ من العلاج، والقلبُ وعاءٌ إن صُبَّ فيه ماءٌ نظيفٌ راقٍ وصفاً، وإن خُلطَ بالعفنِ تغيرَ وتكدَّرَ.. وما أكثرَ الذين فتنوا لأنهم استمروا سماعَ الشبه، وتهاونوا بخطرِها، حتى أَلْفَوْها وتعودوا على سماعِها.. بينما التوجيهُ الربانيُّ يقول: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ [القصص: ٥٥].. وقال الإمام الشاطبي: «الفتنةُ بلا تحصينٍ أشبهُ ما تكونُ بالعدوى، تدخلُ على العبد وهو لا يشعر، فإذا به من المرضى»..

❑ ١٣: الاطلاع على تجارب العائدين من الإلحاد،

فإنَّ شهاداتهم أقوى من ألف مناظرة ومقالة، وليس من جرب كمن لم يجرب.. ومن لطيف ما قاله أحدهم: «كنت أظنُّ أنني حين أرفض الإيمان أتحرر، فإذا بي أدخل سجنًا من الشك، لا جدران له ولا أبواب»..

❑ ١٤: اللجوء الصادق إلى الله، وسؤاله الهداية..

فربك أرحمُ بك من نفسك، وأعلمُ بما في قلبك منك، وهو القائل: ﴿فَمَنْ أَتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه: ١٢٣].. وقد كان ﷺ يكثر أن يقول: «يا مقلبَ القلوبِ ثبت قلبي على دينك»، ومن صدق مع الله في طلب الهداية هداه، وثبته ووقاه.. ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]..

وختامًا، فإنَّ الوقاية من الشبهات عمليةٌ دائمةٌ مستمرة، وغذاءٌ روحيٌّ منتظمٌ، وتجديدٌ دائمٌ للعهد مع الله.. وكلَّمَا صحَّ الأصلُ قويت الفروع، وكلَّمَا كان البناءُ متينًا، صمدَ أمام أمواج الفتن: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم: ٢٤]..



ثانيًا: عشرون سؤالًا لا يستطيع الملحد أن يجيب عليها إلا إذا آمن بوجود الخالق جلَّ وعَلَا..

هذا هو المحور الأخير في الردّ على الملحدين، وبيان تهاوتِ مذهبهم، وبُطلانِ مُعتقدهم.. وبه تكتمل أدلة الحقِّ الدامغة، وتنقطع حُججهم الواهية من كل وجهٍ..

وابتداءً أودُّ أن أذكّر بالمغالطات التي بنى عليها الملحدون عقيدتهم الإلحادية، فهم حين جحدوا وجودَ الخالقِ جلَّ وعَلَا استبدلوه بالصدفة والطبيعة، ثم زعموا أنَّ الكونَ أزليٌّ قديمٌ لا بداية له ولا نهاية، ليهربوا من الاعتراف بالخالق، ولنفس السبب فسَّروا نشأة الحياة وظهور الكائنات الحيَّة بنظرية خرافية أسموها: نظرية النشوء والارتقاء، وملخصها: أنَّ جميع الكائنات الحيَّة نشأت في بداياتها من أصلٍ واحد، وهو كائنٌ بدائيٌّ دقيق، يُسمى «وحيد الخلية»، ظهرَ هذا الكائنُ البدائي فجأةً من العدم، وتكوَّن بزعمهم في المستنقعات، ثم أخذَ يتغيَّر ويتطوَّر ويطرُق، عبرَ ملايين السنين، حتى وصلَ إلى كلِّ أشكالِ وأنواعِ الحياة، بما فيها الإنسانُ وسائرُ الحيوان، وتزعمُ هذه النظريةُ (الغيبية) الخيالية أنَّ صفاتِ وأعضاء الكائناتِ الحيَّة تتغيَّر باستمرار، وأنها تتطوَّر وترتقي مع مرور الزمن،

مكوّنة طَفَرَاتٍ جديدة، تُمكنُ الكائنَ الحيَّ من التَّكَيِّفِ أكثرَ مع بيئته، والعيشِ بشكلٍ أفضلٍ.. هكذا استبدلَ الملحدون الجاحدون وجودَ الخالقِ تبارك وتعالى بهذه النظرياتِ الخرافية..

فإليكم يا معشر الملحدين عشرين سؤالاً قاطعاً، كلها أسئلةٌ واضحةٌ مُباشرةٌ، ليس فيها تدليسٌ ولا مغالطة، ولا يمكنُ للملحد أن يجيبَ عن أيٍّ منها دون الاعترافِ بوجود الخالقِ جَلَّ وَعَلَا، وهي على النحو التالي..

□ السؤال الأول: من أين جاءت المادة الأولى؟..

يتحدثُ الملاحدةُ بثقةٍ عن «تطوُّر الكون»، و «الانفجار العظيم»، وعن «نشوء الحياة»، وعمّا حدثَ بعد البداية.. ولكن: من الذي أوجدَ البداية أصلاً؟..

من أين جاءت «المادة الأولى» التي انفجرَ منها الكون؟..

من خلقَ «الذرة الأولى»، و «الطاقة البدائية»، و«الفراغ» الذي حدثَ فيه كلُّ شيءٍ؟.. ما الذي كانَ موجوداً قبلَ أن يوجدَ الكون؟.. وإن كانت المادةُ موجودةً منذُ الأزل، فلماذا انفجرت في ذلك الوقت بالذات؟.. لماذا انتظرت كل هذا الوقت؟.. ومن الذي

فجرها؟.. ولماذا انفجرت أصلاً؟.. ومن وضع قوانين الانفجار؟..
ومن الذي ضبط أنظمة الفيزياء قبل أن تكون هناك فيزياء؟..
تساؤلات لا تنتهي...

□ السؤال الثاني: كيف جاءت قوانين الفيزياء؟..

الكون ليس مادةً فوضويةً تائهة.. بل هو محكومٌ بقوانين دقيقة،
وثوابت محددة، ومقادير محسوبة بكلّ دقة..
هناك أكثر من ١٥٠ ثابتاً فيزيائياً معروفاً..

ثابت الجاذبية، وثابت سرعة الضوء، وثابت بلانك، وغيرها..
فمن الذي أوجد هذه القوانين وثبتها؟.. من الذي صاغها بهذه الدقة
المتناهية؟.. فقوانين حركة النجوم والمجرات، وقوانين حركة
الذرات والجسيمات عالمان مختلفان تماماً، لكنهما يعملان معاً
بتناسقٍ مذهلٍ لبناء الكون. فمن صمم هذا التناغم؟..

لو تغيرت هذه الثوابت مع الزمن، لانفطر عقد الكون فما الذي
أبقاها ثابتةً منذ مليارات السنين؟.. ولماذا تظلّ ثابتةً لا تتغير؟..
لماذا لم تتعارض أو تتصادم؟..

تساؤلات لا تنتهي..

□ السؤال الثالث: من أين جاء العقل؟..

لئن كان العقل قادرًا على أن يفهم ذاته ومحيطه والكون بأسره..
فإنَّ المادةَ جمادٌ لا تعرفُ نفسها ولا أيَّ شيءٍ مما حولها.. فكيف
أوجدت هذه المادةُ عقلًا؟.. من الذي زوّدَ العقلَ بالقدرة على
الإدراكِ والوعي والاستيعاب؟.. هل يُنتجُ الوعي من اللاوعي؟..
من الذي منحَ العقلَ القدرةَ على التفكير والتحليل والإبداع؟..
هناك انسجامٌ بين العقل والقوانين، فكأنه خلق ليفهمها؟..
فكيف حصلَ هذا الانسجام؟.. من الذي برمجَ العقلَ لكي يتمكن
من إدراك وفهم المعادلات، وفك شيفرة القوانين والمعادلات؟..
ولماذا هو متوافقٌ تمامًا مع قوانين الطبيعة؟..
تساؤلاتٌ لا تنتهي..

□ السؤال الرابع: من أين جاء الشعور والوعي؟..

الإنسانُ يشعرُ بنفسه، ويدركُ أنه موجودٌ، ويمكنه أن يتأمل ذاته،
وأن يفكرَ في مصيره، وأن يحاورَ ضميره..
وفي داخله شيءٌ يفرحُ ويحزن، يغضبُ ويرضى، يخافُ ويرجو،
يشتاqu ويتألم.. شيءٌ لا يرى ولا يُمس، ولكن يُشعرُ به شعورًا

حقيقياً.. فكيف حدثَ هذا؟.. من أين يأتي هذا الشعور؟..

من الذي يمنحُ الإنسانَ هذا الإدراكَ العميقَ؟..

من زرع في الإنسان القدرةَ على الضحك والبكاء، والحنينَ والندم، والرحمةَ والغيرة؟.. من علّمه أن يتأثرَ بكلمة؟ ويشتاقُ إلى غائبٍ؟ ويشعرُ بتأنيب الضمير؟.. هل المادةُ تمنحُ ما لا تملكه؟..

من الذي صمّم وأبدعَ هذه المشاعرَ والأحاسيسَ؟..

تساؤلاتٌ لا تنتهي..

□ السؤال الخامس: من أين جاءت الأخلاق؟..

الإنسانُ يشعرُ بأنَّ الصدقَ فضيلةٌ.. وأنَّ الكذبَ رذيلةٌ..

يشعرُ بأنَّ الظلمَ قبيحٌ.. وأنَّ العدلَ حسنٌ..

كلنا يعتزُّ بالشرف، ويمجّدُ الصدقَ والوفاء، والعدلَ والإيثار..
ويُحبُّ التضحية، ويتأثرُ بالرحمة، ويعترضُ على القسوة، ويمجّدُ
الشجاعة، ويشفقُ على المظلوم..

كلنا نُشفقُ على الضعيف، ونتعاطفُ مع المتألم، ونلومُ الظالم،
ونُدينُ الخائنَ والكاذب.. كلنا نحتكمُ إلى منظومةٍ أخلاقيةٍ داخليةٍ
موحدةٍ رغمَ اختلافِ الثقافات.. فمن أين جاء كلُّ هذا؟..

من الذي غرسَ فينا الإحساسَ بالذنب؟.. وتأنيبَ الضمير؟..
والرغبةَ في الاعتذار عن الخطأ؟..

ما مصدرُ الشعورِ العميقِ بالصواب والخطأ؟..

تساؤلاتٌ لا تنتهي..

□ السؤال السادس: كيف توافرت كلُّ عوامل الحياة؟..

الكائناتُ الحيَّةُ لا يمكنها أن تعيشَ لوحدها، ولا بدَّ أن يتوافرَ لها
بيئةٌ كاملةٌ.. هواءٌ تتنفسُهُ، ماءٌ عذبٌ تشربه، شمسٌ تضبطُ الحرارةَ
والنور.. أرضٌ ثابتةٌ ممهدةٌ قابلةٌ للزراعة.. نباتاتٌ تنمو وتُثمر..
حيواناتٌ ذاتُ منافعٍ متعددة.. فمن الذي أوجدَ كلَّ هذا؟.. وهياً هذه
البيئةَ المتكاملة؟. من الذي جعلَ النباتَ غذاءً، والفاكهةَ متعةً،
والعسلَ شفاءً؟.. والأعشابَ دواءً؟..

من الذي نسَّقَ كلَّ هذه العواملِ في تناغمٍ عجيب؟..

ورتبها بنسبٍ ومقاديرٍ مناسبةٍ قبل أن يوجدَ الإنسان؟..

ومن الذي يحافظُ على هذا التوازنِ بدونِ خلل؟..

من الذي أعدَّ الحياة؟.. وأرادَ لها أن تستمر؟..

تساؤلاتٌ لا تنتهي..

□ السؤال السابع: من كتب شفرة DNA؟..

في كل خلية من الخلايا، توجدُ شيفرةٌ دقيقةٌ تحملُ ملايين التعليمات، مشفرةٌ بلغةٍ رباعيةٍ ثابتة، تقودُ كل خليةٍ لتقوم بوظيفتها الدقيقة، وتُنسخُ بنفس الطريقة في كل الكائنات، وتُقرأ بنفس النظام، وتنفذ بنفس المعايير.. إنها شيفرةُ الحياة: الـDNA.. فمن كتب الشيفرة؟.. ومن صمّمها؟. ومن حدّد حروفها الأربعة؟..

من أعطى كل حرفٍ معناه الخاص؟. ومن علّم الخلية أن تفهم اللغة؟. وأنشأ قواعد الترجمة؟. ومن جعل الشيفرة تُقرأ باتجاه واحد؟.. ومن حدّد البدء والانهاء؟..

ومن رتبها بحيث لا يختلّ منها شيء؟.. ومن صمّم آليات التصحيح داخلها؟.. ومن أعطاهَا خاصية التكرار والنسخ؟.. ومن جعلها تُصلح نفسها إن فسد منها شيء؟..

تساؤلاتٌ لا تنتهي..

□ السؤال الثامن: من أين جاءت الحياة؟..

الحياة أعظمُ لغزٍ في الوجود.. والعلم يُقرّر: أن الحياة لا تأتي إلا من كائنٍ حيٍّ، فمن أين جاءت الحياة الأولى؟..

كيف ظهرت أول خلية؟.. من الذي منح الحياة الحياة؟..
 عباقرة العلماء يمضون عشرات السنين يحاولون «فهم» الحياة،
 ولم يخلقوها.. فكيف خلقها مستنقع طين؟!..
 من الذي أخرج الحياة من قلب جمادٍ لا حياة فيه؟..
 كيف بدأت أول نبضة؟.. ومن أودع في الخلية القدرة على أن
 تتغذى وتنفس وتنمو وتتكاثر؟.. من الذي ابتكر في المادة خصائص
 الحياة؟.. وهل حدث كل هذا بلا قصدٍ ولا إرادة؟..
 كيف اجتمع البروتين والحمض النووي والغشاء الخلوي في
 مكانٍ واحد، وفي لحظةٍ واحدة.. بينما العلم يقول: لا يمكن لأحدها
 أن يعمل بدون الآخر؟..
 تساؤلات لا تنتهي..

□ السؤال التاسع: من علم الكائنات ومن برمج الفرائز؟

يولد الكائن الحي، وهو يعرف ويؤمن ما لم يتعلمه..
 الطفل يصرخ فور ولادته، ثم يبحث عن صدر أمه..
 النملة تشق طريقها، وتخزن غذاءها، بلا معلم..
 الطيور تهاجر آلاف الكيلومترات في مواسم محددة، ثم تعود

بدقةٍ إلى أعشاشها الأولى.. فمن علّمها؟..

أسماكُ السلمون تهاجرُ لآلاف الكيلومترات، ثم تعودُ لنفس
الجدولِ الذي وُلدت فيه.. فمن أرشدها؟..

من هدى النحلة لتبني خلاياها سداسيةً محكمة؟..

من علّم العنكبوت فنّ النسيج من غير تدريبٍ ولا تعليم؟

من جعل القطّة تدفنُ فضلاتها؟.. من أودعَ في الكائنات
سلوكياتٍ وتصرفاتٍ، لا تشرحها الجينات ولا الماديات؟
من الذي علّمها قبل أن تتعلّم؟. وهداها قبل أن تعرف؟.

تساؤلاتٌ لا تنتهي..

□ السؤال العاشر: لماذا نبحثُ عن المعنى؟.

في أعماق النفس البشرية، هناك صوتٌ خافت، لا يكاد يُسمع،
لكنه يُلحُّ بلا توقف: من أين جئنا؟..

لماذا نحن هنا؟. ما الغايةُ من وجودنا؟. إلى أين نمضي بعد أن
تنقضي أيامنا؟.. ما الهدف والمغزى من هذه الحياة؟..

هل يمكن أن تكونَ هذه الأسئلةُ الملحةُ مجردَ تطوّرٍ بيولوجي
عشوائي؟..

لماذا نشعر بأن هناك ما هو أعمق من المادة؟.. ولا تهدأ النفس إلا حين تجد جوابًا مقنعًا؟..

لماذا نبحث عن المعنى، وعمّا وراء المادة؟..

من أين جاء هذا الظمُّ الداخلي للمعرفة؟..

أكلُّ هذا صدفة؟.. تساؤلاتٌ لا تنتهي..

□ السؤال الحادي عشر: لماذا لا نتحدث الطبيعة معنا؟

يزعمون أنّ «الطبيعة» هي التي خلقت الكونَ بكل ما فيه من كائنات، وهي التي رتبت الأنظمةَ ووضعت القوانين، وكلُّ ذلك بلا علمٍ ولا قصدٍ.. حسنًا، فلم لا تتواصل الطبيعة مع مخلوقاتها؟.. لم لا تبين لهم مُرادها وغايتها؟..

كيف تستطيع الكائنات أن تُفكّر وتتكلم، وأن تتواصل وتتعلم، وأن تعمل بحكمةٍ وقصد، بينما الطبيعة لا يمكنها أيُّ من ذلك؟.. هل المخلوقات أذكى ممن خلقها؟..

هل يُعقل أن تكون المخلوقات أكثرَ وعيًا وعقلًا وإدراكًا من «القوة» التي أوجدتها بهذا الشكل؟..

هل يمكن أن ينتج الوعي والإدراك ممن لا يملكه؟..

أليس الخالقُ أولى بالعلم من مخلوقاته؟ .. وأقدرَ على التواصلِ
والتفاعل؟ .. فلم لا تفعلُ الطبيعة ذلك؟ ..
تساؤلاتٌ لا تنتهي ..

□ السؤال الثاني عشر: لماذا توقفت الصدفة؟.

يقولون إنَّ الكائنات الحيةَ ظهرت بفعل الطفرات .. وأنَّ تلك
الطفرات هي من أنتجَ التنوعَ والتطوُّرَ والارتقاء .. والسؤالُ هنا:
لماذا توقَّفت الطفرات؟ .. لماذا لم نشهد ولو لمرةٍ واحدةً تطوُّرَ
كائنٍ بسيطٍ إلى نوعٍ جديدٍ أعلى؟ .. ألم تكن تحدث «بكثرة»؟ ..
فلماذا لم يرصدها أحد، لا في الطبيعة، ولا في المختبر؟ ..

لماذا لم يُسجَّل حتى اليوم أيُّ تغييرٍ جوهريٍّ نافعٍ في أي كائنٍ
حي؟ .. لا في خلايا البكتيريا، ولا في الحشرات، ولا في الزواحف،
ولا في غيرها، رغم آلاف التجارب؟ ..

هل من المنطق أن تحدثَ ملياراتُ الطفرات في الماضي، ثم
تختفي تمامًا في الوقت الحاضر؟ ..

وهل من سببٍ منطقيٍّ لهذا الاختفاء والتوقف؟ ..

تساؤلاتٌ لا تنتهي ..

□ السؤال الثالث عشر: لماذا عجزوا عن خلق خلية؟

يزعمون أنّ أول خلية حية نشأت في «مستنقع بدائي».. لأنه تهيأ لها بيئة مناسبة.. وهذا أمرٌ غيبي لا يمكن تصديقه بلا دليل صحيح.. لكن لا بأس، فلقد تقدم العلم كثيراً، وأصبح يملك مختبرات متطورة، وحواسيب عملاقة، وقدرة فائقة على التحكم بالبيئة والحرارة والضغط ونسب المواد.. إلخ..

فلماذا لم يستطع العلماء رغم سعيهم الدؤوب إنشاء خلية حية واحدة من العدم؟.. لا في المختبر.. ولا في أي مكان آخر؟.. لماذا عجزوا عن تقليد ما يزعمون أن «الطبيعة» فعلته بسهولة وبدائية؟.. هل من المنطقي أن تفعل الطبيعة والصدفة ما عجزت عنه فرق العلماء المتخصصين، ولعشرات السنين؟.. تساؤلات لا تنتهي..

□ السؤال الرابع عشر: لماذا لم تتطور الخلايا البدائية؟

يقولون إنّ الحياة تطورت من الخلايا البدائية حتى وصلت إلى الإنسان عن طريق الطفرات.. إلا أنه ما زال هناك ملايين الخلايا البدائية موجودة حتى اليوم، كما كانت!.. وما زالت تحتفظ بنفس تركيبها، ونفس بساطتها، دون أن تتغير أو «تتطور».. كالبكتيريا،

والطحالب، وبعض الكائنات الدقيقة..

والسؤال لماذا بقيت على حالها؟..

لماذا لم تتغير؟.. لماذا لم تصبح كائناتٍ أعلى؟..

أليس التطور كما يقولون سنة الحياة، فلماذا تطور غيرها، ولم تتطور هي؟. هل خذلتها الطفرات؟. أم استثنائها الانتقاء؟..

أم أنها لم تكن بحاجةٍ إلى تطورٍ أصلاً؟..

وإذا كانت الحياة كلها تطورٌ مستمر، فكيف نبرر هذا الثبات الطويل والعجيب؟.. تساؤلاتٌ لا تنتهي..

□ السؤال الخامس عشر: لماذا لا يتزاوج الإنسان والقرد

تقول النظرية: إنَّ الإنسانَ تطورَ من كائنٍ شبيهٍ بالقرد، وإنَّ بينهما سلفاً مشتركاً عاش قبل ملايين السنين، وإنَّهما يتشاركان في كثيرٍ من الخصائص والصفات، والسؤال لماذا لا يمكنُ أن يتزاوجا؟.. لماذا لا توجدُ قابليةٌ أن يتزاوج آخر القردةِ تطوراً مع الإنسان؟..

لماذا لا يحدثُ تزاوجٌ بين رجلٍ وقردةٍ، أو قردٍ وامرأة، كما يحدثُ بين الحصانِ والحمار، والنمرِ والأسد؟. والكلبِ والذئب؟.. فهذه كلها يمكنها أن تتزاوج وتنتجُ نسلًا، فلماذا لا نرى

ذلك مع القرد والإنسان؟..

أليس المفترض حسب قولهم أنهما أقرب لبعضهما من كل تلك الفصائل؟.. فلماذا لا توجد بيننا وبينهم أي قابلية بيولوجية للاندماج؟.. تساؤلات لا تنتهي..

□ السؤال السادس عشر: لماذا بقيت القروء قروءاً؟..

إذا كان الإنسان بحسب زعمهم قد تطور من سلالة قرد.. وإذا كانت الطفرات العشوائية، والانتقاء الطبيعي، والظروف البيئية، هي الأسباب التي دفعت بهذا القرد ليصبح إنساناً، فلماذا لم تتطور بقية القروء؟..

هناك أكثر من ثلاثة آلاف نوع من القروء المختلفة، تتباين في أشكالها، وأحجامها، وبيئاتها، وأعضائها.. فلماذا عجزت كل هذه الأنواع عن أن تسير على طريق «التطور العظيم»؟..

لماذا لم تُنتج لنا الطبيعة عبر ملايين السنين نوعاً آخر من القروء تتطور نحو البشرية؟.. لماذا بقوا كلهم قروءاً؟..

هل يُعقل أن تصيب الطفرات نوعاً واحداً بهذه القفزات الهائلة، وتترك آلاف الأنواع الأخرى كما هي؟.. تساؤلات لا تنتهي..

□ السؤال السابع عشر: أين ذهب الكائن الوسيط؟

بحسب نظرية الارتقاء، فإنَّ هناك فارقاً هائلاً بين الإنسان وبين أرقى أنواع القردة.. هناك قفزاتٌ ضخمةٌ في البناء الجسدي، وفي القدرات العقلية، وفي نظام اللغة والتواصل، وفي درجة الوعي وفهم الذات.. وهذه القفزاتُ لا يمكن أن تكونَ بلا مرحلة انتقالية، فلا بدَّ بحسب المنطق التطوري وتسلسله المزعوم، لا بدَّ من وجود «كائنٍ وسيط»، وربما أكثر من كائن.. يتصفُ هذا الكائنُ بأنه أرقى من القرد، وأدنى من الإنسان.. بحيثُ يكونُ هذا الكائنُ حلقة وصلٍ ارتقائية. فأين هو هذا الكائن؟.. لماذا لم نعثر له على أيِّ أثرٍ مادي؟.. لا عظام، لا أدوات، لا آثار، لا شيء..

كيف استطاع العلم الحديث أن يجد بقايا حيوانات انقرضت قديماً، كالديناصورات والماموث، وبكمياتٍ كثيرة، ولم يجد بقايا كائن يفترض أنه أقرب إلينا زماناً، وأرقى حضارةً، وأكثر تأثيراً.. وإذا كان هذا الكائنُ الوسيطُ قد انقرض.. فأين سلالته؟..

لماذا لم يتبقَّ أيُّ فصيلةٍ منه؟..

ولماذا لم نرَ حتى اليوم كائنًا حيًّا شبيهاً به؟..

مثلاً: لِمَ لا توجد قروُدٌ تمشي على قدمين بشكلٍ دائمٍ؟..

لِمَ لا توجد قروُدٌ تتكلم ولو بلغة بدائية؟..

لِمَ لا توجد قروُدٌ بجلدٍ وبشرةٍ شبيهةً بجلد الإنسان؟..

لِمَ لا توجد قروُدٌ تستخدمُ الأدوات، أو تُشيدُ مأوىً معقداً؟..

أو تكونُ مجتمعاً متواصلاً بدرجةٍ أرقى؟..

أين هي هذه «الدرجات التطورية» المتوقعة؟..

هل يمكنُ أن يقفزَ القردُ مباشرةً إلى إنسان؟..

أين اختفى هذا الكائنُ الوسيط؟..

تساؤلاتٌ لا تنتهي..

□ السؤالُ الثامن عشر: لماذا لم تتغيرِ الأعضاء؟..

تقولُ نظريةُ التطور: إنَّ الطفراتِ المفيدةَ تظهرُ نتيجةَ الحاجة، وأنَّ الكائنَ الحيَّ يتطورُ تدريجياً ليواكبَ بيئتهُ وظروفه، وأنَّ كلَّ تغييرٍ نافعٍ وإن صغرُ يُصبحُ سمةً ثابتةً في الأجيال القادمة.. حسناً.. فإذا كانت الحاجةُ هي مُحرِّكُ التَّطور.. لماذا لم يتطور أيُّ عضوٍ من أعضاء الإنسان؟..

لماذا على سبيل المثال لا يولد الأطفال مختونين؟..

رغم أن اليهود والمسلمين يختنون أبناءهم منذ آلاف السنين، ألا يُفترض أن تختفي الغلّة الزائدة مع الزمن؟..

ولماذا لا يزال شعر الإبطين والعانة ينبت بنفس الكثافة، رغم أن أكثر البشر يزيلونه منذ قرون طويلة؟..

هناك الكثيرون ممن عاشوا في بيئات بحرية، ويمتهنون الغوص والسباحة، ويقضون أغلب حياتهم بجوار البحر.. فلماذا لم يظهر لهم أيّ تغيير في شكل أنوفهم أو جهازهم التنفسي؟.. لماذا لم تنشأ لديهم خياشيم؟ أو أغشية بين الأصابع تُساعدهم على السباحة؟.. على الأقل لم لا يمتلكون قابلية أعلى لتحمل نقص الأكسجين كالحيات والدولفين؟..

لماذا بقيت الزائدة الدودية التي يزعمون أنها عديمة الفائدة، بقيت موجودة عند كل البشر حتى اليوم؟..

أليست هذه فرصة ذهبية «للتطور المفيد» أن يتدخل؟.. وإذا كانت الطفرات تحدث باستمرار، والحاجات تتكرر،

فلماذا لا نرى نماذج من «التكيف التطوري» تحدث أمامنا؟.. لماذا لا يزال الإنسان كما هو: يحتاج أن يُقَصَّ شعره، ويغسل أسنانه، ويُنظف جلده، ويحمي نفسه من الميكروبات، ويولد بعملية ولادة مُتعبة وخطيرة؟.. هل كل هذه الملايين من السنين لا تكفي لنشوء «أيّ تعديل ولو صغيراً»؟.. تساؤلات لا تنتهي..

□ السؤال التاسع عشر: من أين جاء الجمال؟.. ولماذا؟..

تقول نظرية التطور: كُلُّ سِمَاتِ الكائن الحي «وظيفية»، أي: أنها تُساهم في بقاءه، أو تساعد في التكاثر، أو التكيف مع بيئته..

فماذا عن الجمال؟.. من الذي صمّمه، وما الحاجة له؟.. هل الصدفة تُصمّم وتنتج شيئاً لا تحتاجه؟.. ومن الذي زرع فينا حبّ الجمال؟.. لماذا ننفل ونفاعل مع أيّ مشهدٍ جمالي نراه؟.. ولماذا يسعد القلب لرؤية وردةٍ مُفتحة، أو سماع صوتٍ رخم؟.. وكيف نُفسّر هذا «الترف الجمالي» في كونٍ يُفترض أنه نشأ عشوائياً؟.. ولماذا صمّمت أشياء فائقة الجمال في بيئات لا تراها عين؟.. كأسمك الأعماق، أو طيور الغابات النائية، أو الكائنات المجهرية، وغيرها؟.. وهل «التطور المادي» يملك كل هذا الذوق الراقي؟..

تساؤلات لا تنتهي..

□ السؤال العشرون: ماذا بعد الموت؟..

يمضي الإنسان في طريقٍ طويلٍ.. يكافحُ ويتعلمُ ويكدحُ ويتألمُ
ويبني ويتزوج ويُنجبُ و... ثم يكبرُ ويضعفُ، ويهرمُ.. وفي النهاية:
يموت.. فما الغايةُ من هذا كله؟..

ومن الذي حدّد البداية؟.. ومن الذي حدّد النهاية؟..

ولماذا لا يستطيعُ أحدٌ أن يهربَ من مصيره المحتوم؟..

لماذا نموت؟.. ولماذا نحزنُ لفقد أحبائنا؟..

لماذا نخافُ من المجهول؟..

لماذا نُحسّ أن هناك شيئاً ما بعد الموت؟..

من الذي وضعَ في قلوبنا شعوراً بحبِّ الحياةِ وطلبِ الخلود؟..

لماذا تقاومُ عقولنا وفطرُتنا فكرةَ الفناء؟..

لماذا نتشوّقُ إلى عالمٍ آخر؟.. من زرعَ فينا هذا التطلّع؟..

لماذا نشعرُ أن الدنيا لا تكفي، وأن وراءها شيئاً أعظم؟

تساؤلاتٌ لا تنتهي..

تلك كانت عينةً من عشرين سؤالاً، فيا أيها الملحدون، هاتوا
برهانكم إن كنتم صادقين، وهاكم برهاننا فإننا صادقون؛ وصدق الله:
﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوْسِي ۚ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ ۚ وَبَثَّ فِيهَا
مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ ۚ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَذَا
خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ۚ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾

[لقمان: ١٠-١١]..



الخاتمة

أيها القارئ الكريم:

ها قد بلغنا - بحمد الله - ختامَ هذه الرحلة الفكرية، بعد أن سرنا معاً على صراطٍ من الأدلة المتنوعة: العقلية والعلمية والفطرية والتاريخية واللغوية وغيرها. ولقد أزلنا بفضل الله الغشاوة عن البصائر، ووقفنا على منارات شاهقة من الحقائق، ورأينا التطابق العجيب بين فطرة القلب السوي، ومنطق العقل السليم، ونور الوحي المعصوم..

لقد كان لنا هدفٌ وجيدٌ: أن نقدم لك اليقين في صورة حجة واضحة، تُزيل الحيرة، وتُجيب على التساؤل الأكبر، وتُفند الشبه بأدلة عقلية.. بدءاً من وجود الخالق تعالى إلى صدق الرسول ﷺ، إلى تفنيد الإشكالات والشبهات، إلى تحصين النفس من الزيغ والانحرافات..

فيا من تبحث عن الحق: ها هو النور أمامك. ولا طمأنينة من غير إيمانٍ ويقين.. ولا يقين إلا حين تصفو الفطرة، ويتجرد العقل ويسلّم للوحي الصادق. هناك تأتي الطمأنينة التي تُغنيك عن قلق

الشك، والسكينة التي تملأ النفس وتريحها، والمعنى الذي يتسق مع رحلة الحياة بكل دقائقها.. ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]..

فَإِنْ كُنْتَ مُؤْمِنًا: فليزدك هذا الكتاب ثباتًا وحنةً وبيانًا،
فالحق أبلج..

وَإِنْ كُنْتَ مُتَرَدِّدًا: فأعد النظر بإنصاف، فالإنصاف طريق
اليقين، والحق لا يضره طول التأمل..

وَإِنْ كُنْتَ مُتَشَكِّكًا: فقد عرضت عليك الأدلة بتجرد، وبقي
عليك أن تصدق مع نفسك، فمن صدق وفق للصواب، وزال عنه
الشك والارتياب..

اللهم كما مننت علينا بإتمام هذا العمل، فتقبله بقبول حسن،
واجعله سبب هداية لكل من يقرؤه، ونورًا يهدي للحق ويزيل
الحيرة والشك، ويقينًا يملأ النفس ويريح القلب..

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (١٨٠) ﴿وَسَلِّمْ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٨١)

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿ [الصفحات: ١٨٠-١٨٢] ..



فهرس المحتويات

الإهداء	٧
الباب الأول: مدخلٌ عامٌّ	٩
نبذةٌ عن محتويات الكتاب	١٢
تعريفُ الإلحاد	١٤
أسبابُ انتشارِ الإلحاد:	١٧
الباب الثاني: أدلةٌ إثباتِ وجودِ الخالقِ جَلَّ وَعَلَا ...	٢٢
تمهيد:	٢٢
النوع الأول من الأدلة: الأدلة العقلية المنطقية	٢٤
الدليلُ العقليُّ الأول: دليلُ التصميمِ الحكيم:	٢٤
الدليلُ العقليُّ الثاني: دليلُ الخلقِ والإيجاد	٢٩
الكونُ مُحدثٌ وليس بأزليٍّ ولا قديم:	٣٠
الدليلُ العقليُّ الثالث: الإثباتُ مُقدمٌ على النفي	٣٢
الدليلُ العقليُّ الرابع: دليلُ التسخير	٣٤
الدليلُ العقليُّ الخامس: العلمُ لا يأتي ممن لا يعلم	٣٦
النوع الثاني من الأدلة: الأدلة العلمية	٣٩

- الدليل الأول: انتظام الكون ودقته وشدة انضباطه..... ٣٩
- الدليل العلمي الثاني: دليل الثبات..... ٤٨
- الدليل العلمي الثالث: التكامل التعاوني .. ٥١
- الدليل العلمي الرابع: موت الطبيعة..... ٥٥
- الدليل العلمي الخامس: استحالة الصدفة حسابياً..... ٥٧
- النوع الثالث من الأدلة: دليل الفطرة..... ٦٢
- النوع الرابع من الأدلة: الدليل الأخلاقي .. ٦٧
- النوع الخامس من الأدلة: الدليل الجمالي..... ٧١
- النوع السادس: أدلة الهداية الربانية للفرد والأمة..... ٧٨
- الأول: دليل الهداية الربانية للأفراد..... ٧٨
- ثانياً: دليل الهداية الربانية للأمة..... ٨١
- النوع السابع من الأدلة: الدليل اللغوي..... ٩٠
- النوع الثامن من الأدلة: الدليل التاريخي..... ٩٤
- الباب الثالث: أدلة الإعجاز في القرآن والسنة.. ٩٩**
- الدليل الإعجازي الأول: الإعجاز البياني..... ١٠٠
- الدليل الإعجازي الثاني: سطوة القرآن وقوة تأثيره..... ١٠٣
- الدليل الإعجازي الثالث: الإعجاز العلمي..... ١٠٨
- الدليل الإعجازي الرابع: الإعجاز التشريعي..... ١١٢

- الدليلُ الإعجازيُّ الخامسُ: الإعجازُ الغيبيُّ ١١٩
- الدليلُ الإعجازيُّ السادسُ: حفظُهُ من التَّحريف ١٢٥
- الدليلُ الإعجازيُّ السابعُ: الإعجازُ الصوتيُّ ١٢٨
- الدليلُ الإعجازيُّ الثامنُ: الإعجازُ الشفائيُّ ١٣٢
- الدليلُ الإعجازيُّ التاسعُ: الإعجازُ التجديديُّ ١٣٥
- الدليلُ الإعجازيُّ العاشرُ: الإعجازُ الاستيعابيُّ ١٣٩
- الباب الرابع: أدلةُ صدقِ الرسول ﷺ ١٤٥**
- الدليلُ الأولُ: عظمةُ أخلاقِهِ ﷺ ١٤٦
- الدليلُ الثاني من أدلةِ صدقِهِ ﷺ: صبرُهُ وثباتُهُ ١٥٢
- الدليلُ الثالث: شِدَّةُ محبةِ الصحابةِ لَهُ ﷺ ١٥٦
- الدليلُ الرابع: إعلانُهُ المبكرُ لعالميةِ الرسالة ١٦٠
- الدليلُ الخامس: زهدهُ وصمودُهُ أمامَ الإغراءاتِ ١٦٤
- الدليلُ السادس: توازنُ شخصيتهِ ﷺ وتكاملها ١٦٨
- الدليلُ السابع: تبتُّلُهُ وكثرةُ عبادتِهِ لربه جَلَّ وَعَلَا ١٧٢
- الدليلُ الثامن: فصاحتُهُ وحُسْنُ بيانهِ ﷺ ١٧٧
- الدليلُ التاسع: تجردُهُ وثقتهُ المطلقةُ بمن أرسلهُ ١٨٣
- الدليلُ العاشر: استحالةُ استمرارِ الكذبِ ١٨٩

الدليل الحادي عشر: أجوبته الإعجازية ١٩٢

الدليل الثاني عشر: شواهد واقعية وأحداث فُجائية ١٩٩

الشاهد الأول: كسوف الشمس يوم وفاة إبراهيم ١٩٩

الشاهد الثاني: ما ظنك باثنين الله ثالثهما ٢٠٠

الشاهد الثالث: «هلم إلي عباد الله» ٢٠١

الشاهد الرابع: «أنا النبي لا كذب» ٢٠٢

الشاهد الخامس: الجمل العاصي ٢٠٣

الباب الخامس: توظيف الأدلة..... ٢٠٨

تمهيد: ٢٠٨

الإلحاد والأساس الخرب ٢١٧

الباب السادس: نتائج الإلحاد وثمراته..... ٢٣٨

(١) كثرة الانتحار: ٢٣٩

(٢) الأنانية والنزعة الفردية ٢٤٢

(٣) انهيار القيم الأخلاقية ٢٤٤

(٤) الجنوح للجريمة ٢٤٦

(٥) تفكك الأسرة وضعف العلاقات الاجتماعية ٢٤٨

(٦) انهيار أنظمة المجتمع التكافلية ٢٥٠

(٧) تمزق المجتمع وتناحره أحزابًا ٢٥٢

(٨) العَدَاءُ الشَّدِيدُ لِلدِّينِ وَالْمُتَدِينِينَ ٢٥٣

(٩) التَّدْلِيسُ الْعِلْمِيُّ ٢٥٥

(١٠) الْإِيمَانُ بَعْبِيَّةُ الْوُجُودِ ٢٥٧

(١١) انْفِلَاتُ الْغُرَائِزِ ٢٦١

(١٢) رَدُّ غِيبَاتِ الدِّينِ تَقْدِيسًا لِلْعَقْلِ وَغُلُوفًا فِيهِ ٢٦٣

مَحْدُودِيَّةُ الْعَقْلِ الْبَشَرِيِّ .. وَلِمَاذَا لَا يَكْفِي وَحْدَهُ ٢٦٣

الْصَّدْفَةُ: بَدِيلُ الْإِلَهِ ٢٧٠

البَابُ السَّابِعُ: الرَّدُّ عَلَى أَبرَزِ شُبُهَاتِ الْمُلْحِدِينَ ٢٧٦

تَعْرِيفُ الشُّبْهَةِ: ٢٧٦

الشُّبْهَةُ الْأُولَى: مَنْ خَلَقَ الْخَالِقَ ٢٧٨

الشُّبْهَةُ الثَّانِيَّةُ: لِمَاذَا يُقَدَّرُ اللَّهُ عَلَيَّ الْعَذَابَ ٢٨٢

الشُّبْهَةُ الثَّلَاثَةُ: مَا لَا يُدْرِكُ بِالْحَوَاسِّ فَلَا وَجُودَ لَهُ ٢٨٤

الشُّبْهَةُ الرَّابِعَةُ: مُشْكَلَةُ الشَّرِّ ٢٨٧

الشُّبْهَةُ الْخَامِسَةُ: لَا وَجُودَ لِحَقٍّ مُطْلَقٍ ٢٩٧

البَابُ الثَّامِنُ: حَصَانَةٌ وَإِلْزَامٌ ٣٠١

تَمْهِيدٌ: ٣٠١

أَوَّلًا: أَهَمُّ وَسَائِلِ الْوَقَايَةِ مِنْ شُبُهَاتِ الْمُلْحِدِينَ: ٣٠٢

أَوَّلًا: التَّسْلِيمُ لِكَلَامِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَكَلَامِ رَسُولِهِ الْأَمِينِ ﷺ ٣٠٢

- ثانيًا: تعظيمُ الله في القلب، وتثبيتُ أصلِ الإيمان به... ٣٠٣.....
- ثالثًا: ربطُ النفسِ بالله ربطًا ذوقيًا وشعوريًا، لا معرفيًا فقط... ٣٠٣.....
- رابعًا: العناية بالقرآن تلاوةً وتدبرًا وتمسكًا،..... ٣٠٤.....
- خامسًا: الاهتمامُ بالتأصيل الشرعيِّ الكافي،..... ٣٠٤.....
- سادسًا: الثباتُ والتَّماسُكُ أمامَ الشبهات،..... ٣٠٥.....
- سابعًا: تنميةُ الحسِّ النقدي،..... ٣٠٥.....
- ثامنًا: الاهتمامُ بعبادة الذِّكْرِ والتَّفَكُّرِ في آياتِ الله الكونيةِ
- والشرعية... .. ٣٠٦.....
- تاسعًا: أن يعرفَ القارئُ حدودَ العلمِ التجريبي، ٣٠٦.....
- عاشرًا: الصحبةُ الصالحة، والبيئةُ الإيمانية،..... ٣٠٦.....
- الحادي عشر: أن يتعلمَ المسلمُ شيئًا من قواعد المنطق، ٣٠٧.....
- الثاني عشر: تجنب الدخول في مواقع الملحدين بلا خبرةٍ
- كافية،..... ٣٠٧.....
- الثالث عشر: اللجوءُ الصادقُ إلى الله، وسؤاله الهداية..... ٣٠٨.....
- ثانيًا: عشرون سؤالًا لا يستطيعُ الملحدُ أن يُجيبَ عليها إلا إذا آمن
- بوجود الخالقِ جَلَّ وَعَلَا..... ٣٠٩.....
- السؤال الأول: من أين جاءت المادةُ الأولى؟..... ٣١٠.....

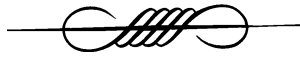
- السؤال الثاني: كيف جاءت قوانينُ الفيزياء؟ ٣١١
- السؤال الثالث: من أين جاء العقل؟ ٣١٢
- السؤال الرابع: من أين جاء الشعور والوعي؟ ٣١٢
- السؤال الخامس: من أين جاءت الأخلاق؟ ٣١٣
- السؤال السادس: كيف توافرت كلُّ عوامل الحياة؟ ٣١٤
- السؤال السابع: من كتب شفرة DNA؟ ٣١٥
- السؤال الثامن: من أين جاءت الحياة؟ ٣١٥
- السؤال التاسع: من علّم الكائنات ومن برمج الغرائز؟ ٣١٦
- السؤال العاشر: لماذا نبحثُ عن المعنى؟ ٣١٧
- السؤال الحادي عشر: لماذا لا نتحدثُ الطبيعةُ معنا؟ ٣١٨
- السؤال الثاني عشر: لماذا توقفت الصدفة؟ ٣١٩
- السؤال الثالث عشر: لماذا عجزوا عن خلق خلية؟ ٣٢٠
- السؤال الرابع عشر: لماذا لم تتطور الخلايا البدائية؟ ٣٢٠
- السؤال الخامس عشر: لماذا لا يتزاوج الإنسان والقرد ٣٢١
- السؤال السادس عشر: لماذا بقيت القروود قروداً؟ ٣٢٢
- السؤال السابع عشر: أين ذهب الكائن الوسيط؟ ٣٢٣
- السؤال الثامن عشر: لماذا لم تتغير الأعضاء؟ ٣٢٤

السؤال التاسع عشر: من أين جاء الجمال؟.. ولماذا؟... ٣٢٦

السؤال العشرون: ماذا بعد الموت؟... ٣٢٧

الخاتمة ٣٢٩

فهرس المحتويات ٣٣١



لماذا هذا الكتاب

لأنَّ الإنسانَ لا يستغني عن اليقين..

ولأنَّ الإيمانَ لا يُؤخذُ تقليدًا، بل يُبنى على علمٍ وبصيرة..

ولأنَّ الشكوكَ والشبهات قد عمّت وطمّت، وعبثت بنفوس طالما كانت مطمئنة.. ولأننا في زمنٍ كثير فيه "القليلُ والقال"، وقلَّ فيه التثبت بالدليل، وضمَّع فيه صوت الفطرة والعقل، وعلا فيه ضجيج الهوى والتهريج..

ولأنَّ كثيرًا ممن تاهوا في صحراء الإلحاد، لم يجدوا من يناقشهم بحكمة، أو يرد عليهم بحجة، أو يأخذ بأيديهم برحمة..

ولأنَّ الفطرةَ مهما خمدت، فإنها لا تموت، ولأنَّ العقلَ مهما غل، فإنه يتوق إلى اليقين، ولأنَّ النفسَ مهما تاهت، فإنها تبحث عن الحقيقة.. ولأنَّ القلبَ مهما تقلب فإنه ينشد الطمأنينة.. ولأنَّ الهداية لها أسباب..

لهذا كله جاء هذا الكتاب.. ومن الله التوفيق والصواب..